

مسين مجيب المصري

المدرس بجامعة فؤاد الأول

سليو القري والبركة



في سون
الرفيق

حسين مجيب (مصري)

المدرس بجامعة فؤاد الأول

مسألة الفري والبر



حسين مجيب المصري

المدرس بمعهد الدراسات الشرقية
(كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول)

من الأوب الفرس والتر

إلى روح صديق

بسم الله الرحمن الرحيم

oboeikandi.com

مقدمة

هذا كتاب ينطوى على فصول قصار تنتظم صدرا صالحا من أدب الفرس والترك ، وتجلو صورا من تاريخهم على نحو آمل أن يشوق ويروق ، ويجعل المطالعة في مرغوب كل مطالع بود أن يستفيد ما ليس عنده ويتعلم ما لم يعلم . وقد حرصت الحرص الشديد على أن يكون خطابي في هذه الصفحات إلى العالم المتخصص والمطلع المتأدب سواء بسواء ، فأرضيت الأول ما وسعني أن أرضيه بمادة درستها حق دراستها ، وطلبتها فيما تحصل لدى من مصادرها ، كما تجددت إلى الثانى بعرضها عليه في صورة تدفع الملالة عن نفسه وتثير شوقه إلى المزيد مما يفيد . والملاحظ أنى كنت أكثر توددا إلى ذلك القارئ الذى يؤثر ما يعجب ويضطرب على ما عداه ، ورغبته فى يسير ممتع يترشفه القلب على لذة ، بقدر رغبته عن عسير جاف ليس له من مساع ، فبعثتني البواعث على أن أجمع الكثير مما أريد فى القليل مما أقول ،

ونجافيت عما يلزم العلماء به أنفسهم من إشارة إلى المصادر ،
وتوفيق بين الروايات المتباينة ، والتدقيق في تحديد التواريخ ،
وغير ذلك من شروط البحث العلمي البحت . وقد سمعت من
وراء هذا إلى إتحاف القارئ العربي بمستطرفات ومستطرفات
من تراث أدبي إسلامي ، لا يحمل به أن يجهله تمام الجهالة . فما
يؤسف له جد الأسف ، أن يكون الخيام في رأى جمهور
المأدبين هو الشاعر الفارسي الأوحى ، مع أن الفرس
لا يعتبرونه من شعراء الطليعة عندهم ، وما تذهب عليه النفس
حسرات ، أن ينظر إلى الترك كقوم لم تدركهم حرفة الأدب ،
ويا كثر ما نظموا رائقا ونثروا قائقا . والذي أرى أن الأخذ
بالمنهج العلمي الدقيق في عرض الأدب الفارسي والتركي ، ضئيل
الجدوى إلا على تلك الفئة القليلة ممن وقفوا حيواتهم على
الدراسات الفارسية والتركية ، واشهد لقد رأيت أعراضا عن
هذه الآداب حتى من بعض المتنورين ، فقال قائلهم متبسطا ، إن
هذا علم لا ينفع لانعدام من يفهمه ويتذوقه ، وفي هذا كثير
من الشطط ، والوجه أن يقال ، إن حق المثقفين علينا - نحن
المشتغلين بتدريس هذه المواد والمعنيين دوماً بحرفها - أن

نختصهم بشيء من عنايتنا ، فنخاطبهم على قدر عقولهم بلغة يفهمونها ، ونقدم إليهم مادة يسهفونها فيشبهونها . وليكن في مكتبتنا العربية كتابان ، كتاب لصفوة المتخصصين ، وكتاب لخاصة المتعلمين ، وليزخر الأول بكل الرموز والمصطلحات ، وأسماء المراجع في جميع اللغات ، أما الآخر ، فليجانب فيه صاحبه كل ما يمكن أن يعد لبسا وغموضا ، وليذكر أنه إنما يسوق العبارة إلى من لا تكفيه الإشارة ، كما يحسن به أن يقدم الحقيقة العلمية في جملة أدبية ، وأن لا يطالع القارئ إلا على ما يتقبله بقبول حسن ويقع من نفسه موقعا ، فقد يكون الموضوع عليا يشهد للكاتب بعلو كعبه وتضلعه من عالمه ، بيد أنه وعرا لا تلاوة له تغرى به وترغب فيه . وهذا ملحظ جعلته منى على ذكر . فعمدت إلى التوزيع ونقل القارئ من بحث أدبي إلى عرض تاريخي ، وحدثته عن شاعر فارسي وآخر تركي ، ثم ترجمت له شعرا وقصصا ، وأنا أريد بذلك لأزوده من العلم بأوفي نصيب وأوقفه على نواح متعددة في إيضاح وإفهام ، ومن غير ما إيهام ولا إقحام . وجعلت كل فصل قائما برأسه بعد أن حددت الغرض منه في مقدمته ، ولما نصديت

للكتابة في التاريخ ، لم أسرد الحوادث سرداً ، دون نظر وأعمال
فكر وتوليد للبعان الكثيرة من المعنى الواحد ، فإن التاريخ
مادة أدبية أولاً وبالذات تتسع فيه منادح النظر وآفاق الفكر .
أما المترجمات ، فخصت أصحابها بأسطر معدودات للتعريف بهم
والإشارة إلى ما لآثارهم من قيمة ونفاسة ، ومذهبي في الترجمة
أن تكون لروح المعنى لا لمدلول اللفظ .

والكتاب من ألفه إلى يائه متسم بطابع الجدة والطرافة
والوجازة ، فإن ذلك أبقى في الحفظ وأخذ بالقلب ، وكثير
الكلام ينسى بعضه بعضاً كما يقولون .

وإني لزاعم لك أن هذا المنهاج الذي اخترته لنفسى ، أوفى
بالغرض ، وأعون على تحقيق الفائدة المرجوة من تناولنا
بالبحث ناحية دون غيرها ، أو شخصية بعينها ، فمن قرأ كل
شيء عن شاعر تركي مثلاً ، لا يتصور شعر الترك إلا تصوراً
ناقصاً ، ومن وقعت له صحيفة واحدة من تاريخ الفرس فقد
عرف شيئاً وغابت عنه أشياء .

ومن تحصيل الحاصل أن أقول أنه قد سبق نشر هذه
الفصول تباعاً في جريدة منبر الشرق ، غير أني زدت عليها

القليل والكثير ، بعد أن رأيت ضرورة جمعها بين دقتي كتاب
أكثر تداولها ويسهل تناولها وتنتقل من محيط صحفى كانت
غريبة عليه ، إلى محيط على هو مفرسها الذى تزكو فيه .

وبعد ، فإن هذا الكتاب فى واقع الأمر صنو لكتاب
أخرجته للناس منذ عامين تحت عنوان (فارسيات وتركيات) .
والأمل أن أعزز بثالث ورابع وأكثر ، إذا ما امتدت الأيام
وكان فى العمر صلة ، وأنها لأمانة إن قدر لى أداؤها ، فهذا
قصارى وكل دنياى ؟

القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٥٠

حسين مجيب المصرى

الوطنية في السر التركي

الترك أهل نجدة وشدة بأس ، فهم خواضو الغمرات
والفرسان الأماجد وليوث الكربة منذ فجر تاريخهم وأول
أمرهم . وقد ستمتهم بهذه الصفات بيئة أسيوية من الأحراش
والفيافي لا يعيش فيها إلا مقدام يمتشق الحسام ، وعقلية قبلية
بدائية تمجد القوى تمجيدا وتستحق الضعيف استحقاقا فلا تعرف
له حقا من الحقوق ، وتقسو عليه كثيرا فتفرض عليه واجب
الخضوع والخنوع . والامثلة على ذلك مستوفرة ، ولا نعدمها
حتى من اللغة ، فيقال إن (ترك) بمعنى قوة ، كما يسمى الفرس الغارة
الشعواء غارة الترك ، وقد يبلغون حد الشطط فيطلقون لفظ
(تركي) على المتلصص والفظ والصعلوك المتجول ، ويذكر
الفرنسيون الترك في أمثالهم فيقولون قوى كالتركي ، ويقول شاعرهم
(لقد مر الترك من هناك ، فما بعدهم إلا الدمار والبلاء والهلاك)

وقد اقترنت هذه الصفات العنيفة باسم الأتراك في ذهن الجمهور من المتأدين حتى أنكروا عليهم أن يكون فيهم جانب للبلاغة والأدب ، فالبلغ مرهف الحس بمنح الخيال ، في نفسه رقة وإقلبه خفقة ، وليس كذلك تركي غليظ شديد لاحظ له من براعة المتفنن وروحانية الشاعر .

وهذا وهم مردود لا يصدر إلا عن عدم الحجة وأعوزه البرهان . فلترك أدب يرجع عهده إلى نحو سبعة قرون خلت ، وشعرهم بعيد الغور متسع المذاهب . وإذا ما عرفنا التركي محربا وشاعرا ، فلا معدى لنا عن الاتجاه بفكرنا إلى ما عسى أن يكون له في الوطنية من شعر . وغنى عن البيان أن الوطنية والجنديّة لازم وملزوم لا سبيل إلى الفصل بينهما في التصور ، وكل قلب عامر بحب الوطن ، والناس لا يختلفون إلا في درجته من الشدة والضعف ، غير أنهم متباينون إذا فكروا وعبروا . فالوطني الجندي وصاف للحروب لا ينفك عن ذكر أهوالها وامتداح أبطالها ، والوطني السياسي يرسل الحكمة ويبدل النصيح ويضرب المثل ، وله صفة تعليمية لأنه يبصر بالحق والواجب ، وشاعر الوطنية بعامة هو شاعر الفخر والحماسة ، يعدد مفاخر قومه ويتغنى بمآثرهم

وإذا تغرب عن بلاده حن إليها ووصفها بكل جميل ، ولا يفوته
مدح القادة والزعماء ، ورثاء ضحايا الوطن من الشهداء . فإذا
نظرنا في شعر الوطنية الفيناى محتويا على فنون عدة ، أو يكاد
ينتظم أغلب ما فى الشعر من فنون .

فأين الترك من هذا كله وأين مكان الوطنية من شعرهم ؟
وأول ما يسترعى النظر هو أن الوطنية لم تظهر واضحة المعالم فى
شعرهم القديم ونعنى به شعرهم قبل مائة عام ، ولذلك أسباب لا نخفى ،
فقد جرى شعرهم القديم على نهج الشعر الفارسى الذى كان فى جملة
مقصوداً على المعانى المجردة ، متجافيا عن الدنيا ومعتزاً بها فى صوفية
هائلة حائلة ، فلم يتسع المجال للوطنية . وكان التركى معتزاً بإسلامه
قبل اعتزازه بأى شىء . سواء فاذا خرج للقتال فقد خرج جيش
الاسلام للجهاد ، فاعدم بذلك تفكيره فى قوميته وجنسيته ، ومن
ثم ضعف وعيه القومى . وكان السلاطين مستعدين متسلطين
يعسفون الناس عسفا شديدا ، فاشتد بهم حكم وطاعتهم غم . وكان
المظلومون لا يشعرون بهذا الظلم فلا يجدون مس الحاجة إلى الأخذ
على يد الظالم ، ولا يسمعون ذلك الصوت الحفى الذى ينبعث من
أعماق النفوس داعيا إلى صيحة المستنكر أو عزيمة الثائر على

تخظيم القيود وهدم السدود .

أما في منتصف القرن التاسع عشر فتبدلت الحال غير الحال وتمرس الترك بحضارة الغرب وتعرفوا إلى المبادئ الإنسانية وتسامعوا بأصول الحكم ، فانطلقت أفكارهم واستنارت عقولهم وكان العصر عصر نهضة واصلاح ، ولم يفشل الشعب عن حقه بعد أن عرف ماله وما ينبغي أن يكون له ، وخاض الترك حرب اليونان وظفروا بالدستور عام ١٩٠٨ بعد طول تمنع وتأب من السلطان عبد الحميد ، فظهرت بواعث الوطنية واضحة جلية . وما كان أجملها في مثل قول الشاعر محمد أمين من قصيدة له : « أنا تركي أنا تركي ، فالجنس جنس مجيد ، والدين خير الدين ، والنفس تلهبها نار الحمية ، والصدر خفاق بالوطنية ، والإنسان عبد الأوطان ، ولا استكانة لتركى وابن تركى فلا مضى لطبى . » وجرت على الألسنة والأقلام الفاظ كانت من قبل في طى العدم كحرية ووطن ودولة . ووجد من زعماء النهضة وقادة الرأي من يتخذ الأدب أداة تصل فكره بفكر الشعب ووسيلة لا يهتدى إلى سواها للوفاء بحق الوطن عليه ، فكتب الكتاب وخطب الخطباء . أما الشعراء ، فطوعوا الشعر للوطنية وفاض شعرهم بها حتى جعلوا منها أخص سمة يتميز بها الشعر في هذا العهد

ومن أمثلة الوطنية العسكرية قول نامق كمال بك : وهو ذا
العدو أمامنا شاكي السلاح ، فهبوا أيها الشجعان لنجدة
الأوطان ، وتقدموا ثم تقدموا فالتصر معقود اللواء لنا ،
وهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان . إن مجد الوطن ورفعته في
ملاعبكم للأسنة ، وبها وفاء البلاد والعباد ، رائي يكون لكم بالله
خذلان الوطن ا فهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان . الجريح
شارة الجدارة على صدور الرجال ، أما الموت فاعلى درجة يبلغها
الجندي ، وظهر الأرض كبطنها سواء بسواء ، فهبوا أيها الشجعان
لنجدة الأوطان . .

فهذا نشيد وطني يصور صلة الجندي بوطنه ليس إلا ، وهو
يثير عاطفة خاصة ويدعو إلى الاستبسال والاستشهاد . ولهذا
الشاعر قصيدة تسمى قصيدة الحرية وهي لون آخر من شعر
الوطنية لأنها تصدر عن رجل حنكته تجارب السياسة فكان حكيما
في تفكيره متزنا في تعبيره إذ يقول : ولما رأينا لهذا العصر أحكاما
منحرفة عن جادة الحق وشرعة العدل ، آثرنا أن نبقى على عزتنا
ففضينا عن باب الحكومة موفورين . من عرف معنى الإنسانية
بادر إلى أخيه الإنسان معينا مسعفا ، والمروءة كل المروءة أن

تأخذ بيد المظلوم وتنصفه من الظلوم .

وإذا ما حقرت الأمة وهان شأنها ، فما ذلك بضائر هاشيتا في شرفها ،
وهل الجوهر في التراب إلا جوهر ؟ نحن أهل العزم والهمم
وحسبنا أننا خلقنا هذه الدولة الكبرى من تلك العشيرة
الصغرى ، وإذا جد الجد كان تراب القبر أثر عندنا من تراب
الذل . ولا نبالي بنار الهول مادام ذلك في سبيل حريتنا . لله
ما جملك أيتها الحرية ، وإن لك لفتنة ساحرة ، سنظل اسرى
هواك وإن انطلقا من كل قيودنا ، فلا تحجبي عنا بهاءك ولتبقى
ملء أعيننا إلى أبد الأبد . ،

ولتوفيق فكرت بك قصيدة واسعة الشهرة في حكم السلطان
عبد الحميد يسميها « الضباب » ، وهي على جماها الشعرى تشهد
لصاحبها بملكة نقدية قوية وقدرة على اصطناع الرمز والايحاء ،
كما تمثله وطنيا حذرا هادئ النفس . استمع إليه وهو يقول :
« أحاط الدخان بأفاقك ولم ينكشف عنها ، فكانت ظلمة بيضاء
تتراكب وتتزايد على المدى حتى تحت كل شبح تحتها ، وجعلت من
الكائنات هياكل مغبرة ، وارتد البصر حسيرا عن أغوارها
فانخلعت القلوب رعبا . ولسكن هل هذا الستر الصفيق يجديك

نفعاً يا مجمع المظالم ؟ لا تحسبن أن أمرا من أمورك يخفى مهما
جهدت أن تخفيه . ، ولا ورخان سبى قصيدة عنوانها « أرض
الأناضول » ، وهى مثال جيد للوطنية الخالصة التى نعهد لها فى كل
وطنى ، قال الشاعر هنا يحن حنيننا إلى بلادده وهو فى أرض غربية
ويعبر عن عاطفته تعبيراً صريحاً بين البساطة محزون الثبرات ،
وصدق الشعور أظهر ما فى هذه القصيدة . ولو أراد غريب أن
يحدث عما يحول فى نفسه من نزعات وخلجات ، لما اهتدى إلى
أحسن منها . فمن قوله فيها : « أن ركننا فيك مهما كان مهملاً
منسياً ليعدل فى الحسن عندى أرم ذات العهاد . . والدار المتهدمة
بك أو الموقد المظمور ، نعم البديل من تلك القصور التى تطاول
الجوزاء . ووالله ما أستشعر عزة ولا زهواً إلا إذا تنسمت
عذب نسيمك ، ولا أسير مرفوع الهامة وصاح الجبين إلا فى
جبالك أو سهولك . آه لو جاد الزمان على يوماً بالأوبة إليك
فارتيمت فى أحضانك وجرت دموع الفرح من عيني جرباً بعد جرى ،
ونعمت بالتجوال فى ظلال رايتك ، وثمت منك الثرى والخصباء . .
وصدق من قال أن الترك جعلوا من نهضتهم الأدبية وسيلة
إلى نهضتهم الوطنية .

رأى في الخيام

قل من الشعراء في شرق أو غرب من نال من بعد الصيت
ونباهة الذكر مانال الخيام أو بعض مانال ، فإن اسمه مقترن
بالأدب الفارسي وعلم عليه عند جمهرة المتأدبين . والنظر في
شعره صنيع كل من أخذ بطرف من أدب الشرق وأحب اكتناه
سر من أسرار روحانيته .

وقد قيض الله للخيام من نقل شعره نظماً إلى الإنجليزية
منذ تسعين عاماً أو نحوها ، فكان إلى ذلك مرجع الفضل في
سيرورة هذا الشعر واتساع شهرة هذا الشاعر ، وأى عجب في
ذلك إذا عرفنا أن ترجمة فتزجرالد لرباعيات الخيام من روائع
الأدب الإنجليزي التي لاتضاهيها في المنزلة إلامؤلفات شكسبير ،
وأنه قلباً تخلقو دار في بلد يتكلم الإنجليزية من هذا الكتاب ،

وما من رفقة مثقفة تتحلق حول المدفئة لتخوض في حديث
الآداب ، إلا كان الخيام موضع البحث ومحور الحديث . وقد بلغ
من كرامة هذا الشاعر عليهم واعتزازهم بنفسه شعره ، أن يتأنقوا
في طبعة وتزيين صفحاته برسوم جميلة تحيطه بجو سحري حالم ،
لينعموا منه بهجة العين كما نعموا بمتعة الروح . قيل وطبعت منه
نسخ محلاة بالذهب مرصعة بنفيس الجواهر ، وآخر نهاية في
صغر الحجم لتكون حلية تتدلى من سلسلة الساعة ، ولم كان
جميلاً أن تكتب أبيات من شعر الخيام لنستهدي بها قنينة خمر
أو قارورة عطر . ولم يسع الموسيقيين إلا أن يلحنوا مختارات
من هذا الشعر وكان ذلك عشر مرات أو تزيد . أما الممثلون
فعرضوا على المشاهدين المعجبين فصولاً ومشاهد من حياة هذا
الشاعر الفارسي . وأحصيت اللغات التي ترجم إليها شعره
فجاوزت الخمسين ، وتصدى له النقاد وأعيان البيان فوجدوه
ما شاء الله أن يمجدوه . وكان حقاً أن يصبح الخيام بذلك كله
شاعر الدنيا وشاعر الخلود .

وإن كان هذا مما يشير أعجب العجب في نفوسنا فأولى به ثم
أولى به أن يحرك الفكر في عقولنا ، فنجد أن نعلم البواعث التي

توصل بها الخيام إلى مالم يتوصل إليه غيره من مكانة
لاتسامى .

وأول ما يلوح لنا ، هو التفاوت الظاهر بين الخيام في إيران
والخيام في غير إيران . فالرجل في وطنه عالم يرصد النجوم
ويرقبها في مسالكها ليستخرج أصح التقاويم ، ويدق النظر في
علم الجبر وعلم الحساب فيحذقهما الحذق كله ، ثم يبتدع فيهما ويسبق
إلى الجديد ، وهو طبيب معروف بالتنطس في الطب يدعو
السلطان وقد اشتد به الوجع فيقع على معرفة الداء ويصف
الدواء فيه الشفاء . ولا يخرج عن مألوف أهل زمانه من الجمع
بين الطب والفلسفة ، فيتعلق بها تعلقا شديدا ويقتل مشا كلها بحثا
وفهما ، ولم يفرق إلا الموت بينه وبينها ، فلما وافاه الحمام سنة
٥١٧ هجرية كان آخر ما أغمض عنه عينيه ، كتابا فلسفيا لابن سينا
بين يديه ، وكان شاعرا كذلك ، ولكن من غير ألفاظ التفخيم
والتعظيم التي تلاحق بأسماء الشعراء في هذه الأزمان ، ولم يفسح
له قومه مكانا بين الفحول ممن سبقوه أو عاصروه ، ولم يجمع
شعره في مجموعة إلا بعد مماته ببضعة قرون ، واعتبروه حكما
يقول الشعر في الحكمة ، ولعله كان ينصرف إلى النظم ليتخفف

من ثقل العلوم ويزود عن نفسه جفاوتها ، وليتمس الراحة
لذهن مكسود أعياه طول النظر في طالاسم الأعداد ، فكأنه
على ذلك كان يقول الشعر رياضة .

وقد اقتصر على نوع من النظم لم يتجاوزه إلى غيره وهو
الرباعيات ، وتعتبر الرباعيات من الشعر الخفيف الذي لا يكلف
الشاعر إلا قدرا من الجهد ولا يتطلب شاعرية أصيلة بالمعنى
المفهوم تشهد له بطول النفس وتتمام الأداة وحسن الصناعة ،
وإن كان هذا لا ينبغي أن يكون لفظا حل شعراء الفرس رباعيات
إلى جانب شعرهم في الأوزان الأخرى ، وأن الرباعيات أوفق
ما يكون لشعر الخيام يصور به صاحبه فكرة ويصوغ فيه
حكمة ، فكل رباعية وحدة قائمة برأسها وهي أشبه شيء بتضمنية
منطقية كقوله : « يا من يحرم الصهباء على نفسه ، كف بعض
الوم عن صرعى السكؤوس ، سأتوب لأمحالة من شربها إن تاب
على ربى . ولأكن لا يزھونك أنك لاتذوقها إن زادت سيئاتك
شرا عن شرھا وإثما عن إثمھا . »

وكما قصر الخيام شعره على وزن واحد فقد أدار معانيه في
دائرة لا تتسع لأكثر من أن العيش في هذه الدنيا شقاء لإشقاء بعده

والأمل سراب والناس ركب يساق بهم وهم نيام ، وكل ما في الحياة
إلى فناء ، فسيهاكنا الدهر كما أهلك من قبل أوائلنا ، ولا قدرة
لعقل بشر على فهم سر الوجود والعدم ، فالمرء أمام هذا السكون
مرتاب متردد ، وفي بعض أئمة الدين جهل ورياء وعجز عن هداية
الخيران ، فلنعب الشراب عبا ملتجئين نشوة تطير بنا عن دذذ
الدنيا العبوس ، ولعلنا بذلك نجد بعض العزاء عن ألم الحيرة الذي
يملأ علينا الأرض والسما . فالخيام لا ينفك يردد هذا في رباعياته
وإن كان كثير منها ممدسوسا عليه ، أو هو لغيره ونسب إليه .
والواقع من الأمر أن قارئها في الفارسية لا يكاد يجد فيها جمالا
شعريا باهرا يهز النفوس وإن وجد كلاما رقيقا عذبا يسابق
لفظه معناه ، وهي في جملتها قليلة الحظ من الشاعرية إذا قيست
بغيرها من شعر الفرس واعتبرنا شهرتها وشهرة صاحبها التي
طار في كل الآفاق . تأمل قوله : د حلت مشكلات هذه
الدنيا إن في الأرض أو في السماء ، فما انطلى على زور ولا نفعت
في حيلة ، غير أن عقدة واحدة أعياني حلها ، إلا وهي عقدة
الاجل . ، فهذا كلام شديد الوضوح غني عن البيان لا يمكن أن
ينسب إليه من الشعر إلا الوزن والقافية فذكره والسكوت عنه

بمئزلة عند من يطلب جديداً في العلم ونورا في الظلمات .
وإن كانت هذه صفات الخيام في إيران وسمات شعره في
الفارسية فما ذبوع هذه الرباعيات في ترجمتها إلى الانجليزية على
الخصوص وإلى اللغات الأخرى على العموم ؟
والمعروف أن الخيام قبل ترجمته الانجليزية لم يكن عند
المتأدين من المستشرقين إلا شاعرا نحىلا وإن كان عند غيرهم
من الأوروبيين عالما كبيراً ، ففتزجرالد هو الذى قدمه للغرب
أو هو الذى خلقه خلقا بترجمة بعدت من البلاغة شأوا ، فبلغ
الشعر من قرائه مبلغا عظيما . ولا يفوتنا أن نقول إن جمال
طبع الرباعيات وكون شاعرها إيرانيا من بلاد الورد والبابل ،
مما لفت النظر إليه وزاد من العناية به عند قوم يتعلقون بكل
ما هو شرقى على أنه تحفة مستطرفة مستملحة . والخيام يوجه
الخطاب إلى الإنسانية جمعاء ، ويتحدث بعبارة لا تتواءم فيها على
لسان الناس طرا فكلامه يخطر على كل القلوب ويجول في كل
الأذهان ، وقد صادفت دعوته الصريحة الجريئة إلى التهالك على
اللذات هوى فى النفوس ، فالمرء أميل إلى التبسط منه إلى التزمّت .
وكلام الخيام جميل فى خيال الشعر ، وإن كان بعضه مقبولا

معقولا في موضع فإن معظمه غير معقول ولا مقبول في مواضع ، اللهم إلا إذا فهمناه على أنه رمز وإيماء وإن ابلغ الشعر أكذبه كما قيل .

هذا ، ولا ريب أن الخيام حظي سعيد الطالع لما حظى به من حسن الأحداث ، فقد رقم اسمه على جبين الدهر ونال بحظه فوق ما كان ينبغي أن ينال بكفايته ، ولعله قد وجد من طيب الذكر بعد مماته تلك السعادة التي كان ينشدها ويدعو إليها في حياته .



في تاريخ الأدب التركي ظاهرة تستوقف النظر وتستلفت
الفكر ، وتجعل في هذا الأدب سمة يختص بها وحده دون سواه
من الآداب قديمها وحديثها ، فقد كان من حسنات الزمان أن
طاب لربة الشعر سكنى قصور السلاطين من آل عثمان ، فرقت
للشعر قلوبهم ، وتأصلت ملكته في نفوسهم وانطلقت الستهم
بروائعه وشاركوا فيه أحسن مشاركة ، فكان من السلاطين
والامراء شعراء كرموا بالشعر وكرم الشعر بهم ، وعزت دولة
الأدب في عصورهم ، وارتفع الأدباء إلى أعلى مرتبة واسمى منزلة
وكأنما كان هؤلاء السلاطين يتوارثون الشعر كما يتوارثون
الملك ، فإذا أحصينا من كان منهم شاعرا وجدنا عشرين أو ما يقرب

ولبعضهم دواوين تنطوي على الرقيق الأنيق ، وللبعض الآخر أبيات تتفاوت في حظها من الجودة ، وإن شهد معظمها على دقة النظر وصفاء الروح .

وبما يذكر ، أن تعلق السلاطين هذا بالشعر والقول البليغ إنما يعزى إلى لون ثقافتهم ونوع البيئة العلمية التي أحاطت بهم ، فقد كان الفتي منهم يجلس إلى مؤدبيه ليتلقن الفارسية لغة الأدب الرفيع في هذا الزمان التي لم يكن للتأدب معدى عن تعلمها والضرب بسهم في آدابها ، وما آدابها في جللتها إلا الشعر العالي في أوسع آفاقه وأعذب أنغامه ، فلا جرم أن يشب الناشئ على عبقرية الخيال ورقة العاطفة وحساسية الذوق ، وهي مقومات الشعر وملمة الشاعر إن واءمها حسن استعداد وطبع مداد . وقد دأب الترك على هذا في تأديب النشء فترتب عليه أن كان الشعر التركي القديم صدى للشعر الفارسي يردد معانيه ويرسم صورته ويستعير لفتاته ولمحاته ، ومن ثم كان شعر الفرس والترك صنوين متلازمين وشطرين متكاملين ، كما اشتد ولوع الترك بالشعر فعالجوا صناعته ، حتى أحصى أحد مؤرخي الأدب التركي أكثر من ألفي شاعر مع إيراد النماذج من شعرهم .

والمُخاص من هذا إلى أن ثقافة العصر السامية هي التي أعانت
السلاطين على قول الشعر فقال له معظمهم طبعاً ، وإن كان ذلك
لم يقعد بهم عن الإجادة فلم يتخلفوا كثيراً عما قال الشعر طبعاً
واستمداداً من ملكة أصيلة .

وأول السلطين الشعراء هو مراد الثاني المتوفى سنة ١٤٥١
وتعليل اختصاصه بالأولوية أن السلطين من قبل لم يعالجوا
النظم جدياً وإنما قلّدوا ما كانوا يقرأون على مؤديهم من شعر
الفرس أيام الشيبية ، ومراد أول الجادين ، ويعتبر عصره فاتحة
عهد جديد ، فقد ندر من السلطين الذين خلفوه من لم يتوفر
على نظم الشعر . وبلغ من حب هذا السلطان للأدب وإكرامه
لأهل الأدب أن يدعوهم إلى مجلسه حيث يأخذون في كل فن
ولا يدعون طريفاً إلا ذكره ، ولا جيلاً إلا ألقوه على مسمع
السلطان ، فيفيض عليهم من سوابغ نعمه ويغمرهم بالطفافه ،
وكثيراً ما كان ينحني فقراءهم بالأعمال لسد حاجتهم وكفهم عن
السؤال . ومن شعره رباعية لطيفة تخطر بالبال شعر الخيام
وهي : « صب كأسى من شراب الأملس ياساقى ، وسل القلب
عن سر فيه يخفيه والى بالرباب والعود . ومادمت حياً فحقلى

هذا الأذس وهذا الطرب ، فسوف يحل يوم يضيع فيه كل أثر
لى فى التراب .

وكان محمد الثانى أو محمد الفاتح شاعراً ، وإذا ذكرناه فلا
مندوحة لنا عن ذكر قولته المشهورة الباقية على وجه التاريخ ،
فبينما كان يفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ وقف بقصر تهدم وتخرّب
فتمثل بقول الشاعر الفارسى : « اليوم تنعق البوم على قباب الأكرس ،
والعنكبوت تضرب نسيجها على قصور القياصر . » وكان الظن
بالشاعر فى مثل هذا الموقف أن تجود قريحته فیرتجل لا أن
يتمثل بقول غيره . وديوانه لطيف الحجم يدل على أنه مقل
مجيد ، فمن قوله : « أنا عبد لسلطان من عبده سلاطين الدنيا ،
ونور شمس يهر شمس الضحا ، وإذا قتلى بالسهم أو أهداب
العيون فسواء على القتل فتكة الحسام أو قتلة السهام . لك شعر
هو ليلة القدر ، وحاجبك هلال العيد ، وما وصالك إلا فرحة
العباد بحول الأعياد ، أما فراقك آه من فراقك فهو شهر الصيام ! »
وقال متبسّطاً ومعبراً عما تصوره له نفسه فى مجلس شرا به :
« أدر علينا الخمر ياساقى فهذا البستان إلى ذبول وذوى ، وإذا
وافى الخريف فلا ربيع ولا رياض ، أنا إن شاهدت هذا الجميل

ضاع زمامي من يدي وغلبت على زهدي وتقواي . ألا لا يغرنك
هذا الحسن . ومتى دام للجميل جمال ؟ فالوفاء الوفاء لنا . ، وكان
الفتاح يستقدم العلماء ويغدق عليهم من عطاياه . وقيل أنه كان
يجري الأرزاق على ثلاثين شاعرا كما كان يصطفى وزراءه من
أهل الأدب ، وهو أول سلطان ذكر اسمه المستعار في شعره .
ومن الأمراء الشعراء الأمير جم ، وهو أشعرهم
ولا جدال ، وقد حيا حياة تعسة رنق صفوها النزاع والتخاصم
بينه وبين أخيه بايزيد فاختلفا أيهما يكون له الملك ، وهاجت
الحرب بينهما عبوسا شعواء وكان النصر دوما لأخيه ، وعاش
جم طريدا شريدا يضرب في أرض الله الواسعة فاعتورته المحن
وتواردت عليه أيام يشيب منها الوليد ، وكان شاعرا بحق
ففاضت شاعريته بشعر حزين ، ولم يتقيد بتقاليد الشعر في
عصره كغيره من الأمراء والسلاطين الذين جمدوا على القديم
فكانت أغراضهم محدودة وألفاظهم براقة وللدوق نبوة عن
كثير من مبالغاتهم . ومن قوله متحدثا عن محنته : « هو ذا
السيل يجري ضاربا صدره بالحجر حزنا على ، ألا فتأمل كيف
برئ السكون بأسره لحالي ، فقد شق الشفق جيبه جزعا وفاضت

السماء دما في الفجر ، وبكى السحاب مدرارا وله على الجبال
دموع تنحدر ونشج الرعد نشيجا يثير الأسي . ، فهو هنا ينظر
إلى الطبيعة بعين دامعة وقلب حزين فيبكي ويستبكي وتهيم روحه
في السكون فيفنى فيه فناء . وللأمير جم قصة غرام مع فتاة عرفها
في فرنسا وبادلها حباً شديداً بحب أشد وفيها يقول : « ابشرى
أيتها الروح بمقدم حبيب القلب ، ولينك أيها الجسد أن ترد
عليك حشاشتك ، تم سعدى في ليلتي هذه ، فقد وافي الحبيب
فكأن بدر التملح في علياء سمائه ، فيها ياجم ، جد بالسويداء ،
إكراما لضيف حل أهلا ونزل سهلا . »

وكان السلطان سليم الأول في طليعة المجيدين من الشعراء وله
مكانة مرموقة لأنه نظم بالفارسية ، فنفع الأدب الفارسي بديوان
كبير ولم ينسب إليه إلا بيت في التركية وأبيات في العربية ، وقد
ظله أدباء الترك ياغفال ذكر شعره لأنه بالفارسية كما سكت
عنه أدباء الفرس لأنه تركي . والواقع من الأمر أن شعره
متصف بالجزالة متميز بصدق الشعور والتعبير ، وهو فيه معتد
بنفسه مزهو بغزواته وفتوحه فنسمعه يقول : « أنا من سائر
الجهافل من استانبول إلى إيران فاغرقت الفرس أعدائي في

بحار من الدماء ، وجعلت والى مصر عبد رق لى ، فرفعت لوائى
إلى الجوزاء . وسرت هذه أنبشرى من العراق الى الحجاز لما
ترنمت الأوتار فى مهرجان نصرى . وصهرت ذهبى فى بوتقة
الشمس فضربت باسمى عملة العالم بأسره ا ، وقد يخفف سليم
من غلوائه ويكسر من كبريائه فتاين شدته وحدته ويرق
وتعذب منه رفته فيقول : لا رغبة منى فى الجنان ولا مأرب لى
فى كوثرها ؛ وكل أملى أن أتوصل الى موطنى قدميك ، وأقسم
ان نفسى لتطيب بالنجرد من هذا الملك العريض إن جدت
يوما برضاك ، والعفاء العفاء على هذه الدنيا وكل ما حوته من
طيبات ونعيم . ، ولم تعرف الفارسية فى عصره من شعرائها من
يتعلق بغباره . أما شعره العربى فعليه مسحة ملكية وكأنه تريد
لآيات مشهورة قالها الرشيد فى جواريه . يقول سليم :

ظي يصول ولا اتصال اليه

جرح الفؤاد بصارمى لحظه

يسقى المدامة من سلافة ريقه

ويخصنا بالغنج من جفنيه

الناس طوع يدى وأمرى نافذ

فيهم وقلب الآن بين يديه

عجبي لسلطان يعز بعده
ويجور سلطان الغرام عليه
لولا أخاف الله ثم جسيمه
لعبدته وسجدت بين يديه

واستوى بعده على العرش ولده سليمان القانوني عام ١٥٢٠
وعصره هو العصر الذهبي للأدب التركي ، فقد نبغ فيه مائتا
شاعر ، ومادام الناس على دين ملوكهم كما يقولون فلا عجب أن
يكون هذا السلطان من الشعراء ، وله ديوان جيد يؤخذ
منه أنه شديد التأثر متقلب المزاج ؛ والظاهر أن اليأس والأمل
كانا يتناهيان حياته والفرح والترح يتداولان عليه كما يتراءى
لبعض النقاد فينبينا نراه يقول : « لما صورك مصور القدرة
فأبدع تصويرك ، حار فيك كل وهم ، وهام فيك كل خيال ، وإذا
خطرت في البستان فلا قد للسرو بجانب قدك ، وأن حمر الورود
اتنشق حسداً إذا تحركت شففتك بكلمة ، لقد خلبت لي فبالله اني
اصيب جميل صفاتك ، ، إذ به يخرج من هذا الشعر المشرق
إلى شعر كثيب قائم فيقول : « ليس على وجه البسيطة إلا من
يطلب الهناءة ، ولا هناءة إلا في برهة من عافية ، مهما كثرت

اعوامك وامتد بك عمرك ، فلن يبلغ ساعة من عمر هذا الفلك
الدوار . .

وبعد ؛ فقد أوجب فيلسوف قديم أن يكون الحاكم
فيلسوفاً ، فما اعجب ألا يوجب الترك أن يكون السلطان
شاعراً !!



في مقبرة حزينة بطهران يغمرها الموت بسكون حالم ، لولا
حنين طير غريب بين الفينة والفينة ، وتحت سروة لها انحناءة
الأم على مهد واحد ، يشاهد الزائر الخاشع قبرا منزويا يدل
ظاهره على ألم دفن وسر خفي ، ويصف الأحياء خبرا عن
الأموات ، وما ذاك إلا لبنتين من الشعر طمس البلى على الحجارة
نقشها أو كاد ، وهما : إن الحديث المستفيض عن ياقوت ثغرك
يتناهى إلى مسمعى حيثما توجهت ، فأى حرقه لمدمعى ويلاه
تهرب ! وما تكون هذه الوردة الحمراء التى تحرق قلبى نارها كلما
نفح عطرها ، ، وعلى حاشية هذا الشعر سطر من الخط الجميل
يقول لقارئه أن (كلجهره) محبوبة (صبوحي) ترقد فى ثرى
هذا القبر .

ولهذين العاشقين قصه جرت على الألسنة وطاب للعشاق فى

إيران أن يتناقلوها ، كما حسن موقعها من نفوس المتأدين ،
فكانوا يزورون هذا القبر في كل يوم جمعة ، وهناك يدعون له
بالسقى مترحمين على صاحبه ، ويأخذون بأطراف الحديث
بينهم ، وما حديثهم إلا عن لوعة القلوب وخفقاتها بالهوى ،
وليس فيهم إلا من يقول الشعر عذبا رقيقا . أما إذا جرى ذكر
للقبر الذى أمامهم وللإنسانة التى تنطوى عليها ظلماته ، فإن قائمهم
يقول :

كانت كلجهره فتاة لأسرة رقيقة الحال تعيش على السكفاف
من كسب عائلتها الفخارى الذى لم تطل أيامه ، فمات عن ابنته
قبل أن تتم السابعة من سنها ، وخلفها كلا على أم حزينة لا طاقة
لها بدفع عادية الزمان إلا بيدين ضعيفتين لا تحسنان إلا غسل
الثياب ليتقاطر من ذلك رزق ضئيل يمسك الرمق . وعاشت الفتاة
في ذل اليم وحرمات الفاقة حتى جمعتها ملاعب الطفولة يوما بفتى
يقال له صبوحي . وكان كمثلها ضعف شأن ، فأنجذب الشبيه إلى
الشبيه ، وأكدت الألفة بينهما غرارة الصبا . ثم مرت أيام تفتح
الأكمام عن الزهر وتنضج الثمر فى الشجر ، فأزهر حسن الفتاة
واكتملت شبيهة الفتى ، وآن أو ان حب يعطف قلبا على قلب

ويجمع شملا بشمل ، فعرفا حنين الشوق ونجوى الهيام ، وكان
الفتى أميا لا يحسن أن يقرأ ، إلا أن شاعرية أصيلة في نفسه
وروحانية يستوحيا من حبه ، ورغبة في إعجاب صاحبه ،
أطلقت من لسانه ، ورققت من عاطفته ، فقال الشعر شيئا عجيبا .
وقد وهب صوتا نديا فترنم بالشعر ترنما جميلا ، وحلا له أن
يقف بدار الحببية في كل أمسية ليردد عذب النغم ويقول أرق
المعنى ، فتطل عليه فتاته وتبسم له عن ثناياها الغرو تبعث الاشراق
في فؤاده ، ويرد الراحة في قلب خافق مشبوب .

وظل هذا دأبه أياما بعد أيام ، غير أن الحال تبدلت ، وكان
الذى خاف أن يكون ، وأذاقه الزمان كأسا أذاقها لكلجهره من
قبل ، تلك الكأس التي مزج لها فيها مرارة الموت بمرارة الحاجة
فقد مات عنه أبوه ليتركه مستوحشا مع أم عجوز يحزن لمراها
وينوء تحت أعبائها . وثاب المسكين إلى نفسه فلم يجد له معدي
عن الضرب في أرض الله الواسعة انتجاعا للرزق ، فسعى إلى
الفتاة ليستودعها وفاءه وبقاءه على عهدا . وكانت وقفة للوداع
يا لها من وقفة ، آلمت قلبين وشردت روحين ، وأبطلت فيها
الضرورات كل الشفاعات .

وقدم صبحي طهران وأمله الحصول على عمل ، فسار
طويلا وسأل كثيرا . وبعد أن كاد يستيئس ، وجد العمل فأصبح
خبازاً . ومر الزمن وطالت الفرقة على الحبيبين فضعف قلب
كلجهره عن أن يحتمل الوجد وتباريحه ، فصاح عزمها على اللحاق
بصبحي ، فارتحلت إلى طهران وهناك تنسمت أخباره وبجثت
عنه في مظان وجوده حتى إهتدت إليه بعد لآي ، ورأته أمام
تنوره يستدر القوت بكد اليمن وعرق الجبين . وكان لهذا اللقاء
فرحة بددت أحزان فراق طويل ، بيد أن هذه الفرحة كانت
قصيرة الأمد ، فقد استوخمت الفتاة العاصمة وتأذن صحتها
بجوها ، فما لبثت أن أعتلت وخامرها السل ، فعصف بجسمها
الضواوي عصف الريح بالغصن الذاوي ، ونالها من الشحوب
ما ينال الشمس قبل الغروب ، ومضت كلجهره الجميلة المسكينة
التي طالما ملأت الحياة أنسا والعيون حسنا والقلوب غراما .

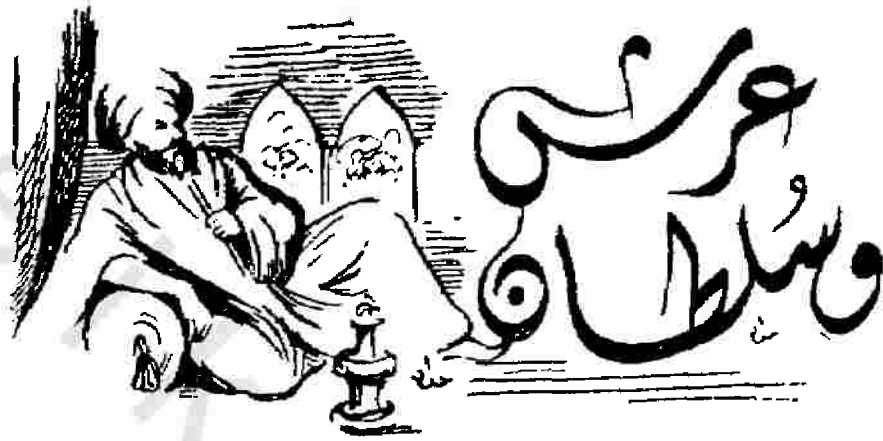
كانت الفجعة من الشدة بحيث زلزلت نفس صبحي في
أعماقها ، فجزع جزعا شديدا وحزن حزنا وجيعا لا ينفع فيه
صبر ولا عزاء ، وارتفع صوت ضميره باللوم الجارح على هجره
لها وإيثاره عليها دنيا يصيبها ومالا يكسبه ، وشرد له بعداقتناعه

بأنه سبب البلاء وأنها شهيدة الوفاء ، فبات مؤثقا ولم يسعه إلا أن يقضى سواد الليل في المقبرة واقفا على قبرها يروى ثراه بالدمع اهتون مقلبا كفيه ومناجيا نفسه تارة ، ومن في القبر تارة أخرى . ودامت حاله على ذلك الليالى ذوات العدد حتى ظن به إختلاط العقل . وعلم صديق له بأمره فادرسته الرقة عليه ، وجهد أن يخفف من بلواه ويكشف من كربه ، وكان عليهما بولوعه بالشعر وشدة طربه لروائعه ، فجعل يقرأ عليه شعر حافظ الشيرازى ، شاعر الغناء والغزل في إيران ، وأشعر شعراء الفرس غير منازع ، فكان صبروحى يلقي سمعه مأخوذا بروعة الشعر ، ومناغما كل بيت بالتأوه والنحيب ، واستتم سماع الديوان برمته فى نحو من أربعين ليلة رأى بعدها فيما يرى النائم كأن حافظا يقدم إليه كأسا دهاقا ، فيأبى أن يتناولها منه ، غير أن الالحاح فى قبولها يجعله يشربها ، فيقول له حافظ : لا يحزنك يا صبروحى أن تموت عنك من تهوى ، فقد جعلت لك نعم العوض من فقدت ، وإيهنك اليوم إني جعلتك شاعرا غزلا رقيقا ، فامض لطبتك . . .

وقد أصبح صبروحى منذئذ شاعرا بحق ، يتصرف فى فنون

الشعر ويتميز بالإجادة في شعر الحب والرثاء والخمرات
والزهريات ، ومن شعره قوله : « في القلب من حبك نار اشقى
بها ، ووالله ما كان ظنى بالزمان أن يسعدنى بالشقوة ، لقد تنفس
الفجر ياساقى وحان وقت الصبوح ، فهات الكأس ، واشربها
شمولا . »

ولم يمتد العمر كثيرا بصبوحي بعد كلجهره وإنى البؤس إلا
أن يلزم حياته إلى آخر لحظة له فيها ، حتى أنه لما مات لم
يحدوا الوسيلة إلى تجهيزه ودفنه إلا ببيع ثيابه والاتفاق على ذلك
من ثمنها . ومن أسف أن تنقطع وسيلتنا إلى رؤية ديوانه الذى
قيل لنا أنه طبع فى إيران منذ يسير ، فنحن لا نعرف له إلا
اليتين السابق إيرادهما بالإضافة إلى ما كتب على قبر محبوبته ،
وكم كان بودنا أن نقرأ هذا الشعر الذى يعتبر مثالا لصاحب
الملاكمة والسليقة والطبع الصادق ، الذى لا يقول إلا استجابة
لهاتف الوجدان وباعث الشعور ، وإن لم يسلم خبره من مواضع
محمولة على المبالغة والأغراق فيما يلوح . أما إذا صح فى العقول
أن يصنع الحب بالعشاق ما صنع بصبوحي وكلجهره ، فليس
عجبا أن يوصف سلطان الحب بالجور والظفیان !



كانت السلطانة الوالدة مع ولدها السلطان عبد العزيز في حديث مقعد مقيم ، يتجاذبه قليل من الرضا تارة ، وكثير من السخط تارات ، حتى انبعثت من عينيها السوداوين نظرة شديدة ، وارتفع لها صوت لا يرتفع إلا لأمر أو نهى ، ثم قالت : « أى معنى لهذا التردد وأى جدوى لهذا الاحجام ! اجعل ولاية العهد من بعدك لابنك يوسف ، وانتزع له العرش من ابن عمه مراد ، فان ذلك عليك حتم لازم . لا أرحام بين الملوك والحكم لمن غلب لا بد من موت مراد بضربة سيف أو جرعة سم ، ليستقر بيوسف عرش أبيه . كأنى بك تخشى مرادا هذا وتخصه بشيء من رحمتك ، ذلك الخائن الخائن العزم الذى لا يصلح للملك بحال ،

ولا يحسن إلا التطريب والضرب بالمعازف ، عجل ولا تتريث ،
اجهد أن تحصل من شيخ الاسلام على فتوى بخلع مراد من
ولاية عهدك ، واعلم يقينا أن روسيا على أتم الالهية لمدنا
بعشرين الفا من رجالها الشداد إن شغب الشعب علينا .
والله إن نفسى لتزين لى أن أقتل يوسف اليوم ييدى لأريحه بما
ينتظره من موت زؤام أو حياة شقوة وعذاب إذا استوى
على العرش مراد .

وجعلت العجوز تضرب على هذا الوتر لتنفث السم فى قلب
عبد العزيز ، وتوغر صدره على ابن أخيه ووريثه الشرعى ، وهى
بذلك إنما كانت تزيد فى الطنبور تغمة ، لأن عبد العزيز كان على
نية خلع مراد منذ بعيد ، فقد حاول ذلك تكررارا فى أعياد
جلوسه ، غير أنه منى بالخيبة على الدوام لاعتراض شيخ الاسلام
واستنكار الانجليز ، ولم يكن يخفى عليه تعلق الشعب بمراد وحبه
له ، وأن هذا الحب كان بقدر كراهيته ليوسف وزهده فيه .

وكان مراد أهلا لهذه المحبة فهو الرقيق الحليم ، والعاقل
المستنير ، والمتأدب المتوفر على قراءة الشعر والأدب ، والذي
لا يسمع عليه قط من سوء ، وهو إلى كل ذلك متفنن مشغوف

بالموسيقى إلى أبعد الآمال ، وقد أكتسبته هذه الصفات اعجاب
الملوك . فقد اتفق أن صحبه السلطان عبد العزيز مع ابن عمه
يوسف في رحلة إلى ممالك أوربا ، فأنس به كثيرا نابليون الثالث
وقدر ملكاته ملك بروسيا ، أما الملكة فيكتوريا فما وسعها إلا الثناء
المستفيض على حصافته وإبقاته ، ومن عجب ألابنال يوسف من
كل هذا الاعجاب والاطراء شيئا ، فيحز ذلك فى نفسه ونفس
أبيه ، ويعود المرتحلون إلى الوطن فيحاط مراد بالعيون وتحصى
عليه الحركات والسكنات ولا يزايل القصر إلا فى مركبة
مرخاة السدول .

وطالت الحيرة بعبد العزيز ، ولم يهتد إلى حيلة تخرجه من
هذا المأزق المتضايق ، فهو مدفوع بوحى من أمه ذات الحول
والسلطان ، ومسوق بهاتف من نفسه التى تحمل بذيل رغائبها فتستشعر
اليأس فى كل يوم ، وتذهب أحلامها أباديد ، ويمر بخاطره أن
يستجيب لنزغات الشيطان فينتفض أباء واستشكافا ، ويتعاقلمه
الذنب إن أزهاق الروح الزكية ، ولا يملك إلا أن يسأل المنجم
فلا يقدر المنجم على شيء !

ودارت الأيام وضاق الناس بحكم عبد العزيز الذى أراد

بيع بلاده للروس عن رضا وطواعية ، وقيد تركيا بديون يصعب
الانطلاق من أسرها ، وكان كثير الأهواء شديد التعصب والجمود
على القديم ، فاحفظ ذلك الشعب واستخط الوزراء ، وفي طليعتهم
عوني باشا ، ومدحت باشا ، فصيح عزمهم على التخلص من
عبد العزيز بخلمه وتولية مراد لحاجة في نفس يعقوب .. فما كان
أيسر وأسرع من استصدار الفتوى بذلك ففرض الأمر ، وهب
عبد العزيز من نومه منزعا ذات صباح ، فقد أيقظه دق عنيف
على بابه ، ودخل عليه من سلمه قرار العزل ، وأمر السلطان
مراد بأن يغادر القصر مع أهل بيته . فاسقط في يده وكاد ينشق
غیظا وحرنا ، وذكر ابن أخيه وكيف جازاه نكرا بعرف ،
فتعجب كثيرا وندم أشد الندم على الرأفة به والابقاء عليه ، أما
السلطانة الوالدة فانطلق لسانها من اللعنات بماله وقع السياط ،
ولكن أن للسهم المنطلق أن يرتد إلى القوس ، وللمستخبط أن
يحبس الأفلاك عن دورتها ؟ قصفت المدافع ودوت الأبواق
وطاف المنادون على ظهور الجياد يزفون البشرى بذهاب عبد
العزيز وإياب مراد .

وتم كل ذلك في خفية من مراد الذي لم يكن يدري من

الامر أكثر من سخط الشعب على عمه ورغبة الوزراء في عزله
والخلاص منه بحال من الأحوال ، وقد سبق لعوني باشا أن أشار
تأييحا إلى ضرورة قتله ، فذعر مراد واستغفر الله من ذلك ،
وآثر أن يموت على أن يرتضى قتل عبد العزيز . وما كان أشد
فزع مراد ودهشته حين دخل عليه عوني وسلم بالسلطنة ، فسأل
عن عبد العزيز مستفسرا عن مصيره ومشفقا عليه من أى سوء
يناله ، حتى وقف على جليلة الأمر فعادته الطمأنينة وهدأت نفسه
هونا ما ، تلك النفس التى عز عليها الهدوء منذ دهر طويل ، فقد
كانت نهبا للهموم والغموم كلها طاف بها فقد عبد العزيز وزمرته
الغاشمة التى كانت تتمنى العثار لمراد وتربص به الدوائر ، فشرد
ليه وسهر ليله واستعان بالصهباء على النسيان والسلوان ، والتمس
فى إشراق كأسها ما يبدد عنه ظلمات بعضها فوق بعض ، فداوم
على الشراب حتى ساءت صحته ودقت حساسيته ، فاشتد عليه وقع
الحزن وتأثر لما لا يمكن أن يتأثر له غيره .

ومما ينهض دليلا على تأصل الخير فى قلبه وتجافيه عن الشبهة
والتشنى ، أن يبكى مدرارا لمشاهدة عمه المخلوع مع والدته وولده
فى القارب الذى مضى بهم إلى حيث مقرهم الجديد ، كما أوصى

بهم واستعطف عليهم حتى انه أجاب عبد العزيز إلى رغبته في سكنى

قصر (جرانان) على كره شديد من وزرائه .

وحل يوم عبوس حزين أنبيء فيه مراد بصرع عبد العزيز ،
وتضاربت في ذلك الروايات ، فمن قائل أنه انتحر ، وقائل إن
الوزراء تأمروا على قتله ، وإن عوفى باشا رأس هذه المؤامرة
لأنه كان يريد أن يكون الحاكم الفعلى إذا جعل مرادا الحاكم
الصورى ، ولم يعدم عبد العزيز من يثار له فيقتل عوفى ثم قتلة ،
ولا ينجو غيره من الوزراء إلا بالعجوبة الأعاجيب ، فانتزع
قلب السلطان لهذا النبأ وازدادت نفسيته ثوراناً وتوتراً ، وأخذ
مر الاسى فاعتل وساءت حاله ، قيل وعز نومه وامتنع قراره ،
فما كان يصيب من الطعام الا يسيراً ولا يميز خيالا من حقيقة ،
وهو يذرع حجراته جيئة وذهوبا مختلج الأعضاء هاذبا بما لا
يفهم ، حتى ظن به ذهاب العقل ، وقرر الطبيب أنه مصاب بهزة
عصبية عنيفة يحتمل زوالها ان فى الحال أو فى المسال ، غير أن
مدحت باشا الذى كان يريد خلع مراد لحرية مبادته ورغبته فى
الحد من إمتيازات رجال الدولة ، أوعز إلى الطبيب أن يعلن
جنونه وأرغمه على ذلك بالوعد والوعيد ، حتى يقضى شيخ الاسلام

بعزله . ونال مدحت باشا أربه من الطبيب كما أفلح بعد لآى فى إقناع شيخ الإسلام . وخلع مراد كما خلع عبد العزيز من قبل بعد أن حكم ثلاثة وتسعين يوما . وعرض الملك على أخيه عبد الحميد فامتنع فى بادىء الأمر ، واشترط إلا يمس أخوه بسوء ، ثم قبل بتحرز وتحفظ ، فلم يكن الشعب راضيا عنه كما اعتبره أعضاء حزب تركيا الفتاة مغتصباً ، لجلوسه على العرش فى حياة أخيه .

وأقام مراد فى قصر جراغان لقضاء ما تبقى له من عمر قصير كما زعم المغرضون وافترى المفترون ، وفى الحق أنه تماثل من مرضه ومسح الله مابه ، فثاب اليه عقله الراجح ورأيه الصائب إلا أنه أصبح حبيساً فى القصر فلا دخول عليه ولا خلطة به ، وقد حظر ذلك حتى على أهله وولده ، فلم يسكن له من أنيس يؤنس وحشته إلا البيانو الذى كان يحسن العزف عليه الاحسان كله ، فتهيم روحه مع الانغام ويعيش فى الأحلام متناسياً بذلك مرارة الأسر وقسوة الحرمان .

فهل كان مراد حقاً على ما وصف أعداؤه ؟ ذلك السلطان الذى رسم الخطة لإلغاء الرق ونظام الحصيان ، وعزم على تحرير

المرأة التركية ، وفكر في حشد أولاد المسلمين والنصارى واليهود
في مدرسة واحدة ، واجلاسهم لتلقى العلم جنبا إلى جنب ، ليشبوا
على روح التسامح ، ويجبلوا على الاتحاد والتراحم ؟ كلا إنها
الأمهات والمطامع ، وصروف الليالي ونكد الطالع .
ومات مراد بعد أن قضى في الأسر ثمانية وعشرين عاما ، وكان
ذلك سنة ١٩٠٤ فانسدل بموته الستار على مأساة في تاريخ الترك .



حزين شديد الحزن ، لا عن ميل طبيعي يستوحش صاحبه
من الدنيا وزهرتها ، فالأسى يغمر جنبات نفسه ، والكآبة تلح عليه
أبدا ، كما قد يسبق إلى الفهم من معنى حزن الشاعر ، وإنما لخطب
ألم ، ورزء حل ، فاستحال عرس الحياة مناحة ، ونورها ظلاما
وجرت عبرات بعد أن أشرقت بسمات .

أما هذا الشاعر فعبد الحق حامد بك رائد الشعر التركي في
عصره الحديث ، وأما قصته الدامية الباكية فتبدأ في الهند حيث
كان عمله بالسفارة التركية ، وتنعمه بهنأة الحياة وصفائها إلى
جانب زوجته الشابة فاطمة هانم التي كان يحبها حبا لا ينطوى عليه
إلا قلب شاعر مثله ، ولا تحلم به إلا حسناء في مثل حسننها . وقد
اجتمع شملهما وتمت النعمة عليهما بطفل وطفلة ، فتعاطف القلبان
ورق الروحان ببر الأبوة وحنان الأمومة . ومرت الأيام

كأسعد ماتم الأيام ، حتى حل يوم دارت بالنحس أفلاكه ،
وأخلفت فيه الآمال ما كان من وعدّها . فاعملت فاطمة وهاجت
أوجاعها ، وكانت علة تعجز الطيب وتيئس العليل وتفجع
العواد ، فجزع عبد الحق حامد أشد الجزع إذ يرى شمسّه تجنح
إلى الغروب ليطمس بيته من بعدها ليل طويل ، وحرار ولم يجد
له مخرجا ، وعدم كل حيلة يردبها الحبيب الغادى ، واصطرع
البأس والأمل في قلبه الذابل المحزون ، فزينت له نفسه أن
يرحل بالعليلة إلى استانبول ، وكأنه كان يلتمس دواء في نسيات
البحر ، وشفاء في فرحة الإياب إلى الوطن ، وظلت هذه النية
تملك عليه تفكيره المسكدود وخياله الحائر ، غير أن هذا
المطلب عز عليه ، لأن انقطاعه عن عمله وجسيم مسؤوليته أمر
عظيم ، وإن بعذره في ذلك العاذرون مهما اتسعت له المعاذير .
وأيا ما كان ، فقد أحس بمس الحاجة إلى الفرار من عذاب يصفيه
وبشقيه ، وبلاء يضيق عليه الأرض والسما ، ففى كل شيء
أزتناسى كل شيء . وشاهدت بمباى ذات يوم سفينة مقلعة
فيها عبد الحق حامد ساهما واجما ، مع زوجته الضاوية الذابلة
وصغيرين كأنهما من ضعاف الطير .

واضطربت السفينة في بحر غضوب يخاله السفر أبد الأبد ،
فتأذت بذلك كثيراً صحة فاطمة ، وما ألقىت المرساة في
بيروت حتى أيقن عبد الحق باستحالة أن يتابع رحلته ، فقد
بلغت المريضة من الإعياء مبلغاً يعجزها عن تكبد أسير مشقة ،
وجعل بيروت خاتمة المطاف ، وفيها كان آخر العهد بفاطمة .
واهتزت المدينة لموتها ولم يبق فيها إلا من بكأها ، وشيعها
خلق كثير في طلبعتهم صفوة القوم ، وتقدمت جنازتها
مظاهر الإجلال والإعظام ، ثم أودعت قبراً يزدان بهذه
السطور :

« آه أيها الزائر ! لا حول ولا قوة إلا بالله ، شباباً أمام
فتنة الحمام ، وإن أسراراً إلهية لتكن في تراب المقابر ، والقبر
الذي ترى مشوى لفاطمة هانم زوجة عبد الحق حامد الحبيبة إليه
الأيمة لديه . وكانت - يرحمها الله - يتيمة لأسرة يبرى زاده ،
وقد خامرها السل فمضت في ربيع العمر ، وفي أرض غريبة ،
ولهذا الصدى روح ساكنة تطلب إليك قراءة الفاتحة . »

بيروت في ٦ رجب سنة ١٣٠٢ .

وشاء الله أن ينهدم هذا القبر بعد أعوام ، فلا تبقى منه إلا

أحجار متناثرة في ساحة تجر بها الرياح ذيولها ، غير أن
انهدام القبر وزواله عن وجه الأرض ، وغياب صاحبه في
أطواء الغيب عن أعين الناظرين ، لم يمح من الدنيا ذكرى فاطمة ،
فقد نظم عبد الحق حامد كتابا أسماه (المقبرة) ، وهو مرثية جميلة
طويلة ضمنها نفسه الشكلي وقلبه السكسير ، فكانت أثرا فريداً في
الأدب التركي وتحفة في الأدب الإنساني ، وأجاد الشاعر فيها إيما
إجادة لصدق عاطفته ، ومواناة قريحته التي انطلقت على سجيتها ،
ولسبب آخر لا يخفى ، فرثاء الزوجة متميز عن كل أنواع الرثاء ،
وما ذاك إلا لأنها زوجة وحبيبة ، فلها صفتان ولغيرها من
الأموات واحدة ، والقصيدة تنوح ألما وتفيض دمعاً وتدل
دلالة واضحة على أن الشاعر كان ملهما لا مستلهما ، وحزينا
باكيا لا حزينا متباكيا ، فليس فكره مسلسلا ، وإنه متنقل
من معنى إلى آخر ، ومعبر عما يمليه عليه فؤاد يعصف به الأسى ،
فلم يصطنع صناعة الشعراء ، ولم يتأثر خطواتهم فيجري في الرثاء ،
على عادتهم من ترديد معان مألوفة وترتيب أفكار معروفة
كاستهلال الشعر بشكوى الزمان ومذمة الدنيا ، ثم الخروج من
ذلك إلى تعداد مآثر الميت وذكر محاسنه . وشاعرنا يصور

الفجیعة ويعبر عن أثرها على حسه النفسى والأدبى ، ويسرد قصته من غير ما يزيد ولا إقحام ، فيذكرها فى موضع ويتوجع فى مواضع ، ثم يتفكر فى صرف الزمن وسر الموت والحياة . وكاد يتفلسف لولا حكم قلبه لعقله . وتغلب وجدانه على فكره تغلبا عظمه وصرفه عن وجهته . وقد بدأ مرثيته بقوله :

« أواه ! لم تبق لى دار ولم يبق الزمان على حبيبى ، خفق القلب بىكأى ونحيبى ، كانت ملء عینی وبين یدی ، ثم ارتحلت عنى إلى الآباد بعد قدومها إلى من الآزال . وانطلقت أنا لطیتی وتخلفت هى لتسكون نهباللبلى فى ركن لحد . ولم يبق لى من أنیس الروح ، ویلاه ، إلا هذا القبر فى بیروت . بالله أين أنشد هذه الجمیلة ومن أسأل عن هذه المسکینه ؟ رحماك یارب هلا دللتنى وأرشدتنى ؟ من ذا الذى ألقى بى فى البلاء والشقاء یارب ؟ یریدوتنى على نسیان الحبيب ویقولون انه زایل عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء ، کیف يتسع لتلك الحقیقة خیالى ، وأنى تشاهد ذلك عینای ! »

ویمضی الشاعر فى وصف بثه وبلواه بشعر طلی لا أثر فيه لتعمل ولا تکلف ، وهو حتى إذا هام فى الخیال وطابت له

نجوى الأحلام ، لا يعدو حقائق تدور بالخلد وخطرات تمر
على البال ، كأن يقول متمنياً : « هيا انهضى من لحدك يا فاطمة
ولنجدد العهد القديم ، جودى على بينت شفة ولا تكتمينى سرا ،
وإن القلب والله مشوق إلى حديث منك . أطلعيني على بسمه
الورود من ثغرك ، واتخفينى بدواء للفؤاد من عندك . ولتم
أيام حياقي بنظرة لك ساحرة أو ضحكة فاتنة . »

أما إذا هدأت بلابله ورقأت مدامعه ، فإنه يفكر
ويستبصر وينظر إلى الموت نظرة المشدوه المتسائل ، والحائر
الذى لا يستقر على حال فيقول : « يارب ، ليت شعري ما يكون
هذا النعش الخشبي ، أليس حقيقاً أن تذهل منه العقول ، وكيف
يمكن أو يسوغ أن تتولى عجوز شمطاء تكفين جسده هذا
الرواء وذاك البهاء ، »

ويضرب على هذا الوتر الحزين إلى نهاية مرثيته التي دارت
على حبيبه المفقود ، فكانت رقيقة المعنى أنيقة اللفظ ، وقد
صرح برأيه فيها فقال : إنها ليست موضعاً لإعجابه وإنما يعتز
بها كثيراً لأنها ترجمان قلبه ولسان حاله والتذكارات الباقي
للحبيب الغادى .

وله منظومة أخرى تسمى « الميت » ، وتعتبر تكملة « للمقبرة » ،
وامتدادا لها ، وأن اختلفت عنها بعض اختلاف ، وظهرت فيها
آثر مرور الأيام على تلك المأساة التي بعثت الشاعر على نظم
مقبرته ، فقد تسعر الجمر ثم خبت ناره تحت أكفان الرماد ،
ووجد المحزون الوطآن شيئا من برد السلوان ، فبدأت العاطفة
وسكنت لتفسح للعقل مجال القول ، فالشاعر هادئ متزن عميق
الفكرة يقبل على الموت مفكراً فيه بعد أن كان ينفر جزعا
منه ، ويريد ليكشف خفاياه وخباياه ، وهو الذي كان لا يطبق
له تصورا ولا ذكرا ، فعبد الحق حامدا في مريثته هذه يعرض
علينا صورة لفلسفته وهي صورة حزينة يستمدّها من موت
فاطمة الذي هاض جناحه وهذ منكبه وترك جراحا في قلبه
تنكّوها الذكرى من حين إلى حين . والملاحظ عليه في هذه القصيدة
أنه يفكر أولا ثم يحس بالتالي ، فتصيبها من التفكير أكثر من
نصيبها من الحس والشعور ، والآية منعكسة في مريثته الأولى
فكأنه بهاتين القصيدتين قد ساق لنا أحسن مثال للنفس
الإنسانية المحزونة . ويقول متحدثا عن مشكلة الموت ، وواصفاً
عجز المرء وقلة حيلته أمام طلاسمة : « حرام والله ألا يحيط

القلب بشئ من ذلك ؛ علما مادامت للبرء عيون لا تشاهد إلا الحقائق في هذا الوجود . نحن لانملك إلا اشتياقا إلى الوقوف على السر ولكن هيهات ! ، فان يبلغ العقل من ذلك شيئا . الموت موقظنا من رقدة الغفلة وإن كان لا يخرجنا عن ظلمة الحيرة ! ، ويطرد شعره على هذا النسق التأمل والنحو الفلسفي حتى يشكل الأمر على القارىء فيكاد ينسى أنه تجاه قصيدة في رثاء فاطمة ، لولا أن يذكرها رائيها بين الفينة والفينة كأن يقول : وفي الموت حارت البابنا ، ولولا الموت ما كان وجود ، بالله كيف الام على البكاء والشكوى إذا ذكر القلب من أهوى وما آلت اليه حالها ، فقد أودعتها رمال بيروت ، وكانت وردية اشقر فذبلت ورقاته وانتثرت منه اللآلئ . .

ولعبد الحق رأى في الحزن طريف ، فيرى أن من القلوب ما يتسع للفرح والسكدر جميعا ، كما أن منها ما لا يكن إلا أحدهما ، وهناك نفوس لا تمحو آلامها كل ما في الحياة من متعة ومسرة ، وإلى جانبها نفوس تحزن ، وسرعان ما تطرح عنها الأحران ، ثم يتحدث عن نفسه فيقول . إن الأفراح تزيد اتراحه ، ولذلك فهو يطلب السرور لينعم بالآلم ، ويقر بعجزه عن تعليل ذلك وتفسيره . وقد تزوج غير مرة بعد فاطمة ، فهل كان ذلك منه لذكرها أم لنسيانها ، ووفاء لها أم تخونا لعهدا ؟



منذ مائة عام أو أكثر قليلا ، كانت القافلة تسير سيرا وتبدأ
تناغم حركاته خفقات في صوت الحادي الحزين ، ورنات ضاحكة
لجلجل في أعناق الابل ، فتعمر بذلك وديان موحشة قفرة ،
وينطق بالصدى صخر الجبال ، فكأن غريبا يؤوب إلى وطنه
وينقلب إلى أحبه ، وفي قلبه فرحة يختلج منها صوته ضحكا
وبكاء .

وحق للركب أن يطرخوا عنهم اصر أحزانهم ، ويفرحوا
ما اتسعت للفرح أرواحهم ، لأنهم انما كانوا في سبيلهم إلى بيت
الله حيث تتطهر النفوس ، وتغتفر الذنوب ، وتستجاب
الدعوات ، ويرتحل الانسان من عالم العناء والفناء ، إلى عالم
الصفاء والبقاء . ولئن زان القلادة واسطتها ، فقد زان القافلة

هودج شوره من خير ، وحشاياء من مغل ، يتضوع مسكا
ويدل مظهره على مخبره . وهل يصح في الافهام الا أن يكون
مركباً لسكرية من السكرائم ، وعقيلة من العقائل ، لبت نداء
ربها ، ورق للتقوى قلبها ، وأنسيت كل شيء من أمر دنياها ،
فليست على ذكر إلا من آخرتها . فزابت خدرها ، ونزحت عن
وطنها ، وودعت ولدها ، وركبت وعورة الفياق والقفار في سفر
بعيد الشقة كثير المشقة ، أيامه عطاش أجهدتها العطش ، ولياليه
مسهدة سهدتها الفزع ، وآثرت أداء الفريضة على حياة ناعمة
حاملة كانت نعيمها في القصر بيران ، فصاحبة الهودج هي (بيكم
جان خانم) إحدى زوجات فتحعليشاه قاجار صاحب الحول
والطول والملك والسلطان ، ورفقتها سرب من جواريتها الحسان
وبعض النساء من صفوة القوم .

ومضت القافلة تمشي على سكيينة ، فقربت ما كان بعيداً ،
وأبعدت ما كان قريباً ، إلى أن وافت بلاد الترك ، وهناك طاب
للمسافرين أن ينزلوا ، وللمتعبين أن يستريحوا ، فضربوا الخيام
بظاهر إحدى المدائن ليتلبثوا أياماً معدودات يتسابعون بعدها
رحلتهم بأهبة أحسن ، وقدرة أشد . وكان العداء في هذا الزمان

مستحكما بين الفرس والترك ، ولا غرو فإن الفرس شيعة مجتهدون والترك أهل سنة متزمون ، فكل يتربص بعدوه الدوائر ، ويكيد لخصمه متمنياً فرصة لشفاء غيظه منه ، ومنتظرا زلة تصدر أو هفوة تبدر ، ليحتكم إلى السيف وينفس به عن دماء طالما غلت غضبا وحنقا .

فما كاد المقام القصير يستقر بالنزلاء الإيرانيين ، حتى تحرك الحقد في نفوس الترك ، ففسبوا إلى بعض التجار المهاجرين أنهم يخفون قدرا من سلعهم عن أعين الحراس تهربا من أداء مكس عليها ، كما ظنوا ، وبعض الظن اثم ، أنهم يحتالون على ذلك بدسها في أمتعة النساء من هؤلاء الحجاج .

واقترص الحراس الترك ذلك لينالوا الإيرانيين بما يكرهون من بحث عن السلع المخفية في طواياها الأحمال وثنايا الثياب ، وما يتبع من هتك للستور وانتهاك لحرمة ربات الخدور وبينهن زوجة الشاه بمماتها وسمو منزلتها . فكبر على الإيرانيين أن يركبوا بالصغار ، ويساموا ذل العبدان ، وتهياؤا للذود عن أنفسهم بالسيوف المشرعات ، ووقفوا للقتال صفا صفا ، وجاء الحراس بشرذمة من الانكشارية لاستخدام العنف إذا استلزم الأمر

الغثف ، غير أن قائدهم كان رجلا موفورا الحظ من حصافة الرأى
ورجاجة العقل ، فبدلا من أمر جنوده بالشدة والتقدم ، أشار
اليهم بالاحجام والتقهقر ، وطلب مقابلة أمير الحج وكان يدعى
(حاجى ميرزا ايرضا) . فدخل عليه مسلما ، وأخبره أنه انما
جاء مستفسرا عن الحال ، وسأله ان كان به إلى الميرة حاجة ، كما
عاهده على دفع كل مكروه ينال فردا من أفراد القافلة . ثم أحسن
الاعتذار عما وقع من أمر قد يكون عكر الصفو وكدر النفس
فطيب خاطره ، وعرض أن يسهر على راحة الحجاج فهم ضيفان
النبي ، وضيفان أينما حلوا وحقهم الاعزاز والاكرام .

وهكذا ألقى المتخاصمون سلاحهم ، وتناسوا كل ضغن
كان بينهم ، كرامة للنبي العربي الكريم وزواره الأكرمين . وكفى
الله المؤمنين القتال .

وان قصة هذه القافلة لتعيد إلى الذكر قصة قافلة أخرى
خرجت من ايران فى عهد الشاه طهماسب المتوفى سنة ١٥٧٦ م
برأسها من يدعى (معصوم بيك) وكان عظيم الجاه عزيز الجانب
يمت بالقربة إلى الشاه وله من هبة الملوك ما يرفعه فوق الناس
كافة ، ويجعله سيدا فى قومه مسموع الحكمة مطاع الاشارة وقد

تطاوالت أيامه وامتد عمره حتى ذرف على الثمانين ، فأدركته
سأمة من تلك الحياة الطويلة ، بعد أن نال منها منية الممتنى ، ولم
يذق للحرمان يوما طعاما مرا ، كما أنه لم يغفل عن أن لكل أجل
كتابا ، وأن الموت يأتيه ولو كان في برجه المشيد ، وأحس دنو
آخرته ، وما سوف ينتظره فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ،
فظمئت نفسه إلى قضاء مناسك الحج ، والتزود بذلك من دنياه
لعقباه .

وسارت قافلته سيرا ليس بالغير ، رافة بشيخوخته ،
وابقاء على ذلك الرمق الذي أبقته فيه الأيام ، فكان السفار
ينخون مطاياهم في كل بلد يحلون به . فيرى الناس من سماحة
معصوم بيك وسخائه شيئا عجبا لم يعهدوه إلا في أقاصيص
السكرماء ، وكأنما أراد الرجل أن يخرج عن كل ماله حتى لا يرى
كفا تمتد بالسؤال ، ولا يسمع أنينا يرتفع من جوف جائع .
فطار صيته في الآفاق وذكر في كل مجلس بالحسن ، حتى جاء
مكة بعد طول زمان ، وكان من رحمة الله به أن يحقق فيها أمله
الأوحد .

غير أنه رأى هناك ما ساءه وأحزنه ، فقد أغارت طائفة من

شذاذ العرب وصعاليكهم على قافلة تضم كثيرا من النفوس وجزىلا
من الأموال ، وكان المغيرون غلاظا شدادا ، لا يقنعون بالأسلاب
وان عظمت ، بل يحبون أشباع خبيث طبائعهم ومجنون نزواتهم
بقتل الأبرياء وتعذيب الأسرى ، وبلغ من عتوهم وجبروتهم
أن أعيا أمرهم جنود الترك المنوط بهم تأديب أمثالهم والأخذ
على أيديهم ، فاعتل الجنود بكثرة عددهم وشدة بأسهم . وتحركت
أريحية معصوم بيك وثارت حميته ومروءته ، ورأى أن يغير
المنكر بقلبه ولسانه ويده ، فأمر من كان يرافقه من الفرسان
والاتباع أن يقاتلوا هؤلاء الأعراب المفسدين ، فخاربوهم وصدعوهم
فتصدعوا ، وفروا إلى كل وجه ، بعد أن تركوا ما سلبوا وأطلقوا
من أسروا .

واستحق معصوم بيك ورجاله البواسل بذلك من الحجيح
كل ثناء وتمجيد ، وان كان هذا النصر الحاسم قد كشف عن عجز
جند الترك ، وأثبت فشلهم وخور عزائمهم ، فشعروا بوصمة
العار في جباههم ، والشنار ينكس رؤوسهم ، فاضطغنوها على
معصوم بيك وطوعت لهم نفوسهم أن يقتلوه ، وبيتوا على ذلك
نيتهم ، ورصدوه يوما مع أصحابه فقتلوه جميعاً وهم حرم .

وذهب ضحية الخبث وأقبح الغدر ، وقتل لا لشر صنعه
بل لشر منعه ، وصدق من قال : أن الحسود مغيط على من
لا ذنب له .

وان الفرق لبعيد بين مصير أصحاب هاتين القافلتين مع
الترك ، فقد أكرم الأولون وهم في سبيلهم إلى الحجاز على نية
الحج ، أما الآخرون فاستشهدوا في مكة وهم يحجون . وهكذا
يكرم الله قوما في حياتهم وقوما بعد مماتهم .

شاعران مجنون

إذا ما جرى للسجن والسجين في الشعر ذكر ، فالشاعر
متميز بحساسية الوجدان ، وحرارة العاطفة ، وصدق التعبير ،
والمجال أمامه منفسح للالتيان بالرقيق الأنيق ، فأسباب الإجادة
أو معظمها مهياة ، لأن الشعراء السجناء منطلقون على سجيّتهم ،
يتحدثون عما يقع تحت حسهم ، فلا يحاولون مستحيلا ، ولا
يعرفون إلى التصنع سبيلا كما يفعل المتغزلون مثلا في الأحايين
الكثيرة . وإن السجن وما يلقاه السجين من الألاقى في غياهبه ،
لما يبعث على التحدث عن النفس ووصف الحال يبلغ التعبير ،
ومن ثم كانت الحبسيات في جملتها جيدة ، كما يلحظ أنها قليلة ،
ومردقاتها إلا أنها ليست فنا شعريا قائما بذاته منصوبا عليه
كالوصف والثناء والهجاء ونحو ذلك ، ومحال أن يقول الشعراء

الشعر رياضة فيها ، فلا بد لشاعرها من تجربة خاصة ، وأمر يقع له دون سواء ليصبح من شعرائها . وما هي من فلتات اللسان ، وإن كانت فلتات اللسان وزلاته أول سبب في إيصالها إلى حيز الوجود .

وأصحابها بطانة الملوك وندماؤهم ، المعرضون منهم لسنخ قد يسلمهم إلى الجلاد أو إلى السجن . و قد كما قال أحد الحكماء :
إن ثلاثة ليس لها أمان ، البحر والسلطان والزمان !

وإن آداب الفرس والترك لتعز كثيراً بشاعرين من هؤلاء السجناء وهما مسعود سلمان الفارسي المتوفى سنة ١١٣١ ميلادية وأحمد باشا التركي الذي مات سنة ٩٠٢ هجرية .

وكان كلاهما من فحول الشعراء في عصره ، غير أن شعرا ترنما به في محبسهما ، فاخترقت نبراته بين جدران كالحة ، وضاعت نغماته في صايل ثقيل الأغلال ، هو الذي رفع من ذكرهما ، ونشر في الآفاق صيتهما .

وقد عاش مسعود سلمان في عهد الغزنويين الذين ناصرُوا العلوم والآداب في إيران فبلغت شأوا بعيد المدى ، ثم فتحوا الهند وأنفذوا إليها حضارة إسلامية زاهرة ، وأدباً فارسياً

رفيعاً ، وهو ينتمى إلى أسرة عرفت بالعلم والفضل ، وورث
الأدب أفرادها كبراً عن كابر . وفي مدينة لاهور بالهند كان
مولده ، وبها أمضى زهرة العمر متقلبا في أعطاف نعمة سابعة ،
ولا غرو فقد كان من أهل المنزلة عند الحكام . واتفق للسلطان
ابراهيم الغزنوى أن جعله من خاصته . وأهل مشورته . فأقبلت
عليه الدنيا وعظم جاهه وزاد قدره فاقتنى الضياع وابتنى القصور .
ودارت الأيام فتبدلت الحال وتعكر الصفو ، لأن الرجل
كان محسداً كثير الأعادى محاطا بالواشين والدساسين الذين
أوغروا عليه صدر السلطان ، فما كان منه إلا أن أمر بزجه في
السجن فاحتوته قلعة يقال لها (ناي) . وقد ألقى المرجفون في
روع السلطان أنه يتآمر على سلامة ملكه ، وفي الواقع ،
كان الرجل برىء الساحة مما نسب إليه ، وإنما أراد بعض الظالمين
أن يفضبوه حقه في ضيعة له ، وأراد أن يرد كيدهم ويستعدي
السلطان عليهم ، فكانت في نفوسهم . ومشوا بنميمهم حتى
جروا البلاء عليه . وفي ذلك يقول :

« مولاي العظيم ! لقد لبثت في السجن أعواماً عشرة أو
نحوها ، وللهدم عصفات بنفسى وفتكات بروحى ، بالله أنى

يكون لي تحول عن دوائك السنية وأنا صنعتها وعبد إحسانها
كما كان سلفي من قبل . كلا . لقد قام سعد سلمان في خدمتك
خمسين عاما حتى أتيت له بالكد والجد أن يمتلك ضيعة وعقارا
وقد بخسني الظالمون حتى ، فضاقت ذات يدي ، وأصبحت
معدما ، وجئتكم متظلمة مستعديا ، أطلب العدل والنصفة ، ولم
يدر بخلدي ما خبأ القدر لي في طواياه . والله ما أدرى أى ذنب
كان مني ؟ ! غير أن أعداء خبيثاء مكروا بي وكادوا لي .

ومن طريف ما يروى عنه ، أنه زامل في سجنه سجيننا
يقال له بهرامى وكان رجلا عالما بالنجوم وأحكامها ، فسرعان
ما تأكدت المودة بين السجينين وجرى بينهما حديث العلم
مخففا للبلوى ، مؤنسا للوحشة ، وتتلذذ مسعود لبهرامى فى علم
الفلك ، وقد وصف حاله وذكر قصته مع بهرامى فى قوله : « تلك
قصتي فاستمع إليها ، وزنها بعقلك فإن العقل ميزان العدل . لقد
اطلعت فى هذه القلعة على أسرار النجوم فى مسالكها حتى رأيت
قرانها واحتراقها . وكنت أجلس فأشاهد أمانى شبحا للوت فاغرا
فاه كالأفعى ، ولقد أوهت السكبول ساقى وأضوانى ما ألقاه من
هول العذاب ورهبة المحن ، ولا أجد من أقول له واسمع منه ،

ولولا بهرامى لسامت حالى ، فقد كان المسكين يصف النجوم
لى تارة ، ويحدثنى عن سر الأفلاك تارة أخرى ، حتى عرفت
منه عليها ، وأحطت علما بشكلها ، .

وله بيتان مؤثران يذكر فيهما أمه العجوز ، والحال التى
آلت إليها من بعده ، والعجب أنه لا يصطنع فيما يقول اغراقا
ولا مبالغة ، فكلامه حقائق يقررهما بشعر لا أثر فيه للبحسنات
اللفظية وقد وجد فى رقة المعنى عوضا عن جمال اللفظ . يقول
مسعود سلمان : « لولا أسى تلك العجوز التى وهنت قواها وأصبحت
عينها سحابا ، ودمعها أمطارا ، وراى الهم على قلبى حتى غابت
الدنيا عن بصرى ، لما اهتزرت لذلك والله على ما أقول شهيد » .
وقد شفع الشفعاء له عند السلطان فادركته الرقة عليه وتجاوز
عنه ، نخل سبيله ورد إليه ماله وضياعه . ومات السلطان ابراهيم
الغزنوى وخلفه ولده السلطان مسعود الذى جعل ولاية الهند
لواده عضد الدولة شيرزاد ، وكان أحد رجال الدولة وهو
أبو النعمان الفارسى ممن يعزون مسعود سلمان لمنزلته فى الشعر
والأدب ، وأراد أن يكافئه فما زال بالوالى حتى اقنعه بضرورة
استناد حكم الأقاليم إلى مسعود سلمان ، وتم الأمر فأصبح

من الحكام ، إلا أن أبا النصر الفارسي الذي كان بالأمس صفيه أصبح فيما بعد عدوه ، فشكاه إلى السلطان الذي أمر بسجنه فسجن في قلعة (مرنج) وأقام ثمانية أعوام في ألم ممض وعذاب غليظ . ومن قوله يصف حاله : « إذا رأيت وحدتي في محبسي حدثني النفس أني في صحراء ، فحجرتي قبر شديد الظلمة . وسجاني خنزير قبيح الهيئة كره الخلقه ، فاستسلم لهم مستيثسا أو أطفئ بالدموع نيران قلبي ، لقد ضعف جسمي فقويت روحي ، وانعقد أمل بلطف ربي » .

غير أن محنة مسعود سلمان لم تكن شرا محضا فقد أقر بأنها لم تخل من خير أصابه ، لأنه عرف نعمة الألم وأثرها في تهذيب النفس حتى صرح بأنه مدين للسجن بالفضل ، فهو القائل : « كيف أجد فضلا على لهذه القلعة التي زادتني علما وفهما . وإن الحك والنحت ليظهران من السيوف جوهرها ومن السهام نقشها » . كما قال : « لا تضق بصروف الدهر يا مسعود ، وإذا نالتك بما تكره من أذى فلا يحزنك شيء من هذا ، وارفع الرأس عاليا كشجرة السرو ، إذا ما هوت على رأسك الدنيا » . وانطلق مسعود سلمان من سجنه شيخا فانيا ، لا يتماسك ضعفا ، وقد

سم الحياة التي امتلأت عليه هما وغموا اسرا وظلاما ، فقضى بقية أيامه معزلا متخليا من الدنيا يعبد الله ويسأله التعجيل به إلى حيث يلقاه ويشهد حياة هي من حياته خير وأبقى .

أما أحمد باشا فقد ولد في مدينة بروسه بالأناضول ، وهو من أسرة كريمة لها حظ من أبه الحكم ، وتلك المهابة التي تحيط كاهالة باصحاب المناصب الرفيعة ، فأبوه قاضى عسكر السلطان مراد الثانى ومن سلاله النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يكن أحمد باشا أقل من أبيه رتبة ، بل أعلى منه في واقع الامر ، لأنه كان مؤدب السلطان محمد الفاتح ذلك السلطان الذى كان يعرف له قدره ، ويذكر له عليه فضله ، وقد أشركه معه في فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وبوأه أعلى المناصب فاتخذه وزيرا له ، وكانت منزلته في دولة الأدب كمنزلته في دولة الرتب . فهو شاعر كبير ويعتبره مؤرخو الأدب التركى أول من قال الشعر في اللهجة العثمانية بعد أن أصبحت لهجة الترك الأدبية . ولهذا الشاعر قصة عجيبة مع السلطان محمد الفاتح ، فقد مر بسمع السلطان أن أحمد باشا يطيل في وصف غلام جميل الشعر ، على أن الشعر اءموكلون بالحسن يتغزلون فيه أينما وجدوه ، ففكره السلطان مغبة الامر ، واشفق من

أن يختلط ذلك على العوام ، فتحدثهم عقولهم بأن الوزير يقول
الشعر في الغلام ذهاباً منه إلى المجون والصبرة . ولم يكن السلطان
على ثقة من صحة الخبر فأراد أن يمنع اللبس بالتجربة ويعرف
الحقيقة بالدليل ، فأمر بالغلام فجرت ناصيته وأرسل إلى حمام
أحمد باشا حاملاً قد حامن الشراب ، وما وقعت عليه عين الباشا
حتى تحركت شاعريته فقال على البديهة : « جزت للصنم الجميل
؛ ناصيته فبق من الكافرين ، وقطع المجوسى زناره ، فما أصبح
من المؤمنين ، » .

ووقف السلطان على جليلة الأمر فاستشاط غضباً وأصدر
أمره فقبض على الباشا وحبس إلى أن يرى فيه رأيه ، وما كان
رأيه إلا أن يضرب عنق معلمه ورئيس دولته . فأخذ الأسى من
أحمد باشا كل مأخذ وكبر عليه أن يمعن السلطان في اذلاله هذا
الامعان على غير ذنب كان منه ، فالشعراء في كل واد يهيمون
ويقولون ما لا يفعلون ، فكذب وهو في محبسه صحيفة انفذها
إليه ، وكانت هذه الصحيفة منظوية على قصيدة معروفة في
الأدب التركي بقصيدة الكرم ، ومن قوله فيها : « ان كرمك
بحر والقطرة منه بحر للكرم ، والسخاء خيلة ترتوى من شآبيب

كرمك . بالله لاتستذلني ، فانت الذى من قبل قد أعززتني ، ولاتقرع
على المعروف سنا للندم ، فتلك شيمة الكرام . واذا ما فرط
من عبد ذنب ، فما ضر لو غفرت له فرطاته ولم تؤاخذة على
سقطاته .

وقرأ السلطان القصيدة فوقعت منه موقعا حسنا . وصفح عن
احمد باشا صفحا جميلا ، غير أنه خلعه من الوزارة وناط به
منصبا آخر .

ومن واضح الأمر أن حبسية احمد باشا لاتقاس في الجودة
بحبسيات مسعود سليمان ، غير أن الشاعرين جميعا دون سواهما ،
قالا هذا اللون من الشعر فكان ظهورهما البين في تاريخ أدب
الفرس الترك .

غضب الأرض

يذكر التاريخ فيما يذكر من أخبار الزمان وأهله ، أن داء عياء ألم بزيادة زوج الرشيد فأشفت منه على الفناء ، وما جت على الأيام أوجاعها ، واكتوت من وقد الحى بما تذوب له العظام وتطير العقول شعاعا ، واستفسر عما تشتكى نطس الأطباء ، فقلبوا الرأى مليا ، وقال قائلهم أن المريضة تستوخم بغداد ، فمن الخير أن ترحل عنها وتنتجع الشفاء فى بلد أطيّب هوا . فكان ما لا بد أن يكون ، وسار الركب بالمريضة إلى بقعة فى شمال غرب إيران ، وهناك تلبثت أياما فمسخ الله ما بها ، وخمدت الحى بعد طول إضطرام ، وعادتها العافية كما يعاود بستان الخريف رونق الربيع ونضرتة ، فسرت سرورا لا مزيد عليه ، وبلغ من فرط بهجتها ، أن أمرت بتشيد مدينة فى تلك الناحية ، واختارت لها اسما واضح المعنى ، وهو تبريز أى شافية الحى . وفى عام ١٦٥

هجرية ، رفعت تبريز مآذنها ونفخت قباها كأنها تأتيه على المدائن
بأنها شفت زوج أمير المؤمنين ، وعمرت دورها واستبحر عمرانها
على هذه الذكرى السعيدة التي لا تزاد إلا جدة على كر الجديدين .
غير أن المدينة الجميلة كانت شقية بجهاها فأرضها طيبة في
ظاهرها غير طيبة في باطنها ، لأن أقليمها معروف بأذربيجان
ومعنى آذربيجان الأرض التي تكن النار . ومرد هذه التسمية
إلى أن ذلك الأقليم كثير الزلازل ، معرض بطبيعته ،
لويلاتها ونكباتها ، فقد زلزلت الأرض زلزالها في تبريز قبل
أن يمضي على تشييدها سبعون عاما فهوى شاهق البنيان من
عليائه ، وسويت الدور بالتراب هدمًا ، واحمت آيات المدينة
وهلك من أهلها الجمل الغفير ، بعد إذرأوا من ذلك اشراط
الساعة وأهوال القيامة ، ومنيت بمثل هذه النكبة عام ٤٣٤
هجرية ، ويقال أن منجما يدعى أبا طاهر الشيرازي تنبأ بهذا
البلاء قبل وقوعه بزمان يسير ، ولما عرف الناس ذلك زابلوا
ديارهم وهاموا على وجوههم يطلبون الفرار ، ف ضربوا الخيام في
الصحراء ، حتى وقع الخطب وهدم الزلازل ما هدم وقتل من
هزه أن ينجو من شديد بطشه .

وللشاعر الفارسي قطران المتوفى سنة ٦٥ هجرية قصيدة
عصماء ، أصاب فيها صفات هذا الزلزال ، وهو لم يقتصر على
وصفه اقتصارا تاما وإنما تجاوزه إلى غير ذلك كشكوى الزمان
والتعجب من صروفه ؛ كما يقتضى المقام هذا ، والبساطة طابع
القصيدة ، وقد بلغت البساطة فى شعره حدا جعلها أشبه شىء
بالسذاجة . وقطران شاعر طويل النفس مشرق الديباجة يؤثر
الجزالة والمعانى الناطقة ، على المحسنات اللفظية التى كثيرا ما شوهت
من جمال الشعر . وقد استهل قصيدته بالاخبار والرضا بقضاء
الله ، واظهار عجز الإنسان أمام قدرة الرحمن ، فقال : لا نفع
لك ولا جدوى إذا تعلق قلبك بالمحال ، فى عالم لا دوام له على
حال من الأحوال . انت أن حلت فلا يحول الليل ولا النهار ،
وإذا تغيرت فلا تغير لحال من أحوال الدنيا . فما الافتثال
وزجر الطير ! لا تشتغل بذلك القلب عبثا . أن للقضاء حكما لا بد
على القلب يسرى ، وهو مع ذلك من حكم القضاء يشكو ،
ونفسك نهب للأمل فأنب تخشى إنقضاء الأجل . فبالله دع عنك
ذكر الاتراح فى يوم الافراح ، واطو حديث الفراق يوم
الوصال ..

وهو إذا فرغ من قوله هذا يواجه موضوعه فيدخله من
 بابه في سهولة ويسر ، فيروى الخبر بلسان صدق ، ويقول :
 « ليس في الآفاق بلدة تضاهي تبرز في جمالها وطيبها وأمنها
 وغناها ، وأهلها ينعمون بالطيبات ، ويرشفون اللذات في
 كؤوس مترعات ، وقد شغل كل من فيها بآمال له
 يحققها ، وسواء في ذلك سيد ومسود ، عظيم وغير عظيم .
 فن عابد للخالق ، إلى خادم للمخلوق ، ومن طالب دنيا
 إلى أمل في عقبى ، وفيها شارب الضياء ومستمتع للقناء ، ومطلق
 الفهود لصيد الغزلان . وصب الله على أهل تبرز البلاء والقناء
 صبا ، وأراد لنعمتها الزوال فزالت ، وأصبحت نجاتها وهادا ،
 وهاد نجاتا ، وصار رمادها رمالا ، وتصدعت الأرض
 وتمزقت زروعها ، وفارت البحار وسارت الجبال ، وكم قصور
 كانت تناطح الأفلاك بقيابها ، لم يبق منها سوى أطلال ،
 وكم دوحة كان فرعها بين النجوم ، لم يبق منها غير آثار لها .
 وليس من يقول لغيره لا تبك ولا تنتحب . »

وهكذا رسم قطران للزلزال هذه الصورة التي لم تتعد الصدق
 في شيء . وقد أيد كثيرا من أوصاف تلك المدينة الرحالة

فلانندن الذى زار إيران سنة ١٨٤٠ ميلادية أى بعد موت
الشاعر بأعرام طوال ، فقال إن تبريز مدينة حزينة ، لأن أهلها
يخافون الزلازل فيبنون ديارهم فى منخفضات من الأرض ولا
يجعلون للمسجد منارة ، ولذلك تعرت أسواقهم وديارهم
ومساجدهم عن كل زينة .

وفى عام ١٨٩٤ تزلزلت الأرض فى استانبول فهلك بشر
كثير . وللشاعر التركى توفيق فكرت بك قصيدة جميلة فى هذه
المناسبة ، ولاغرو فهو من رواد الأدب التركى فى عصره الحديث
وشعره متميز بالمعنى العامر والتعبير الدقيق ، والذى نراه ، أن
توفيق فكرت بك أكثر شعراء الترك المحدثين غوصا على
المعانى وهو يتعب القارئ فى الأحايين الكثرة حتى يتفهم المعنى
الخفى ، وذلك لاصطناعه الرموز والإيماء وتحليقه فى أبعد الآفاق ،
مما يجعل شعره مثالا للشعر العالى عند الترك وغير الترك . وفى
قصيدته المسماة بالزلازل دلالة واضحة على ذلك . فقد تحدث عن
هذا الزلزال ولاكنه لم يصفه كما وصفه الشاعر الإيرانى قطران
وصفا قصصيا جزئيا ، أولى به أن يسمى خبرا من أن يسمى
شعرا ، وإنما أحس بالزلزال وشاهد أثره ، فتأثرت بذلك

نفسه ، واستيقظت فيها احساس كن نوما ، واتخذ هذا الحادث
أداة تعبير له ، وإطارا يرسم فيه صورة وجدانية خاصة ، فقد
اتفق أن وقعت هذه الفاجعة بعد مولد ولد له بمدة غير مديدة
فزلزلت مهده ، وكانت أول تجربة قاسية أحس بها الوليد في
دنياه دخلها بالأمس القريب . فتعجب الأب كثيراً ، وأدار في
رأسه أحلاماً وأفكاراً وتساءل عما سوف يقدر لهذا الطفل
الغريب في مستقبل الأيام .

فبدأ تصيدته موجهاً قوله إليه ، وذاكر أنه حل ضيفاً بالأمس
على دنياه يشبهها بغرفة أبي القدم كل ما فيها وقد اختلجت أرضها
لحطمت وصدعت وهدمت ، إلى أن يقول : « ذلت الوجوه
- حزنا وهلعاً ، وأصبحت الديار وساكنتها كالفرش
المبثوث ، أما ما تبقى منهم فعاجز ذليل ، وقد أحنى الخشوع
والانكسار رهوساً كانت مرفوعة ، وحتى رهوس المآذن
نسكت في الأرض . وإن مثل هذه الصدمة النكراء لتوقظ
الناس من غفلتهم . ولكن ، أكل هذا العذاب المهين لتنبية العاقلين
لله ما أقساه درسا ، ثم يطوى ذكر الزلزال بعد أن خلص منه
إلى غرضه فيلتفت إلى ولده ويقول : « ها أنتذا ضيف لا أيام

سود ، فلا ريب ان حياتك لن تكون سياحة هينة هنيئة تفعم القلب سرورا . وفي هذه الحياة التي هي تيه محنة وبلاء ، لتلك السياحة الهنيئة خيال يطوف بالنفس ليس إلا . وما نهاية السير الحثيث إلى السراب البعيد إلا عناء يذهب أدراج الرياح ومن كد حق السكد ، كسب الحياة ، ولا مندوحة لك عن أن تخسر قليلا لتكسب كثيرا . ، وبعد أن مضى توفيق فكرت بك في المعاني التي نسي بها الزلزال الذي كان يصده نسيانا تاما ، عاد إلى ذكره في البيتين الأخيرين من هذه القصيدة . وهو يركز فكره ويصور خياله فيقول : « وان من جاهد في طلب المعالي ليخطو خطوات يثقلها الخوف وإن كانت مجيدة مشرفة ، وما ذاك إلا لأن الزلازل من خلفه ، والزلازل بين يديه . »

وان انعكاس هذه الغضبة الأرضية على حس هذين الشاعرين ، يظهر لنا الفرق واضحا بينهما ، فنجد نفسييتين مختلفتين ، ومدرستين شعريتين .



هو عارف القزويني شاعر الوطنية وشاعر الشعب في ايران ،
وشعره يتسم بالركة وبروز المعنى في ظاهر اللفظ ، وإن لم يكن
له ما لشعر الفحول من جزالة واشراق ديباجة وأحكام نسج ،
وقد نال شعره هذا بتلك السلاسة رواجاً وسيرة بين طبقات
الشعب التي تؤثر اليسير على العسير ، ولا تملك من تمام الأداة
وقوة الفهم معواناً لها على اجتياز وعرة الألفاظ للوصول
إلى المعنى العالى والقصد الخفى . وما زاد هذا الشاعر شهرة وقربة
من قلوب الناس ، أنه كان رخيم الصوت عليماً بفقون النغم ،
يتغنى شعره فتسرى فى النفوس هزة الطرب ويملك السامعين
أعجب العجب ، ولا يسمعون بعد ذلك إلا ترديد ما سمعوا
مستعدين للذادة والمتعة ، فترنمت المجالس والمحافل فى ايران

بالحان عارف القزويني ، وجرت أشعاره على كل لسان ،
فعرقتها الفتاة في خدرها ، والفتى في طريقه ، والطفل في ملاعبه
كما نطق بها الشيخ مستشهداً ، والعجوز شاكية متبرمة . والواقع
من الامر أن شعر هذه الألحان لم يكن برمته شعراً غنائياً ،
وإنما كان كذلك شعراً سياسياً يتناول بالنقد المرير حالة إيران
الحاضرة ، ويصور فساد الحكم على عهد الشاه ناصر الدين .
والجراحة من أظهر صفات الشاعر ، فهو يوجه إلى رجال الحكم
وأهل الحول والطول عبارات لها لسع العقارب من غير ما خجل
ولا وجل ، ويقول الحق أو ما يخاله حقاً دون اختيار لألفاظ
هادئة يسيغها الذوق ولا يمجها ، وقد نال الجزاء مرة على عشرة
من عشرات لسانه ، وذلك أنه نظم قصيدة سماها (يقظة العدو
وغفلة الصديق) وغناها على جاري عادته ، واتفق أن سمع أحد
الوزراء بأمرها ، واعتبر ما جاء بها خادشاً لشرفه ومسيئاً إلى
كرامته ، فامتلاً غضباً على الشاعر ، وأمر به فضرب ضرباً
وجيعاً ، ومن قوله في هذه القصيدة (أن عينا تصحو من نوم
غفلتها ، لتستحق من العمى أن يطمسها ويمحو آيتها ، لقد سكر
أقبح سكرة ، وقسم بعينك انا نشاوى ، والعدو يقظان ، لقد

اختفى الشرطة فمالهم من وجود ، والمحتسب بالقمار في شغل
والحراس في نومهم يغطون ، والعسس سكارى : أما اللص
فإنه يعيث في الأرض فسادا . لا تمن النفس بحسن الصنيع من
لص وقاطع طريق ، فان بلادنا اليوم مرتع المتلصصين !) .
وله أغنية غناها بظهران في اليوم الثامن والعشرين من
شهر ذي الحجة عام ١٢٣٢ وفيها يقول (أسقى الصبياء
لأقنى بها ، فلقد عرفت بأن فتاتى خاتمة لبقائى . لى سكرتان
سكرة من يمين الساقى وأخرى من كأسه ، وفى تلك النشوة
عزاء عن خرابنا ، إن البغى لم تعد له حدود ، وليس فينا من
يسأل عن حدود دار خربة يأوى إليها ، أين جنكيز خان السفاح ؟
مرحبا بمقدمه لسفك الدماء الفاسدة . بالله ماذا دهمى مجلس
الشورى ، فإنه لم يخبرنا إن كانت الدار لنا أو لغيرنا ، إن السارق
الذى نهب البلاد وخربها من أنفسنا ، فكيف نشكو غيرنا
والشر من صنع يدينا . ولو عرف الشيطان ما آلت إليه حال
العدالة ، لدنا على أن الذنب ذنب آدم وحواء) .

وهكذا يمضى عارف القزوينى فى عرض الحقائق عارية
بعد نزعها عما كان يسترها من ملق أو رياء أو رماد يرمد العيون ،

فبصر الشعب بما كان يدبر له في الخفاء ، ويحيطه علما بما
يهدده من ويل وثبور . ومن عجيب أمره أنه لم يكن من رجال
السياسة المتمرسين بها ، والواقفين على خفاياها وأسرارها ،
ول أمره أنه كان يؤثر في القلوب بالمعنى الجيد ، وفي الاسماع
بالصوت الجميل .

وله مقطوعة يصور فيها حاله ويشكو زمانه ، ذاكراما
يلقاه من صروف الدهر وحدثانه (انا من بكى وغص بالأسى
واعتورته المحن . انا من لم ينعم بالصفاء والهناء طرفة عين ،
انا غريب في وطني ، واغرب من ذلك ان الوطن اشد غربة
مني ، واينما نقلت خطاي في بلادى تعرضت للسارق ووقعت في
اسر قاطع الطريق)

وله اغان كثيرة كان لها في النفوس وقع شديد فثارت
الخواطر وتبلبلت الافكار ، ونشطت العقول من عقاها
وفطن الشعب ألايراني الى امور كان عنها غافلا . ومن اغانيه
قوله (لقد نبتت حمر الورود من دماء شباب الوطن ، وانحنت
من شجرات السرو قاماتها حزنا على قاماتهم الفارعة ، واغتم
الببلل لذلك فانزوى في ظل الورد . ولقد شقت الازاهير ثيابها
مثلي من فرط اساهها . انت بالنحس دوار ايها الفلك ، بالك من

مشير للشرور ايها الفلك ، لا إل لك ولا ذمام ايها الفلك . الوكلاء
في نومهم غافلون ، والوزراء من خمرتهم يجرعون ، وقد نهبوا
كل ما في ايران من فضة ونضار ، ولم يبقوا لنا دويرة تسكننا .
يارب انصف الفقير من الأمير . انت بالنحس دوار ايها الفلك
بالك من مشير للشرور ايها الفلك ، لا إل لك ولا أمان ايها
الفلك ١)

هذا هو عارف القزويني شاعرا مغنيا ، غير ان له قصة غرام
طريفة تشير فيما الرغبة لمعرفة عارف القزويني عاشقا . وخبر
ذلك انه كان منذ فجر شبيرة موصول الأصرة بعلية القوم الذين
كانوا يصطفون منه ندما مؤانسا ، يغنى لهم فيسهر ليا ليهم ويبعث
البهجة والطرب في نفوسهم . وقد وجد السبيل بذلك الى قصر
الصديرا الأعظم ، ثم الى قصر الشاه ؛ فارتفعت منزلته واستفاضت
شهرته واقبلت عليه الدنيا اى اقبال ، وعرف فيمن عرف من
عظماء الدولة رجلا يدعى نظام السلطان ، فتأكدت صداقتهما
وصفا الود بينهما ، وكان نظام السلطان هذا زوجا للأميرة
أفتخار الدولة بنت الشاه ناصر الدين التي سار المثل عنها في
طول البلاد وعرضها ، وتحدث الناس حديث معجب متعجب
عن ادبها وبصرها بالشعر وكرامتها لأهلها . واتفق ان دعى

غارف الى قصر نظام السلطان ليطرب الاميرة بمارق من شعره
وراق من نغمه ، و اقيمت مجالس طرب تجمع افتخار الدولة
وزوجها بالشاعر ، فكان ينشدها من شعره ويستمع الى رأيها
فيه ، ويصوغ لها الالخان سحرأً خلاباً ، فتتهزل له طرباً واعجاباً ،
وقد تنسى شيئاً من وقار الاميرات فتلح في استعادة صوت طاب
لسا . ومرت على هذه الحالة ليال بيض ، فكانت تحضر مجلس
عارف القزويني بشوق ظامى ، ورغبة لا تزدد على الايام
الا اشتداداً .

وكان نظام السلطان زوج الاميرة ذا حظ من ثقافة الغرب
فلم يحجب عن الشاعر زوجته ولم ير بأساً في ان يجالستها كل
ليلة ، وليكن ، كان ما ليس منه بد ، واعجب الاميرة من
الشاعر ما يعجب المرأة من الرجل ، واعجب الشاعر من
الاميرة ما يعجب الرجل من المرأة .

ولا غرو فاشعار عارف جياذ وغناوة يداعب القلوب ،
وافتخار الدولة بارعة الحسن جذابة الفتنة . ومالبت الاعجاب
ان اصبح غراماً ، فاحبت افتخار الدولة نديمها وشاعرها ؛ إلا
أنها اخفت ذلك عنه وعن زوجها الذى كان يداوم على حضور
مجلسهما ، كما خفق قلب الشاعر لما خفت اناسرى في هزات

صوته وهو يغنى ، خصوصا إذا شرب واخذت منه حيا
الكأس ، فانطلق على سجيته وكاديوح بالسرالمكنون .

وكان من محض الصدف ان فارق نظام السلطان ذات ليلة
مجلس العاشقين وخرج لبعض شأنه ؛ فوجدا خلوة يتناجيان
فيها ويتشاكيان ، غير ان الزوج لم يتلبث طويلا ودخل فجأة عليهما
فرأى منهما ما لم يدر له من قبل في خلد ، فاغضى على القذى
وأسرهما في نفسه ، ولم يبد ما لم يكن بد من أن يديه . وخشيت
الأميرة افتضاح أمرها وذهابه عنها في الناس ، فأمرت الشاعر
فانقطع عن المجيء . وضائق يده وأجهدته الفاقة ، ولم يمد إليه نظام
الدولة يد المعونة وهو الم غضب المحقق ، غير أن افتخار لم تصبر
على كبت عاطفتها فتوجعت له ورقت ، وطلبت إلى زوجها أن
يدعوه إلى القصر لتصله بما يستعين به على أمره ، فذكر الزوج
رؤيته له وهو يعانقها فقال (لا حاجة بعارف إلى صلة منك
اليوم ، انه ينال جزيل الصلات من ثغور الملاح)

وقد باح عارف القزويني بيتين من الشعر في محبوبته وهما
(أنت افتخار لكل الآفاق يا من تيمنى هواك ، أنت تلك الشمعة
التي تسطع في مجلس العشاق)

حذاء الأبناء

في الشعر الفارسي والبيشركي

النفس الانسانية لا تخلو من شعور إما بالحزن أو الفرح
في درجة من درجاتهما ونوع من أنواعهما . والشعر لغة القلب
وتفسير وجداني للحياة ، فانعكست على صفحاته صور منها
الفرح ومنها الحزين ، والبين المشاهد أن الحزن غالب على الشعر ،
ومرد ذلك إلى أنه غالب على الانسان الذي لا تنقضي رغائبه
ولا تقنع آماله ، ويحزنه الا يحقق المراد أو يخيب في المسعى .
كما يأسى ويألم للفراق اطلاقا ، كفراق الدار والوطن ، وفراق
الحبيب ، وذلك الفراق المحتوم الذي لا يؤوب منه الغياب ،
وهو فراق الموت . وأن رنة الأسي لتقع في النفس موقعا ،
ولها هزة مستلحة مستعذبة . وسماع الشكوى مما يطيب

ويطرب ، وذلك أن سامعها يتخيلها شكواه ، وأن فيها بعض
العزاء ، وتنفيسا عن الكرب ، ومن ثم كان شعر الرثاء من أشد
فنون الشعر علوقا بالفؤاد وأكثرها أثارة للاعجاب . وقد عرف
الاقدمون لشعر الرثاء قدره ومنزلته ، فاعتبروه أصدق الشعر
عاطفة وأجمله في القلب أثرا ، وعرضوا له بالتحريف فقال قائلهم
وهو ابن رشيق بأنه مدح الميت ، وليس بين الرثاء والمدح فرق
إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان ،
أو عدنا به كيت وكيت ، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع
بين الحسرة مخلوطا بالتلف والأسف والاستعظام ان كان الميت
ملكا أو رئيسا كبيرا .

وإذا صح هذا التعريف في جملة بعض الشيء فإنه يصدق
على الرثاء المصطنع الذي لا يصدر فيه الشاعر عن طبع وعاطفة ،
كما في رثائه لعظيم لا تربطه به آصرة من معرفة أو محبة ،
ويوضح هذا ما قاله ابن رشيق من أن أشد الرثاء صعوبة على
الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة لضيق الكلام فيهما وقلّة الصفات ،
وهذا رأى لا ننيل إليه ونرى أن رثاء المرأة أعا أو زوجا من
أجل الرثاء وأيسره ما دام الشاعر موهوبا صادقا في لوعته ،

ورثاء الطفل ابنا أو ابنة رثاء يمكن أن يبلغ الذروة من روعة المعنى . ونذهب إلى أكثر من هذا ، فنضفي على رثاء الأبناء من صفات الجمال ما لا نضيفه على رثاء غيرهم ، ونضرب الأمثال على ذلك من شعر الفرس والترك .

وأول من رثى ولده من شعراء الفرس فيما نعلم هو أبو القاسم الفردوسي شاعر إيران في القرن الرابع الهجري وناظم الكتاب المعروف بالشاهنامه في تاريخ ملوك الفرس ، وأبرز علم من أعلام الأدب الفارسي . وقد بكى وديعته في الثرى وهو شيخ يخطو إلى القبر ويثدا ، بعد أن ستم تطاول الأيام عليه ، وحمل من أرزائها ما أنقض ظهره فلم يبق فيه أمام هول نكبته ، إلا ما بقي من كومة الحشيم أمام عصفه النكباء ، وحزن حزنا لا يتسع لعزاء ولا لصبر جميل ، فلم يكن في حسبانها يوم طرق الموت بابها أن يدعه وهو الذي كفاه ما عاش ، ويطلب ولده الذي لم يعيش ما كفاه ، نخالط قلبه شعور مبهم غريب بتخون العهد وعدم الوفاء ، وبأنه فظ قاس يمد في عمره من عمر ولد كان عليه أن يفديه ويحميه ، فبكاه متوجعا بشعر معناه على قدر لفظه ، وما استقطر من السحاب دموعا ، ولا طلب الاسعاد

إلى نجوم ليل ساهر وإنما قال : « كان اليوم والله يوم حمى
يا ولدى المسكين ، كيف هجرتى ورحلت عني ، فامتنع قرارى
ونالت الأوجاع منى . لقد كنت من يعيتنى على زمانى ويأخذ
فى الملمات يدي ، فما الذى عن رفيقك الشيخ أبعدك ، وإلى تركه
الجاك ! أوجدت لك أترابا هناك فمضيت إليهم ! قضى فى السابعة
والثلاثين وقد رأى أن متاع الدنيا غرور ، مات فأضواني
الأسى وبكى القلب والعين عليه دما ، هو اليوم فى عليين وسيجعل
لى مكانا فى جواره . »

ثم يذكر شقاءه الطويل بعده فى عالم موحش حزين ،
ويصور حاله متحدثاً عن شيخوخته وشيبة ولده المفتقد فيقول :
« تبادى الزمن ودارت الأيام ، وما عاد إلى أحد من رفقة العهد
القديم ، لقد عدته وله سبعة بعد ثلاثين ، وخلفنى ولى خمسة
بعد الستين ؛ وذهب الفتى وحده ، وما سأل عن حال الشيخ بعده ،
وعجل بالرحيل ، أما أنا فبقيت البقاء الطويل ، لأرى مقدور
القضاء فى ، وأنا لما سوف يقسم لى . »

وللفردوسى قصة فى الشاهنامة يقال لها قصة رستم وسهراب
وهى شيقة ممتعة ، وأعجب ما فيها هو اختلاط الأمر على رستم

الأب وسهراب الابن حتى ينسى كل منهما صاحبه ولا يعرف له
هيئة ولا صورة يميزه بها ، ويجتمعان في ساحة الوغى ، ويقف
كل منهما من الآخر موقف العدو المحارب ، ويتناوشان القتال
فيقتل الوالد ولده ثم تنكشف له الحقيقة ويعلم هول ما فعل ،
فيأخذه مر الندم ، ويتألم أشد الألم . والشاعر يذكر هذه القصة
ويصف أم سهراب وقد تلقت النبأ فيرثى ولدها على لسانها .
وهذا الرثاء في سياق قصة سريعة الحركة كثيرتها فيقول :
« وانتهى إلى الأم أن سهراب مقتول بسيف أبيه ، فجزعت
وناحت ، وشقت ثوبها من فرط أساها على فتاها ، وقالت
يا روح الأم أين مثواك وأنت معفر في التراب ملطخ بالدماء
لقد طواك الثرى في أرض غريبة ، فمت ميتة الأسير المجهد
المحزون ، فن بعدك أضمر عليه ذراعى ، ومن يعيننى على تباريحى
وبرحائى ، ومن لى بمن أبته الشكوى ، وأشرح له البلوى . ومن
ذا مكانك أدعوه ! يا أسفى على عينيك فى القبر بعد كونهما فى
القصر . مضيت وتركتنى فى ذل الأسير ووقد الأسى ، فهلا
ضحبت أمك فى سفرك ، فكنت أنسى وريحاتى فى دنياى
وأخرتى ! »

ورثاء الفردوسي هنا رثاء تمثيلي لا يسمع المقام بسواه ،
وليس لنا أن نطلب أحسن من هذا لأن الرجل لا يقول حقاً
وصدقاً وإنما يقول متخيلاً ، والبون بعيد بين الطبع والصنعة .

وفي القرن السابع الهجري ظهر في إيران شاعر كبير مستفيض
الشهرة ، وهو الشيخ سعدى الشيرازي الذي يتميز شعره بنزعة
أخلاقية لا ينفك عنها ، وطابع تعليمي ظاهر الواضح ، وقد نظم
شيئاً كثيراً ، ومن تراثه الأدبي كتاب منظوم يسمى البستان ،
وهو ينتظم قصصاً ترمز إلى معان وتعالج موضوعات مختلفة
كالعدل والإحسان والتواضع وما يجري هذا المجرى . والذي
يعنينا هنا هو حديثه فيه عن نفسه ، فقد ذكر أنه طوف في البلاد
شرقا وغربا ، ومات له ولد أثناء مقامه بصنعاء اليمن . وقد رثاه
بأبيات يتجلى فيها منهج تفكيره ، وتظهر ميله المستديم إلى ضرب
الأمثال والتفسير بالتصوير ، فكان رثاؤه هادئا فاترا ،
لا زفرات فيه ولا عبرات ، فالأولى أن نعتبره عاقلا مفكرا لا
حزينا شاعرا . وكل حظ أبياته من الشاعرية بضعة تشبيهات
متوسطة الجودة ، فهو الذي يقول : « لقد احتسبت في صنعاء
ولدا لي وكان غصن الأهاب بض الشباب ، فما أعجزني عن

وصف ما أجد من حزني . أن شجرات السرو لا ترفع في
بستان الدنيا هيف القدود إلا اقتلعتها للموت هوج العواصف ،
والأرض تنبت ورودا وليس ذاك بعجب مادامت تنطوى على
أجساد في نضرة الورود . ألا فاعلم ياسعدى بأن الثمار ملك
لغارس الأشجار ؛ ولا يحصد إلا من زرع . ،

وهذا الكلام لا يصلح بكاء لأب يرثى ولده ، بقدر ما يصلح
عزاء ترقأ له الدموع الجوارى ، ويسقط الانداء على الكبد
الحرى .

غير أن لسعدى بيتين مشهورين في رثاء ولده وهما (هوذا
الربيع قد حل ، فانشقت الأرض عن وردها ونسرينها ، ويلاه
ما الذى أبقاك تحتها أنا من يزورك فى ثراك ، وعليك تجرى
أدمعى ، فكان سحابة الربيع تبكى ، لتظهر لى من هذا القبر
كذاك الزهر)

وما يلوح على هذا الشعر بادىء النظر ، انه كلام متناظم
متسق ضئيل المعنى ، وليس كذلك لأنه تصوير جميل لنفسية
الحزين الذى يطرح على الكائنات من أساه ، ولا تذكره
مباهج الحياة ومفاتها إلا بلوعة الحرمان والفقدان .

ومن شعراء الترك من يدعى عاكف باشا الذى كان وزيرا
على عهد السلطان محمود الثانى ، وكان بينه وبين زملائه الوزراء
من الخلاف والخصام ماجر عليه شرورا ، حتى نفى إلى مدينة
بروسه ، ثم حج بيت الله ومات فى عودته بالاسكندرية عام
١٢٦١ هجرية . وهو أديب مبرز وشاعر مقل مجيد ، له فضل
التجديد فى النثر والشعر ؛ فأصبح بذلك من عباقرة الأدب التركى
الحديث . ومن شعره قصيدة جميلة رثى بها حفيده ، وهى تعتبر
فاتحة عصر جديد من عصور الشعر التركى الذى كان بالأمس
دينيا صوفيا يقلد شعر الفرس ، فأصبح اليوم إنسانيا يساير
الحياة فى تطورها وينهج نهج العاطفين من الشعراء الأوربيين ،
والمرثية تفيض لوعة وحسرة على الدفينة الصغيرة ، وإن رقها
لتذكر برقة موضوعها ، ومعانيها تصور الجد الهرم وهو يسقى
زهرة الذابلة بالدمع المتون . يقول عاكف باشا : « بنيتى
الجميلة . . . لانسيان لك على مر الأيام والشهور والأعوام ،
لقد أذقتنى المر من فرقتك ، وإن لك لثغرات حلوة وكلبات عذبة
ما زالت تتردد فى قلبى ، لاسبيل اليوم إلى قبلة من غضارة جسمك !
وبلاه ماذا صنع القبر بحسبك ؟ وإذا ذكرت ثغرك الجميل بوردة

البستان ، وددت أن تحترق الورود من حر أنفاسي . .

ثم يتمثلها تحت الثرى وقد غيرها البلى ، فيرسم لنا في الخيال
صوراً حزينة يزيد ما حزنا على حزن أنها صادقة لا تتجاوز
الحقيقة في شيء ، فهو القائل : ما الذي حل بجسمك الغض البض
فغيره ، وهل سالت على الجبين عيناك السوداء وان ، وتفرق في
التراب شعرك الجميل الذي طالما نعمت به ضماً وشماً ؟ .

وان استفهامه المكرر ليدل دلالة واضحة على فرط الجزع ،
والنفار من هول الخطب ، لأنه في نفسه لا يريد الاقرار بالواقع
ويجهد ان يجعله محتملاً للصدق والكذب ، فيمضي في قوله :
« هل عرف الفلك كيف يصب نغمته على ، وهل اذبل الردى
ورد خديك ... واها ليد في لين القطن وبياضه كنت الثما ، هل
أصبحت في التراب تراباً ؟ ،

ولدينا شاعر تركي آخر من شعراء المدرسة الحديثة هو
أكرم بك الذي رثى ابنته بيرايه بقصيدة من روائع الشعر
التركي ، وهذه القصيدة قصة في مثل جمالها وروحانيتها ، فقد
ماتت ابنته واودعت الثرى في ركن مقبرة تطل على غدير ،
ومرت الأعوام تلو الأعوام ، وغمر السلوان والنسيان ذكرى

الفتاة ، وغاب أبوها في زحمة الحياة ، فلهى عن نفسه وأنسى يومه
وألمسه ، حتى جاء يوم بعد موتها بخمسين عشرة سنة ، وكان يوما
عجيبا جد فيه جديد يحيا به القديم . فعاد الشاعر ذكر ابنته ،
فرآها وسمعها من وراء أيام طوال ، واستشعر الحنين إليها
والأسف عليها ، ووجد نفسه مسوقا إلى زيارة قبرها ، فأخذ
سمته إلى المقبرة ، وهناك أراد أن يقف على القبر وقفة ليذرى
دمعة الوفاء ، وكان وحيدا ، وشاء أن يستدل على القبر الذي بعد
عهده بزيارته ، فرجع إلى الماضي السحيق ، وذكر أنه كان على
أكمة صغيرة ، فأدار بصره في المقبرة ، فلم ير للأكمة وجودا ،
ولم يقف للقبر على أثر ، ولما أعياه نشدان ما يطلب استيأس
وانكسر ، وجلس في ظل شجرة سرو يبكي حزنا على ابنته ،
وندمما على ضياع أثرها من وجه الدنيا ، ووجد من ضميره لوما
وجيعا ، فللأموات على الأحياء حق زيارتهم وإقامة آثار تدل في
الثرى على مرقدهم . واتفق للريح أن عصفت فاسفت عليه ترابا ،
وحركت من الأشجار أغصانا ، فاحس كأن الكون غاضب عليه ،
وتحركت الشاعرية في قلبه ، فقال قصيدة سماها « تحسر » ، وكان
ذلك في صيف سنة ١٢٩٨ هجرية ، ومن هذه القصيدة قوله :

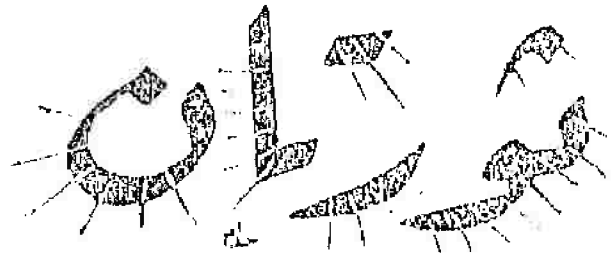
« ويلاه ! ان بيرايه في بطن هذه الأرض ، وان ظلمتها لتنتوى على نورها . لم أقدم إلى هنا منذ خمسة عشر عاما . فوالله ما أدرى أين كان قبرها ، فذكرني أيتها المقبرة بالبكاء والنواح ، وبالله مرحلة أيتها الأشجار والأحجار . هلا اخبرتنى الخبر ! لقد تركت ابنتي في كنفك من غير أثر لها يدل عليها . تكلمي يا بنيتي لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، أين مقر جثمانك الطهور في هذه الأرض ؟ ،

ثم انحنى على نفسه باللائمة ، وادرك تفريطه فيما يقبع التفريط فيه فقال : « ان زيارة قبرك مرة في خمسة عشر عاما سنار وعار ، وان خجلتي لتثني عن تفقد قبرك ، وكان لزاما على أن أجدد بناءه بعد أن هدمه الزمان ، انه أصبح حفنة من تراب فما أجد من يدلني على موضع له ، تكلمي يا بنيتي لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، أين مقر جثمانك الطهور في هذه الأرض . ان روى لترك شجيرة نضيرة كأنها شجيرة ورد دفنت تحت الثلوج ، وقد حجب البياض كل جوارحها ، فاغرورقت عيني وحزنت نظرتي ، وان هذا الجمال الذاهب ليعث في الروح أملا بالوصال . آه يا بيرايه لو لم تكوني هذا الخيال ... تكلمي يا بنيتي

لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، أين مقر جثمانك فى
هذه الأرض ؟ ،

ولا كرم بك مرثية أخرى قالها على لسان صديق له يدعى
مدحت بك ، ماتت له ابنة تسمى « فآخره » ، وأنها لتذكرنا
بقصيدة عاكف باشا فى حفيدته لأن الشبه ظاهر بين القصيدتين
قال أكرم بك « أنت يا فآخره فى النصف بعد الرابعة
من عمرك ، فأنى يجوز لهذه الأرض أن تستحل ضم جسدك ،
خبرينى هل أنت يا فلذة السكب و حدك ، فليس من يؤنسك فى
لحدك ! ؟ ما الذى أسكت بلبلك وكان ناطقا ، وأذبل ورد ثغرك
وكان ناضرا ، أن لذكراك حزا فى فؤادى ، وإذا خطرت بالبال
كلماتك بكت عيني . »

هذا ، وأن هذه الأمثلة التى أوردناها من شعر الفرس
والترك لتوضح وجهة نظرنا وتنهض دليلا على أن الرثاء وأخصه
رثاء الأبناء ، ليس مدحا للموتى وذكرًا لصفاتهم فحسب ، وإنما
هو بكاءهم وندبهم والأسف عليهم ، ووصف شعورنا نحوهم
بعد فرقة الأبد .



احدهما ايرانية والاخرى تركية ، وقد قامتا في وقتين
متقاربين . أو وقت واحد هو بحر الأعوام العشرة الأولى من
القرن العشرين ، وبينهما فروق ووجوه شبه يمكن التمييز بها
بين شعبين ، والوقوف على معنى الحكم في رأى حاكمين ،
والاحاطة علما بروح الثورتين .

ففي عهد القاجاريين وهم آخر من حكم ايران قبل الأسرة
المالكة الحالية ، ساء حكم الملوك كثيراً ، وعسفوا الناس عسفاً
شديداً ، فذب في الدولة ديب الضعف ، ووجد الأجانب من
انجليز وروس فرصة موالية لأشباع مطامعهم ، وتوسيع نفوذهم
وفرض سلطانهم ، فتدخلوا في الخاص من شؤون ايران ،
وظفروا بامتيازات لهم فيها الغنم ، وعلى صاحب البلاد الغرم ،

وجارت الرعية بالشكوى من ظلم راعيها ، وضج الناس من
جبروت الأمراء وزهو الكبراء ، بعد أن أخذوا من العلوم
بطرف فعرفوا ما لهم وما عليهم ، وزادهم كراهية للأوربيين أن
يروهم في القرن التاسع عشر يغتصبون الهند ، ويمتلكون
الجزائر ، ويسيطرون على مصر ، فشعروا بمس الحاجة إلى
الوقوف في وجههم وكسر شوكتهم . وما زاد الأمر شدة
والنفوس حدة أن ناصر الدين شاه منح امتياز الدخان في إيران
لشركة انجليزية فاحتكرت انتاجه وبيعه ، وامتلات من ذلك
خزائنها ، على حين خلت وفاض زراع الإيرانيين وتجارهم ،
فاستاء الناس وحرموا التدخين على أنفسهم ، وقسروا الشاه على
الغاء امتياز الشركة ، فلم يجد عن الأذعان ندحة ، وإن كان ذلك
كلف الدولة تعويضاً كبيراً للشركة . ثم قتل ناصر الدين شاه
فكان مقتله ايذاناً بالثورة ، وابعاداً لأمثاله من الملوك المستبدين .
وحكم بعده مظفر الدين شاه ، وكان مسرفاً متلافاً ، فاقترض
من الروس مالا جزيلاً منحهم حق السيطرة على الجمارك في
الدولة حتى يستوفوا ما لهم على إيران من دين ، فكبر على
الإيرانيين أن يروا غريماً يذل كبارهم ، ويجرح وطنيتهم ،

وتألفت الجماعات والأحزاب ، وارتقى الخطباء المنابر ، فهزوا
القلوب وحرکوا النفوس ، كالسيد محمد الطباطبائي والسيد عبد
الله البهبهاني وغيرهما من العلماء والفضلاء . وقد ارادوا التعبير
عن سخطهم فقرروا الهجرة إلى مكان يسمى الزاوية المقدسة ،
وسموها (الهجرة الصغرى) وهناك لحق بهم جمع غفير ومعهم
آل بيتهم ، وأحب الشاء أن يطيب خاطر المستائين ، فأصدر
بيانا يعد فيه الثائرين باجابة مطالبهم ، وهي عزل حاكم طهران
ورئيس الجمارك البلجيكي ، فعاد المهاجرون واحتفل أهل طهران
بعودتهم أروع احتفال . وقد جاء في خطبة للسيد محمد الطباطبائي
قوله : (نريد العدل ورفع الظالم حتى لا تهرب الرعية وتطلب في
خارج البلاد موئلا فيعم الخراب ، وأخوف ما نخاف هو أن
يفر المظلوم من وجه الظالم فتخوى الديار على عروشها ، وقد
حدث ما لا يجرى أن يحدث ، فان أهل فارس رفعوا عقيرتهم
بالشكوى ، ولما لم يجدوا اذنا واعية ، توجهوا الى القنصلية
الانجليزية ، فإلى أين يذهبون ؟ أنتم لا تعلمون ما يحيق بهم من
حيث الحكام ، لأنهم لا يسدون جوعتهم الا بكسرة من خبز
الشعير والذرة ، فلم يبق منهم أحد ، كما لم يبق في خزانة الشاء

درهم . أما تعلمون أن الزرع قد خاب في العام الماضي ، وكان
لوأما على الزراع أن يؤدوا الخراج ، فما كان من الحاكم إلا أن
أمر ببيع ثلثمائة فتاة من بنات القرويين لقاء ما على آبائهم للدولة !
لازريد إلا النصفة وهل بعد هذا الظلم ظلم ! إن الخراب يضرب
أطنابه في كل البقاع وإن يمضى طويل زمان حتى يلحق أهل البلاد
جميعا بالروس والانجليز . والله إن اتخلى عن هذا الأمر أو
أهلك دونه ، فإن هلكتي ، فلي من سوف يخلفني عليه . ،

واصطدم رجال الشاه برجال الثورة ، فهاج العلماء واحتجوا
وعادوا الى اظهار سخطهم بالهجرة ، فهاجروا الى مدينة قم ،
وسموا هذه الهجرة « الهجرة الكبرى » ، وانطلق جمع من التجار
والطلبة الى السفارة البريطانية بطهران ، فتحصنوا بها وطلبوا
بالدستور والحكم النيابي ، وكان لهم ما طلبوا ، وعقدت أولى
جلسات البرلمان في ١٨ شعبان سنة ١٣٢٤ ، ففرح الناس
واستبشروا ، ورفعوا الأعلام وأقاموا الزينات .

وفي الجزء الأول من ديوان الشاعر التركي محمد عاكف بك
قصيدة عصماء بعنوان شاه العجم ، وفيها وصف رائع لما آلت
اليه حال إيران على عهد الشاه مظفر الدين ، ومنها (لا يفرئك

ما نسمع من أصوات تنادى بك مظفرا ، إنها جميعا أصوات
الخونة . واعلم موقعنا أنها زفرات تصعد لها قلوب المظلومين .
سيأتى ذلك اليوم الذى تلقى بك فيه لعنة الاله من عليائك . لك
قصر منيف من الظلم تحسبه محكما منيعا ، ألافاعلم ان الحصون لن
تكون موثلا لمن عدم الأمان ، وأن ايونك هذا الذى خرب
البلاد سيهوى من سمائه ، وستسويه بالتراب هدماء قدرة القادر
وهيبته ، كيف لا يخرب ذلك الذى جعل من ايران مقبرة ؟
نعم لقد جعلت من ايران مقبرة . ومزقت ثوب الآمال فكان
أكفانا)

ومات مظفر الدين شاه ، خلفه فى الحكم محمد على شاه ، وكان
ظلوما غشوما يرى فى نفسه سيدا للبلاد ، وفى الشعب عبيدا
رهن إشارته ، وعليهم طاعته ، وكان شديد الكراهية للثورة
وأنصار الحرية والدستور والحكم النيابي ، وبلغ من شدة سخطه
على نواب الأمة أنه لم يدعمهم إلى الحضور يوم تويجه ، وأوصى
الحكام فى الأقاليم بالآخذ على يد الثائرين ، وكان إذا جلس فى
مجالس أنسه وأخذت منه الصبياء مأخذها أمر بمدية وخيابة ،
فقطع الخيابة بالمدينة متخيلا بذلك أنه يطيح رموس خصومه ،

فلا يملك ندماءؤه إلا أن يفعلوا مثلما فعل . ولم يلق بالآلا إلى تنفيذ
قوانين الدستور ، وقد أراد أن يقترض من الانجليز والروس ،
فعارض النواب في ذلك ، وأشاروا إلى وجوب الحد من اسرافه ،
فأسر ذلك في نفسه واصطنع الكيد والدس ، فبث بين أنصار
الحرية من رجاله من أفسد بينهم ، كما تعتمد اهمال بعض الأعمال
ليلقى في روع الناس أن عهد الحكم النيابي عهد فساد الأعمال . وبما
أثار الخواطر أن اتفقا تم بين الانجليز والروس عام ١٩٠٧ في
خفية من الشعب على تقسيم ايران أقساما ثلاثة ، فللروس قسم ،
وللانجليز قسم ، وثالث محايد . وأغرى محمد علي شاه بعض
الأرذال والغوغاء بآثاره الشغب فتعدوا على المارة ونهبوا
أموالهم ، وبالغوا في إذلالهم والسخرية بهم فخطفوا عماتهم ،
وكان جزاء الشاه أن القيت عليه قبلة إلا أنها لم تصبه ، فاشتد
غيطه وحقد ، واستنجد بفرقة من جند الروس تحت قيادة
لياخوف ، فحاصرت البرلمان وضربت به المدافع ، فتصدت أركانه
وهوى بنيانه ، وأمر بكثير من الزعماء فقتلوا ، فثار أهل تبريز
وانضم اليهم غيرهم ، والفوا جيشا استولوا به على طهران ، فسلم
القائد الروسي وعسكره ، أما محمد علي شاه فهرب إلى السفارة

الروسية واحتفى بها ، واجتمع البرلمان ليلا فقرر عزله .

هذا في ايران ، أما في تركيا فكان السلطان عبد الحميد الثانى شديد البطش بكل من يناوئه ويرى من رأى غير مايرى ، وقد منى بمرض نفسى عضال جعله يتشامم من كل شيء ويتوقع السوء من كل شيء ، وأهم أثر لذلك القلق هو خوفه من الجديد ، ونظرة إلى المستقبل بعين الريبة خشية شركين في طواياه ، فاذا عقد العزم على عمل وأراد الأقدام ، رأى نفسه مسوقا الى الأحجام ، ووهم أن خطرا داهما يهدده ، فحمد على القديم وأبى التحول عما يألف ، فكره الاصلاح وساء ظنه بالناس جميعا ، ولم يتوقع منهم إلا مستطير الشرور .

وبث العميون فى ارجاء مملكته وأحاط نفسه فى قصره الممنع بمحكم الأبواب ، وجيش من الحجاب ، وضاعت ثقته حتى فى خلصائه واصفيائه وأوجس منهم خيفة ، وعرف الناس ذلك من سلطانهم وطمعوا فى خير يصيدونه بالتجسس له ، فقليل ان نصف سكان استانبول كانوا جواسيس على النصف الآخر . فكمت الأفواه وأحصيت على الناس انفسهم وحركاتهم وسكناتهم وقيدت

حرية الرأي وخشى المتكلم أن يكون حتفه بين فكيه . وأحس
التركي بأنه يعيش حبيسا فى قفص من سيوف ! فالتجول ليلا
محرم محذور ، والصحافة خفيضة الصوت لا تكاد تبين ،
والنفار شديد بين الترك المسلمين وغيرهم من المواطنين ، ووجد
الأجانب سبيلهم إلى الجيش فكان منهم الضباط وكبار القواد ،
واستأثروا دون الأتراك برفيع المناصب ورضخم الرواتب .

وطالت الحال على الترك فملوها واشتد بهم الاستبداد
فكرهوه ، ولاغرو فمنهم من هذبته ثقافة الغرب واستنار بحكمة
الشرق ، وتألقت الجمعيات كجمعية شباب الترك وانخرط فى
سلوكها كثير من رجال الجيش وعولوا على أن يطلقوا الشعب
من قيوده ويطلبوا إلى السلطان حكما دستوريا بعد أن رفض
الدستور الذى وضعه مدحت باشا سنة ١٨٧٥ فذهب ضحيته ،
وقد جهدت الدولة أن تشتت شملهم بالوعد والوعيد والنفي
والتشريد . كما تألفت جمعية الاتحاد والترقى وانضم إليها عديد من
أهل الحول والطول . وكان مبدؤها أن يكون الحكم نيايا وتثال
البلاد دستورها . وظهرت كذلك جمعية يقال لها جمعية الأحرار ،
إلا أن مبادئ هذه الجمعيات بقيت أملا وخيالا ، ولم يحققها

إلا ضابط الباني يقال له نيازي بك ، رفع علم الثورة في مقدونيا ،
وجمع حوله شردمة قليلة من رجال ، وصرح بأنه يطلب الحرية
بحد الحسام ، ويريد من الإصلاح ما يشمل مرافق الدولة ، وكان
ذلك منه في اليوم الثالث من يونيه سنة ١٩٠٨ ، وأراد أن يرسل
بياناً بذلك لرؤسائه قواد الجيش ليوصلوه إلى السلطان . وعلم
السلطان بذلك فاستشاط غضبا ، وانفذ إليه القائد شمسى باشا
الذى قتل قبل نزوله إلى حومة القتال . والتف حول نيازي بك
كثير من الألبانيين فاشتد أمره ، وقويت شكيمته ، وأرسلوا إلى
السلطان برقية يطالبون فيها بالعدل والدستور ، وبلغ من جرأة
بعض أعضاء جمعية شباب الترك أن يلصقوا على الجدران في استانبول
منشورات ضمنونها مبادئهم وكانت مكتوبة بالتركية واليونانية
والأرمنية . وبعث السلطان إلى نيازي بك جيشا بقيادة عثمان
باشا غير أن الباشا طعن وجرح قبل أن ينزل الضابط الثائر .
وقد قابل نيازي بك عثمان باشا ، وهذه المواجهة قصة لا تخلو من
طرافة ، فيقال إن جنود نيازي بك صادوا غزالا في بعض
الوديان ، واستأنس الغزال والفرس الجنود فكان لا يرهيبهم ولا
ينفر منهم ، وفكوا عقاله فلم ينطلق هاربا . ولزم الغزال نيازي بك

الذى كان يطعمه كل يوم بيده . وتبعه أينما توجه ، وقد حدث أن تبعه فى اليوم الذى ذهب فيه لمقابلة عثمان باشا ، فصار خلفه وصعد معه السلم حتى دخل الحجرة ، فقال نيازى بك لعثمان باشا مشيرا إلى الغزال : « تأمل ياسيدى ، حتى الحيوانات معنا تؤيدنا وتنضم إلينا » ،

وأصبح لنيازى بك جيش قوى يزيد عدده على توالى الأيام وينشر الثورة فى مقدونيا وكل ما فيها من بلاد وقرى ، وكثرت حوادث اغتيال الضباط ، وأرسلت لجنة الثوار فى مناستير إلى السلطان تقول : « نرجو جلالكم أن تأمروا بصدور «أرادتكم، السنية لرعاياكم وكل من يخضع لكم حتى تحفظوا علينا ولاءنا لكم وتضمنوا طاعتنا ، أما إذا لم يصدر فرمان السلطانى بفتح البرلمان إلى يوم الأحد فمن الواضح أن حوادث متحدث ضد مشيترك ، فالوظائف المدنيين والضباط والحراس والجنود جميعا والأمة جمعاء من غير تفرقة بين دين ولا جنس ، ستتحدا أمام الله . » وتحرك جيش الثوار فى مقدونيا وأخبر أنه سيسير إلى سلانيك ثم استانبول ويعلم الدستور . وحاول السلطان عبثا إرسال جيوش اسحق الثائرين فقد كان جنوده يتمردون ،

ونصحه رئيس وزرائه فريد باشا بالخضوع للأمر الواقع وإعلان الدستور فغضب عليه وعزله وولى سعيد باشا الذى كان من أعداء الدستور ، ومع ذلك فقد جهر أن يقنع مولاه بضرورة منحه . فنوى أن يعزله وطلب فريد باشا وعرض عليه رئاسة الوزارة فاعتذر من قبولها ، وسأله إن كان ذلك خوفا منه على حياته ، غير أن فريد باشا أجاب السلطان قائلا : « كلا لست متخوفا على نفسى وإنما تخوفى عليك وعلى من حولك » ، وبقي سعيد باشا رئيسا للوزارة وكان يرى أن يسوس الثوار بالعنف ، غير أن سياسة العنف لم تكن لتجدى نفعا ، فمنح السلطان شعبه الدستور فى الثالث والعشرين من يولييه سنة ١٩٠٨ .

وهاتان الثورتان متشابهتان فى الباعث الأساسى عليهما وهو كراهة الأجانب والسيخط عليهم والرغبة فى الحد من سلطانهم ، غير أن ملك الفرس كان يكره الاصلاح ظلنا منه بأنه ملك الملوك الذى يحكم بالحق الإلهى المقدس ، فلا مشيئة للشعب أمام مشيئته ، أما سلطان الترك فكان يخاف القيام بمشروع جديد لخوار فى نفسه وتوقعه الشر مما لم يألفه ويمارسه . وكان الإيرانيون

محتجين أكثر منهم ثائرين ، فهم في ثورتهم وهجرتهم كانوا
يظهرون غضبتهم ، فلم يحكموا السيف إلا يوم وجدوا الحاجة إلى
تحكيمه ، أما الترك ففيهم صرامة وشدة بأس ، فكانت ثورتهم
عسكرية ، وهم أهل قتال وجلاد بطبعهم ، فنالوا بالعنف وحد
السيف ما لم ينالوا بالملاينة والالطف .

مصاع العظماء

العظمة لا يناها إلا ذو حظ عظيم ، وهي أنواع متباينة منها
التصدى لحكم الناس وتصريف أمورهم والقوامة عليهم . والعظيم
ذو الحول والسلطان قد يشقى بعظمة بعض الشقاء أو كله ، لأنها
تكلفه الجهد الجهد لاحتفاظه بدوامها عليه ، وتقيد به بما يجب
أن ينطلق منه ، كما تعرضه لحسد الحاسدين وكيد المغرضين فتجبر
عليه مستطير الشرور ، وما من نفس تخلو من أثره وميل
للسيطرة ، وشوق الى التنافس وتنازع البقاء ، فهي تتأذى ابدا
بكل مستأثر بالخير عليها كما يتأذى العطشان برؤية الريان ، وما
من عقل يخلو من نزعة لتقويم العوج ان بالرفق أو العنف ،
فلا يعدم العظيم أعداء له من حوله بقلوبهم أو ألسنتهم أو أيديهم ،
وفي سيوف الحراس وحراب الحجاب أوضح الدلالة على توقع

اليأس واتخاذ الآهبة لدفعه ، وقديما قال بعض الحكماء ان العظيم كراكب الأسد ، يخافه الناس وهو لمركبه منهم أخوف .

وأن هذه الظاهرة لحافز على جريمة القتل المعروف بالسياسي والموسوم بكل صفات البشاعة والظلم والغدر ، وعند التاريخ أخبار طوال نجد فيها من أبناء الملوك من عك الأبوة فقتل أباه ، ومن السلاطين من نسي الأخوة فقتل أخاه ، ومن خلفاء الرسول وآله الأكرمين من لقي الحتف على يد كفار أثيم أظلم قلبه وعميت بصيرته فلم يعرف للنبوّة قداستها ، ولا للخلافة جلالاتها ، كما أن لدينا من سودهم الله على قومهم ، واختصم بالصدارة والرياسة فاوردوا موارد الهلكة في غير جريرة أخذوا بها ولا ذنب حوسبوا عليه ، فلم يعقب ذلك إلا خطيئة لا يغتفرها الغفور الرحيم ، وفسادا في الأرض يجر إلى فساد ، وقد يتسع الخرق على الراقع فيعز منال الإصلاح ، ويمر مديد الزمن وتبقى حزازات النفوس كما هي .

وفي تاريخ الترك مأساة حزينة تحدثنا بلسان صدق عن اغتيال العظماء وما يتلوه من وخيم العاقبة ، وتصور لنا سوء الحال بعد هذا الجرم الذي لن يبرره دين ولا عقل . فلما خلع

السلطان عبد العزيز وتبوا العرش بعده السلطان مراد ، زين
الشیطان لبعض الوزراء أن یقتلوا عبد العزیز ، وكان ذلك عام
١٨٧٧ ، ففكروا فی الأمر ودبروه حتی صح عزمهم علیه ،
وتوخوا أن یخدعوا الناس عن أنفسهم ، ویلقوا فی روعهم أن
عبد العزیز مات منتحرا ، وفی لیلۃ من الیالی تسلمت إلى القصر
النائم اشباح خمسة ، وكانت لثلاثة من الوزراء وهم : عونى باشا
ومدحت باشا وقیصرلى باشا ورجلین من أعوانهم فهب السلطان
من نومه على وقع أقدامهم فی مخدعه ، ورفع صوته منادیا :
یا حسن یا حسن . إلا أن الرجلین كانا أسرع شىء إلى اخماد أنفاسه
واسكات نأتمه ، فقد عصرا عنقه فمات ، وما تأكد عونى باشا
من موته حتى عمد إلى مقص كان على منضدة بجانب الفراش ،
فوخز به أکحل القتل وشقه ، وسکن مائار من شعره ، وأصلح
ما انکمش من ثوبه ، وشد ما اختلج من اطرافه ، ثم ألقي علیه
نظرة شديدة ، وأطلق ضحكة شامتة كضحكة البوم على طلل
خرب .

وتعلق الجناة بأذيال الفرار ، وانهى الوزراء الخبر إلى
السلطان مراد فوقف منهم على جليلة الأمر ، وجزع أشد الجزع

مراد الحلیم الرحیم الذی لم یدیت السوء یوما لعمه عبد العزیز ، ولم یکن له فی الأمر رأى ولا ید ، فقلب علی ذلک کفیه ، وقر فی نفسه أن الناس سيعززون إلیه هذا الجرم ظلما . و بینما هو فی حسرتة وحیرته دخل علیه الضابط الشرکسی حسن بک ، وهو رجل صعب المراس شدید البأس من خلصاء عبد العزیز و اخص بطانته وحراسه ، وكان قد أحاط علما بكل ما حدث لمولاه من أخته مریم وهی من نساء عبد العزیز ، وارتکبت الجريمة بین سمعها وبصرها . ودخل الضابط علی السلطان مراد مندفعاً ، حتی ان السلطان قال له فی ذلک واستنکره منه ، فرد علیه الشرکسی بما لا یرد به مثله علی السلطان وقال له : « أنا لا أقصدک بسوء یا مولای ، أن عونى ورفاقه ؟ أنت علیم بأنهم قتلوا عمک ، لقد شوهوا وهم یدخلون قصره مع اثنين من رجالهم وبعد ساعتین من دخولهم ، شاع الخبر بأن عبد العزیز مات منتحراً ، اعبد العزیز من ینتحرر کلا انها جريمة دنیئة ، لقد قتله عونى واصحابه . »

وظهر القلق والفرع فی وجه مراد فسأل الضابط الجریء قائلاً : « وماذا تريد بعونى ؟ » فاجاب حسن بک قائلاً : « أريد

لأبعث به إلى الجحيم . ، ورأى السلطان أنشر يلتمع في عيني
حسن فأحب أن يهديه من روعه بقوله : «واكن على رسلك ،
وما سمع الشر كسى ذلك من مراد حتى انطلق يقول : «أفى نيتك
أن تتأرب به . الست السلطان ، أتصبر على هذا العار ، أتخضع
خنوع العبيد أمام وزرائك ، ليهزأ الناس بسلطنتك ؟ لا تخضع
نفسك ، ولا يدورن بخلدك أن الجبن ينجيك من خطر داهم
يتهددك ، ليس دورك ببعيد ، وسيقتلونك كما قتلوا عبد العزيز
من قبل ، هيا انتفض ، ومر بشنقهم توا ، لم تسكتف هذه
الكلاب بخلاءه ، بل قتلتها بأيديها ، وهو من غمرها بافضاله
وأغدق عليها من نعمه ، والله لو أن لى خمسين روحا لبذلها
رضا وطواعية فى سبيل قتلهم واستئصال شأفتهم . لو رأيتة وقد
امتدت ذراعه فى مكانه يطلب الأنفاس عبثا ، واسود وجهه ،
وثار شعر رأسه ولحيته ، ولو رأيت عقيلته ووالدته وهما
تبكيان على جثمانه ، ما ترددت برهة فى التأرب به . ،

وخرج الضابط من حضرة السلطان غير مستأذن بعد أن
أسمعه كلاما لم يسمعه من قبل ، وانطلق إلى ثكناته وهناك
اطلع رفاقه على ذات نفسه ولم يطو عنهم سرا ، وسرعان

ماسرى خبرد إلى عونى باشا وزير الحربية فعرف أنه متمرّد ،
وأمر بسجنه مدة ، ولما انتهت مدته أمر الوزير باستدعائه ،
فلما مثل الضابط بين يديه تظاهر بإظهار الندم على ما كان من
قوله ، والتمس العفو عما فرط منه ، وأغلظ الوزير فى القول
للضابط المتمرّد ، وأمهله يومين ىر حل بعدهما إلى بغداد ، وتوعده
بالشر أن تلبث أكثر من هذين اليومين فحياه الضابط وانصرف .
وامتطى جواده وقصد وزارة الحربية ، وهناك أخبر بأن
عونى مدعو للعشاء والسمر فى قصر مدحت باشا . فعاد أدراجه
وانتظر حتى وقب الليل فخرج على إحدى الخانات ، واحتسى
من الخمر ست كؤوس ، وحن موعد الوليمة فأخذ سمته إلى
قصر مدحت باشا ، ودخل بعد أن أخبر الحراس بأنه على
موعد من وزير الحربية للتحدث إليه فى أمر هام قبل سفره
إلى بغداد فى الغد . ثم دخل بهو القصر ولما منعه الحاجب سلم
إليه أوراقا كانت معه لتقديمها إلى عونى باشا حتى يسمح له بالمقابلة
وما سار الحاجب بالأوراق حتى تبعه حسن من حيث لا يشعر
ثم دخل على عونى فى غرفة جمعت بينه وبين مدحت وقيصرلى
وغيرهما من صفوة القوم .

وما أن شاهد حسن بك من جاء لرؤيته حتى أمره بعدم
الحركة ثم أخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة أصابته في صدره ،
فجرح جرحا غير مميت والقي نفسه على الجاني ، إلا أن رصاصة
أخرى جدلته وأفقدته الحركة . واهتز القصر هرجا ومرجا ،
واندفع الوزراء إلى الغرفة المجاورة ماعدا رشيد باشا وقيصرلى باشا .
أما مدحت باشا فخرى إلى الحرم ليتسلح ، وعاد حسن بك فأطلق
طلقتين على رشيد باشا ، غير أن قيصرلى باشا القى بنفسه عليه
وأمسك بذراعه فمظلمها عن حركتها ، فاستل الشركى خنجره
وهوى به على عنقه وقطع أذنه .

وحاول أحد رجال مدحت أن يعترض القاتل فكان جزاؤه
رصاصه صرعه . وكان عوفى مشخنا بجراحه إلا أنه تحامل على
نفسه واتجه مترنحا نحو الباب ، فالتفت إليه حسن بك وبقر بطنه
وكشط وجهه بخنجره ، وكان يقول وهو يقتله : « أيها الكلب !
مت مية الكلب ، إلى الجحيم ، ولتسعد روحك يا عبد العزيز . »
ولم يلق القاتل سمعا إلى صوت رقيق يقول بأرق نبرة من وراء
باب موصد : « دعه يا ولدى ، عفا الله عنك . »

ولما تأكد من موت عوفى هوى على جثته رشيد فكاد يفصل

رأسها عن الجسد . ثم أطلق النار على باب محكم الاغلاق تحصن
خلفه بقية الحاضرين ، ووصل ياور عوفى وسل سيفه متجها إلى
حسن بك إلا أنه أجعل عما كان ينويه برصاصة أردته قتيلا .
وكان يقتل كل جندي يقترب منه بمسدسين في يديه ، ولما فرغت
ذخيرته بهج الجنود بطنه بأسننتهم والح عليه النزف فضعف ،
وحملوه إلى الحديقة ثم إلى المستشفى ، وهناك لم يقبل من الأطباء
أن يضمّدوا جراحه وقال : « لا بأس على ، لقد تأرت عبد
العزیز . واني عليم بما ينتظرنى من مصير . » ومات فى ليلته ،
وفى الصباح الباكر علقت جثته فى شجرة بحديقة وزارة الحربية
وقد تأثر السلطان مراد كثيرا بما حدث فسر ليله ووجع
نهاره ، وساءت صحته واختلط عقله حتى عزل من حكمه على
أنه مخبول . أما المتآمر الثالث على قتل عبد العزيز وهو مدحت
باشا فقد قتل فيما بعد بإيعاز من السلطان عبد الحميد ، ومن قتل
يقتل ولو بعد حين .

وإذا ما انتقلنا إلى إيران فى أوائل القرن العشرين ، وجدنا
مثل هذا الجرم ، وهو وإن كان أقل وأهون شأنًا ، إلا أنه يشبه
ما حدث عند الترك فى سوء المغبة .

فقد كان لإقليم فارس بجنوب إيران حاكم يدعى قوام الملك ،
ويلوح أنه كان يأخذ الناس بالعنف ويركهم بالعسف حتى
جأروا منه بالشكوى وأبلغوا شكواهم نواب الدولة بطهران ،
فتوفر النواب على دراستها وترديد النظر فيها ، واستدعوا الحاكم
ليحاسبوه ويستجوبوه ، فبسط لهم الأمر على حقيقته ، وتوصل
إلى إقناعهم ببراءة ساحته من كل ما نسب إليه ، كما قال ابن
أعداءه يتمنون له العثار ، ويشيعون حوله الأراجيف ، ليشفوا
غیظهم منه ، وهم قوم جامدون على القديم ، ثابتون على التقاليد
البالية ، وضد كل مصلح ، وإلب على كل داع إلى الدستور
والحرية ، ولما أتم قوام الملك ما استدعى من أجله إلى طهران
عاد إلى شیراز ، غير أن أعداءه لم يكفوا عنه أذاهم ، فشددوا
النكير عليه ، واحتدم النزاع والخصام بينه وبينهم ، بيد أنه
أفلح بعد حين في التفاهم مع أكثرهم ، فسل سخائمهم وانتزع
الفساد من قلوبهم ، وجمعهم وعاهدهم على أن يكون عند حسن
ظنهم ، ويطرح الماضي ليستقبل عهدا يسود فيه الصفاء والوثام ،
ولكن كان بينهم من لم يخلص نيته ويظهر نفسه من حقدياً كلها .
واتفق يوماً أن جلس في الديوان مع جمع من رفاقه انتظاراً

لمقدم الوالى ، وكان اليوم شديد الحر ، فضايق المجتمعون بالبقاء
فى الغرف وجلسوا فى الحديقة طلبا لنسمة يتسمونها بعد أن كاد
القيظ يزهد أنفاسهم ، وأخذوا باطراف الأحاديث بينهم وهم
يرشفون المرطبات وينفثون من الدخان سعائب ، فما راعهم
الافتى يقتحم عليهم مجلسهم وهو يجعل يده فى جيبه ، بعد أن
سمح له الحجاب بالدخول ظنا منهم أنه من اتباع الوالى ،
واخرج الفتى مسدسه وأطلق منه أربع رصاصات على صدر
قوام الملك ، ورصاصة على جبهته ، فخر القاتل والقتيل متشطحين
فى السماء ، ولما ثابت الى الحاضرين نفوسهم ، وتلصقوا جيوب
القاتل وجدوا ورقة كتب فيها « نعمت الله قاتل قوام الملك
الشيرازى » .

وكان لمقتل قوام الملك رنة تجاوبت أصداؤها فى مدينة شيراز ،
وتحركت ثورة الغضب ونشوة الانتقام فى نفوس أبناء القتل
واتباعه ، فكبسوا بيوت أعدائهم ، وحملوا عليهم بالسلاح ،
وكانت مقتلة عظيمة نشرت الفرع فى أرجاء المدينة ، وقامت
فتنة شعواء لم يشهد الناس مثلها ، ولما يروى أن المتخاصمين
انتهكوا حرمة الموت فى مجلس عزاء قوام الملك ، فانتشب بينهم

القتال ولم يملكوا نفوسهم فيكبحوا جماحها ويكسروا شرتها
ساعة من نهار ، في مجلس حزين ليس فيه الا من ملا الخشوع
قلبه ، وتفكر في الموت فهان عليه شأن هذه الدنيا ، ووجد
الميل الى الزهد فيها والانصراف عن زخرفها ، فما وسعه الا أن
يردد قول من قال : ان العمر أقصر من أن يتسع للعداوة
والخصام .



يذهب من يشغلون أنفسهم بمسائل الحب ومشكلاته ،
ويصدرون في أحكامهم عن علم النفس الذي يرد النتائج إلى
مقدماتها ويربط المسببات بأسبابها ، إلى أنه ليس للحب وجود
خارجي بقدر ماله من وجود داخلي ، بمعنى أنه يستمد نشأته
من خيال بطيل العاشق في النفس ترديد ، وتفكير يديره في
العقل تكرارا . فلا ريب أن للغريزة أحكامها ، لأنها تهيم
القلوب الشابة للحب ضمانا لبقاء الجنس وانتظام حياة البشر ،
حتى إذا ما تألفت الأسرة واستمرت على مر الأيام ، تغير
هذا الحب كما وكيفا ، وأصبح بعيداً بعض البعد أو كله عن

ذلك الحب الذى يتغناه الشعراء على نغمات الأنين ، و يروى
أشباب زهرته الشائكة بالدمع الهتون ، فاللوعة والحرقه
والشوق، الظمآن ، والوجد والحيرة والليل السهران ، ان هى
فى واقع إلا أثر التفكير العنيف ؛ والاسترسال فى الأوهام ،
والاغراق فى أضغاث الأحلام ، حتى يصبح ذلك عادة عقلية
لا ينفك العشاق عنها ، ولا يملكون انطلاقاً من أسرها ، فتختلط
عقولهم وتضطرب نفوسهم ، ولا يبقى لديهم من القدرة وصحة
الرأى ما يميزون به حقيقة من خيال . ويمكن القول بأن الغرام
وليد هذا الخيال الهائم الذى لا يستكين ولا يستقر ، ولا يعرف
للآفاق حداً من الحدود ، لأن العاشق يضيق على صاحبه من
الصفات ما لها وما ليس لها ، ويرسم حولها من الهالات فى بعد
وقرب ما يجعلها من بنات الحور ، فليس بدعاً أن تصادف من
يشاهد الحسن فى غير ذات حسن ، فالخيال السابق أو اللاحق
يغير الحقيقة الراهنة فيجعلها كما يراها أن تكون ، وينسى حتى
الدمامة إن وجدت ، ويتصورها تلك الملاحه الفاتنة الأخاذة
التي طالما تمثلها وحلم بها .

ونخلص من كل هذا إلى حقيقة لا مرأى فيها ، وهى أن الخيال

أهم عنصر في العشق يكسبه هذه الصفات التي تجعل منه هما
يلازم القلوب ، وداء ويلا يعصف بالنفوس ، فالمعشوق لا يظلم
عاشقه كما يقولون ، وإنما العاشق هو الذي يظلم نفسه ، ويجر
على قلبه الضعيف هذا العذاب الممض بأوهامه وأحلامه التي
يعجز عن دفعها ، ولا يملك زمامها . ولدينا من تاريخ الفرس
ما ينهض دليلا على ما نقول ، ويبين لنا سلطان الأوهام والأحلام
على ملك من ملوك إيران هو فتحعلي شاه المتوفى سنة
١٢٥٠ هجرية .

ولهذا الملك شهرة مستفيضة بأنه كان موكلا بالنساء يحشدهن
في حريمه حشدا ، لولوعه بهن وتهالكه عليهن ، حتى قيل انه مات
هن ألف امرأة بين زوجة وجارية وحظية ، وبعقب منهن
مائتين وستين بين أبناء وبنات . وله قصة مستطرفة مع من تدعى
طوطي شاه ، وهي فتاة رآها أول مارآها في مدينة اصفهان ،
حيث كان يستجم ويستروح ، قبل أن ينفذ جيشه الى الجنوب
للضرب على أيدي أقوام ثاروا وشقوا العصا . وتفصيل ذلك
أنه كان مطلا ذات يوم من نافذة تشرف على قصر حاكم اصفهان
فأخذت عينه في فناء الحريم فتاة لها حسن الزهرة المطلولة .

ولم يتأمل محاسنها حق التأمل لبعدها عن مرمى بصره ، واسراعها
الخطو لبعض شأنها . وما غابت عن ناظره حتى تسامل من
تكون هذه الحسنة : وشغل قلبه بذلك الطيف الجميل الذى
ما أقبل حتى أدبر ، فاعمل الفكر والخيال ، وانتزع لها من كل
صفات الحسن ما خلقها خلقا جديدا بديعا ، فلم يدع للنسيم رقة
ولا للربيع نضرة ولا لطلعة الصبح بهجة ، إلا خصها من كل
ذلك بأوفى نصيب ، فاستوت لها فى نفسه صورة يكبو قلم البليغ
دون وصفها ، وظمى فؤاده إليها ، واستشعر الهيام بها ، وأمر
بالوقوف على خبرها ، فقبل له أنها من بنات الأمراء وأسرتها
هى المعروفة بالأسرة الزندية ، وإن أهلها على أنهم الالهية
لتقديمها إلى أعتابه الملكية . ولم يكن فتحلى شاه راضيا عن
أمراء الأسرة الزندية ، فرغب عن الفتاة وكره أن يضمها إلى
حريمه ، لا لشيء سوى سخطه على آبائها وذوى قرباها . غير
أنه كان لها محبا ، فاراد أن يكف قلبه عنها ، وجاهد نفسه جهادا
عظيما من غير طائل ، ولما عزه الامر وأعيتة الحيلة ، لم يجد له
خلاصا ومخرجا إلا فى البعد عنها ، فعول على الرحيل عن
اصفهان بلد الحبيب ، والعودة إلى عاصمة ملكه طهران ؛ أملا

في النسيان والسلوان وشفاء نفسه مما تجد ، إلا أن الروح الظمأى
لم تكن رهينة بالجسد المفارق ، وفي فراق الاشباح لقاء الارواح ،
فاشتدت بالعاشق لوعته ، وازدادت فيها رغبته من حيث ظن
أنه سيسلو عنها ، ورق لها قلبه فتحركت شاعريته وقال هذا
البيت : دمن تكون هذه الحورية العيناء التي قرت بها عين
الملك ، فكأنما التقى سليمان ببلقيس ،

ولم يطق الصبر على فراقها ، ولا نال ما كان يرقبه من
هجرها ، فما وسعه إلا الاقرار بأن سلطان الهوى أعز من
سلطانه ، وأنه من هؤلاء القوم الذين تصرعهم الأعين النجل
على عظيم صولته وشديده جبروته ، فعجز وانكسر ، وبعث
إلى أصفهان بمن يأتيه بخالصة اللب وآسرة القلب ، وما عادت
إليه من فراقها الطويل بعد الضنى والسهاد حتى أمر توأ ، فكانت
زوجته وسماها طوطى شاه . .

وقد أعزها غاية الإعزاز وأكرمها إيما الكرام . فكان
يجيب ، سؤلها وينزل على رغبته ، ويطيب له إن أمرت أن يطيع
وإن استعلت أن يخضع ، وقد ذهب عنها هذا في الناس فكان
أصحاب الحاجات يقصدونها من أرجاء البلاد ويسألونها

الشفاعة عند فتح علي شاه . أما أصحاب الجاه والحل والعقد ، فكم كانوا يقدمون إليها نفيس الهدايا إن نجحت في مسعاها ، وأنالهم من زوجها الملك طلبتهم ، حتى قيل إنها كانت تدير سياسة البلاد من طرف خفي وتهمز ، على كل شيء علم الشاه أو لم يعلم .

ومما يذكر أن فتح علي شاه كان إذا أراد اظهار الرضا عن إحدى نسائه ، أرسل إليها خصلة من شعره بعد أن يحتلق وشفعها ببدره من الذهب ، فحفظتها بين حذوها ونفائسها لتزين بها شعرها ، وتتيه بها على الحاسدات من أترابها ، وكانت طوطى شاه صاحبة الحظ الأوفى من خصل شعر فتح علي شاه .

ولم تطل أيامها ، فمضت في ربيع عمرها ، وطواها أثرى ضاحية من ضواحي طهران ، وشيد لها قبر له من الجمال والجلال شبه ما كان لصاحبه . وغرست حوله روضة وسيدة ذات بهجة عرفت بحديقة طوطى . وقد جزع فتح علي شاه لموتها أشد الجزع فبرح به الأسى ، وكان دائم الذكر لها والحسرة عليها والحنين إلى لياليها المواضي وزمانها الذي ليس يرتجع ، ولم يكفه أن يخلد ذكرها على وجه الزمان بقبر مهيب وروضة بهية ، فقد صور له الوهم أن يحيا من مرتها ، ويوقظها من رقدتها ويردها إلى

الدنيا بعد رحيلها عنها ، ليجدد عهداً مضى وينعم منها بالوصال
بعد فرقة الأبد ، فما كان منه إلا أن أمر ولاية البلاد وحكامها
بالبحث عن تشبهها تمام الشبه ، فامتثلوا الأمر ، وأرسلوا إليه
من النساء عدداً لا يحصى ؛ فأجال الشاه فيهن بصره فاحصاموا زنا
حتى استقر رأيه على أن يصطفى إحداهن ؛ ولم يكن لها من الحسن
ما كان لطوطى شاء ، وإنما كانت عيناها كعينها وشعرها مثل
شعرها . فألحقها بحريمه وجعل لها من المنزلة ما كان لشبهتها
وسماها « طوطى نما » بمعنى من ، تظهر طوطى . فكان كثير النظر
إلى عيناها وشعرها ، ذاكر أهما حبیباً له في ظلمة الثرى ، فيبكي
أحر بكاء حتى في ساعات الوصال وأيام النعيم . ولم يذكر
المؤرخون إن كان عشق طوطى نما أو لم يعشقها ، ومهما يكن من
شيء فإن هذا الصنيع منه يدل دلالة واضحة على أنه كان ينظر
إلى الحقيقة بعين الخيال ويخضع نفسه خداعاً صريحاً سافراً
لينظلي الزور عليها ، مستعيناً بذلك التمثال الحى ، فهو يريد أن
يصدق ما لا سبيل إلى تصديقه ، ويغالط في الحق وهو عليم بأنه
من الواهمين الخاملين ، ويجعل النظر فيما بين يديه ليشاهد ما قد
غاب عنه في أطواء الزمن

وهكذا أمر العشاق ؛ فهم يتجافون عن الحقيقة ؛ ولا
يملكون مقدرة على مجابهتها ، ويولون هاربين إلى آفاق بعيدة
للخيال ؛ ثم يرتدون وقد رأوا أن هذه الآفاق خاوية ، ولا أمل
في بلوغ نهايتها ، بعد أن ظلوا أنفسهم بالآلم الطويل والعذاب
المهين ، وعرفوا أن الحالم بالورود قد يستيقظ فيجد نفسه على
فراش الأشواك .

شاعران هجاءان

الهجاء فن شعري له صفات تنفر منه وتزهد فيه ، وصفات تدعو إلى تدبره وتبعث على التحدث عنه وعن شعرائه ، فهو في درجاته العنيفة هجر تمجده الاسماع ، وخنا تعافه الاذواق ، وقبح تبا له من قبح ، أما في درجاته الخفيفة فتعبر صريح عن نفسية الشاعر ، وتصوير الشعور الكراهية إذا احتدم بين جوانحه ، واظهار لما يعتبر عيبا ومغمزا ، وهذا تبصرة بالمساوىء ، وتعداد لانواعها في قوم الشاعر وزمانه . كما أنه معوان لنا في الاحايين الكثيرة على النفاذ إلى نفوس الشعراء لتعرف البواعث التي دفعتهم إلى ما كان من صنيعهم ، وقلبا نعدم في الهجاء روح المرح والدعابة التي تقرن بهذا الفن فنا آخر هو فن الهزل والاضحاك . وفي أدب الفرس والترک شاعران هجاءان هما عبيد الزاكاىى الفارسى ، ونقى التركى ، ولهما من بعد صيتهما والتبريز فى قنهما

ما يلفتنا إليهما ، ويجعل الدراسة حقاً لها علينا .

فعبيد الزاكانى من أهل القرن الثامن الهجرى ، وقد حصل العلوم وطال باعه فى الآداب حتى أهّله ذلك للتكسب بالتعليم ، فأصبح مؤدباً لكثير من أبناء صفوة القوم ، وكان رجلاً من أهل الجد والورع ، لا يقول الا حقاً ، وليس فيه جانب للهزل والمجاجة ، غير أن حدثاً وقع له ، فاخرجه عن مألوف عادته ، ونحاه به نحو آخر هو ضد ما كان يعهد فيه ويشتهر به ، فقد صنف رسالة فى علم البلاغة سماها علم المعانى والبيان ، وأهداها الى الشاه أنى أسحق ، وأراد أن يقدمها بشخصه ، وطلب اذن المشول بين يديه ، فرده الحجاب قائلاً : أن أحد المضحكين فى الحضرة الملكية ، والشاه بالاسمار . والأضاحيك فى شغل عن كل شيء ، فلا سبيل الى الدخول عليه وساء ذلك عبيد الزاكانى ، فدق كفا بكف ، وأظهر حزناً وعجباً ، وتأسف أن يدخل أهل الهزل والمجون على الملوك ، ويرد العلماء والفضلاء ، وذكر ما لقي من كد وعنت فى التأليف والتصنيف بعد الذى رأى من الاقبال على الهزل ، والانصراف عن الجد ، فأسر ذلك فى نفسه وردد طويلاً ، واحس ذلك اليأس

الممزوج بالغضب ، الذى يدفع صاحبه دفعا إلى الانحراف عن وجهته ، ونبتذ ما كان ينهج من منهج ، فلم يجد خيرا فيما كان يأخذ به نفسه من جد ووقار ، ولا جدوى فى علم يكسد الذهن ويسهر الجفن ، وعول على أن يهزل مع الهازلين مادام ذلك يحببه إلى الناس ، ويقربه من الملوك ، وقال هذه الآيات على البديهة مشيرا إلى ما يعتزمه ، وذاكرا ما حذاه على ذلك :

« تجاف عن طلب العلوم ، ولا تكن مثلى فأنا الأذل عند الأعزة ، وإذا ما اردت قرينة وحظوة عند سادة الزمان ، فاخلع عذارك ، واضرب لهم بالمعازف ، وسلمهم الخافا حتى تريق ماء حياتك ، .

واشتد سخطه على الزمان واهله ، وان هذا السخط الأول باعث على الهجاء وخبث اللسان ، فالمتبرم المتذمر يرى الجميل غير جميل ، ويلتمس تنقيسا لغضبه بصبه على المسىء والبرىء جميعا فلا يسلم منه أحد . وقد عجب لذلك بعض من يعرف للشاعر فضله ويقدر عليه ، وأحزنه أن يبلغ منه اليأس والانشاؤم هذا المبلغ ، فقال له فى ذلك ، ورد عليه عبيد الزا كائن بقوله :

« أيها السيد ، لا تطلب العلم ، وليكن ذلك عزمك الذى لا تتحول عنه

جهد المستطاع ، حتى لا يضيع قوت يومك من بين يديك ، فاذهب
واجعل واهزل ، وعن المطربين نخذ علومهم ، لتنال حقلك من
كل عظيم وغير عظيم .

وكان معهما سيم الحال ، ضيق ذات اليد ، ولم يكن فارغا
من هموم العيش على ميل فيه إلى الاسراف والاتلاف ، فركبه
الدين ، وزاده ذلك هما على هم ، وتسخطا لمقدور القضاء ، فقال
في معرض الشكوى : « الناس يفرحون ويمرحون ، وأنا من
منيت بالديون ، والكل بشأنهم في شغل ، ولا شغل لي إلا بلاء
ديوني ، وفي عنقي فرض الخالق وقرض خلائقه ، فحرت في
اداء القرض والقرض ! أنا كثير النفقة ثقیل الدين ، فهل أدبر
نفقتي أم أفكر في ديوني . أنا إن شكوت من كتاب فشكواي
من سجل ديوني ، وإن خفت أحدا نخوف من شهودي . »

ويقال أن شاعرا يدعى سلمان الساوجي هجاه بشعر غليظ
فرحل عبيد الزا كافي إلى بغداد ، وشامت الصدقة أن تجمع بين
الشاعرين في هذه المدينة فقد رأى عبيد صاحبه في رفقة من أهل
الأدب يتناشدون الأشعار على نهر دجلة ، وقال سلمان شطرا
وطلب إلى الحاضرين أن يحيزوا فأجاز عبيد وهو داخل عليهم

وهم لا يعرفونه ، وسأله سلمان عن بلده فقال قزوين ، وأحب أن
يعرف ان كان لشعره سيرورة وشهرة في هذا البلد فقال عبيد :
« أنا خير وجليس حانات ، وبين المجوس عاشق نشوان ، وقد
تجاذبوني كالزق من كتف إلى كتف ، ونقلوني كالقدح من كف
إلى أخرى . »

فعرفه سلمان الساوجي بشعره ، وسأله الصفيح عما كان من هجائه
له ، وما زال به يسترضيه حتى رضى ، وتصافى معه فسلم من لسانه .
ولعبيد الزا كافي شعر كثير في الهجاء والهزل والمجون ، ولا
يسعنا إلا أن نمسك عن ذكره مكتفين بالإشارة اليه لفحشه الشديد
وحقائقه العارية التي لا تعرف للتهتك حدا ، غير أن هذا الشاعر
كان ناثرا كذلك وقد ألف عدة رسائل يذهب فيها مذهبه في الهجاء
والهزل والتهكم ، ومنها رسالة تعرف بأخلاق الأشراف ولها
قيمة أدبية وتاريخية لأنه إنما كتبها في عصر انحلت فيه أخلاق
أبناء وطنه لمخالطة المفعول والترك لهم ، فأحب أن يميز للناس بين
الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، بأسلوب هزلي لا ذع فيه من
قوارص الكلم ما يؤذى السادة والرؤساء في شرفهم وعرضهم ،
وقد سخر من أعمالهم وهزأ بهم ، وجعل الرسالة في سبعة أبواب

وهي الشجاعة والعفة والعدل والكرم والرحمة والوفاء والتواضع ، وتحدث في كل باب عن الفضيلة في رأى السلف وسمى ذلك المذهب المنسوخ ، والفضيلة في رأى أبناء العصر وقال انها المذهب المختار . وهذا واضح الدلالة على أنه يذكر الناس بصلاح السلف وفساد الخلف .

ومن قوله في باب العدل : د يذهب من تتلمذنا لهم أن العدل شر الصفات ، وأنه يجر أوحم العواقب ، وقد أوردوا على ذلك ساطع البراهين ، فالعقاب أساس الملك والحكم والسيادة ، لأن الناس لا يطيعون إلا من يخافون ، فإذا ما كانوا جميعا على قدم المساواة ، امتنعت الرعية عن إطاعة راعيها ، وعق الأبناء آباءهم وخرج الخدم عن طاعة سادتهم فعمت الفوضى مرافق البلاد كلها .

وهكذا يمضى في تهكمه وينسب إلى الأشياء ما ليس لها من صفات ، فيلبس الحق بالباطل . وله رسالة سماها مائة نصيحة ، وهو فيها يحرف الحقائق فيضع الشر مكان الخير ، ويقول : « إياك والتأهل ببنات الشيوخ أو القضاة أو المرابين ، فانهم لا ينجبن إلا المتسولين أو المرائين أو الكاذبين ، إما إذا لم

تستطع فتزوج على ألا تعقب منهن ! تمتع بحياتك ما استطعت
إلى ذلك سيديلا ، ولا ترجىء إلى الغد متعة اليوم ، واغتنم فرصتك
فلن يرتد إليك ما فات من عمرك . حذار من قول الحق ، حتى
لا يضيق الناس بصحبتك ولا يغضبوا منك من غير وجه .
لا تصدق ما يقول أهل العلم والتقوى حتى لا تدخل النار !
لا تكن دارك بالقرب من منارة حتى لا يقلقك صوت المؤذن !
ولا تسخر من الهجائين والماجنين . ، ومن الواضح أنه لا يريد
من هذا الكلام إلا ضده ، وقد قال جداً في صورة الهزل ،
ولهذا وقع في النفوس وأثره في تحقيق ما يراد منه .

وله رسالة أخرى طريفة في بضع ورقات تعرف بالتعريفات
وفيها ينقد أهل عصره بتعريفات مضحكة كقوله : « القاضي من
يلعنه الناس طرا ، والمحامي من يجعل الصدق شيئاً لا قيمة له ،
والسعيد من لا يرى وجه القاضي أبدا . »

فعبيد الزا كان فضلا عن كونه شاعرا هجاء ، ناقد اجتماعي من
الطراز الأول ، وباحث أخلاقي لا غبار عليه .

ولم يفارقه ولعه الشديد بالسخرية والتهمك إلى آخر عهده
بالدنيا فمن طريف ما يروى عنه وهو يجود بنفسه على فراش

موته ، انه استدعى كلا من أبنائه على حدة وقال له انه خلف كنزا عظيما ثم دله على مكانه ، وشرط أن يكون فتحه في ساعة معينة ، ولم يفته أن يوصى من حديثه بأمر الكنز أن يطوى السر عن أخيه . ومات الرجل ، فالتقى الأخوة في المكان المعين والموعود المضروب ، وكشفوا الأرض عما يحتويه جوفها ، فوجدوا صندوقا صغيراً ، ولما فتحوه رأوا صحيفة مطوية ، وبسطوها فإذا هذا البيت فيها « إني لأعلم وأنت تعلم وكفى بالله علما وشاهداً ، بأن عبيد الزا كافي لا يملك فلسا واحدا ! »

أما نفى فن أهل القرن السابع عشر الميلادى ، ويعتبره مؤرخو الأدب التركى شاعراً كبيراً ، فقد كان مشرق اللفظ بحكم النسج بعيد الخيال ، ومدح السلطان مراد الرابع بشعر كثير ومنه قصيدة عصماء ارتجلها في حضرته فحشا فاه ذهباً لطربه وفرط اعجابه ، كما مدح الوزراء وأصاب صفة كرائم الجياد . غير أن شهرته كانت بالهجاء ، فنفعى اهجى شعراء الترك غير منازع ، والظاهر أنه فى مدحه كان متصنعاً متريضاً وان أحسن ، وإن المتصفح لديوانه لواقع على عدة أبيات تدل دلالة

أكيدة على أن الشاعر نفور معتد بنفسه إلى أبعد الآماد ، فهو
الذي يقول : « فيض طبعي في عالم المعاني لمعة الشمس في الضحى ،
وإن لفكري عينا نيرة حتى كأن عين الشمس سوادها ! »

وقد عرف بزهوّه وخيالاته ، ولنا أن نرد إلى ذلك رغبته
الملحة في السباب والهجاء ، فالمتكبر طعان في أعراض الناس
دائم الممة ذلهم ، وهو يريد الحاق العيوب بهم ليكون مبرءاً من
كل عيب ، ويود أن يجعلهم صغاراً ليقر في نفسه بأنه بالاضافة
إليهم أكبر كبير وأعظم عظيم . وقد جرت عليه كبرياؤه كراهية
عارفيه وغير عارفيه ، كما اقترن غروره بفضاظة وغلظة طبع
وشدة بأس ، وظهر أثر ذلك واضحاً في شعره الغزلي ، فهو
ملىء بالمبالغات بين التكلف والتعسف ميت العاطفة .

وقد ضمن هجوياته مجموعة سماها « سهام القضاء » وهي
تموج بالرفث والشتائم ، وتحوى كل ما ينسب إلى السفاهة
والسلاطة ، فلم يسلم أحد من مقذعات هذا الشاعر ، حتى أنه
هجا أباه مستهلاً بقوله : « ليس هذا لي بأب ، إنما هو بلاء أسود
صب على رأسي صبا ! »

واشتد سخط الناس عليه ، حتى أن أدبياً كان معاصراً له

من أصحاب الموسوعات الأدبية المعروفة بـ«كتب التذكرة» ، لم يذكره إلا في سطر واحد ، فقال إن نفعى من مدينة ارضروم ، وشعره ترهات وأكاذيب .

والواقع من الأمر ان هذا الأديب كان حافدا عليه ، لأنه ثلبه وأذاه بلسانه . وقد قيل فيـد بيتان من الشعر ، وكان لهما شهرة وذيوع ، ومنها نعلم مبالغ الغضبـة التي غضبها عليه الرأى العام في زمانه وهما : « هذا الشاعر الهجاء المسمى نفعى ، قتله جاز في المذاهب الأربعة كقتل الأفعى » ،

وقد بلغ منصبا عظيما ، هو وزارة المالية ، إلا أن ذلك لم يثنه عن الشتم ، أو يسكفه عن أن يهجو زملاءه الوزراء ، وان هذين البيتين ليصوران نفسه أصدق تصوير ، وهما : « ليعلم كل من خاصمني في فن القول بأن حملتى عليه شرو بلاء ، فشعري رستم ، ذلك البطل الراعى عن القوس ، وسهام القضاء كنانته ،

وكان شديد السخرية من الناس ، متظاهرا في ذلك بأنه يمزح ويتفكه ، والبرهان على ذلك أبيات قالها فيمن يدعى طاهر أفندى ، وقصة قصيرة وقعت له مع أحد خصيان القصر . أما الأبيات فهي : « إن طاهر أفندى كلب عندى والالتفات في

هذا الكلام ظاهر ، فأنا على مذهب مالك ، والكلب عند
المالكية طاهر ! ،

أما القصة ، فهي أن السلطان مراد الرابع أنفذ إليه كتابا
مع خصى اسود ، ولما تسلمه التى عليه نظرة فاترة ولم يكثرث لما
جاء فيه ، واتفق أن كان الخصى يكتب شيئا فى ورقة فسقطت
عليها نقطة مداد من قلبه ، ولم يلتفت الخصى إلى هذا الأمر ، حتى
رأى الشاعر يتقطع ضحكا ، فقال له فى ذلك ، وأجابه الشاعر
بقوله : « إن عرق مولانا المبارك قد سقط على الصحيفة ! »

وقد اتفق يوما للسلطان مراد الرابع أن كان ينظر فى « سهام
القضاء » ، فما راعه إلا نزول صاعقة ، فتطير الساطان وتوقع الشر
من ذلك ، واستدعى الشاعر ، واستتابه من الهجو ، فأغاظ الايمان
على التوبة ، وإن غلب عليه طبعه فقال لمولاه هذا البيت : « على
عهد الله لا هجوت أحدا أبدا ، أما ان أذنتلى ، هجوت الحظ
العائر دون سواه . »

ولكن نفعى وهو الشكس المناطق ، لم يكن ليصبر
التزام السكوت ، فسرعان مانسى العهد ووقع فى الحنث ، فهجى
الصدر الأعظم بايرام باشا هجاء مقنعا ، ونمى الخبر إلى السلطان

فاستشاط غضبا ، وأمر بالشاعر فخنق ، وكان ذلك سنة ١٢٣٠ م .
ويقال ان الساطان كان ينفس على نفعى شاعريته واجادته لأنه
كان شاعرا مثله فأوعز اليه أن يهجو الصدر الأعظم ، وافترض
ذلك للتخلص منه بالقتل .

ولما سبق لضرب عنقه وكان ذلك في مخزن الأخشاب ، قال
له الجملاد متهكما (سربنا يا نفعى إلى الغابة لتبرى من خشبها
سهاما !) فزجره نفعى بقوله (إخسأ أيها القدم الرقيق ، انجز
عملك ولا تبسط في لسانك !)

وأيا ما كان فإن المؤرخين يستذكرون هذا من مراد الرابع ،
ويعتبرونه وصمة عار وسبة عليه ، لأن نفعى كان شاعرا عذب
البيان . وإن كان مر اللسان .



(قصة للكاتب التركي المعاصر يعقوب قدرى ،
وهو قصاص متفنن ناصع البيان يذهب في التأليف مذهب
الكتاب الفرنسيين ، وله إهتمام بالكتابة عن أمته ،
وولوع بتصوير بيئته ، وإذا عالج موضوعا فهو واقعي
بأصدق معاني الكلمة ، يتناول كل شيء بالنقد الصريح
والحكم المرير في غير محاباة ولا مداراة .)

كنا نهبط ممر جبلية صخريا ، فارتعدت لذلك قوائم فرسين
نمتطيها . وبدأ لنا نبع صاف وشجرات صفصاف فوجدنا مس
الحاجة إلى التلبث قليلا ، وطاب لنا أن نطلب الراحة ، وفي السفح
الذى ننحدر إليه كانت قرية صغيرة قديمة ، لانشاهد من معالمها
الاسود سقوفها ، فقلت لصاحبي :

— اهذه قرية الغرباء ؟

وتنبسط ارجاء قرية الغرباء في واد غير ذي زرع كثير

الصخر ، وقد خيمت عليها الوحشة واكتنفتها الوحدة ، وكنا على عزم اجتيازها لاعتلاء هضبة من ورائها . وترك صاحبي فرسه الذى بلغ منه التعب مبلغه حيث كان ، وخطا إلى النبع ليغسل وجهه ويديه ، أما أنا فرأيت من الحيلة أن أربط فرسى فى جذع شجرة من شجرات الصفصاف ، وإني لسائقه إلى مربوطه ، إذ بصاحبي ينهض من انحناءته . ويرفع صوته قائلاً :
.. حذاريك ياسيدى ، لا تربط فرسك فى هذا المكان ،
فان تحته لقبرا .

تلفت حولى وادرت بصرى ، فلم تقع عيني على قبر ولا ما يشبه القبر ، وإن ظهر لى تحت الشجرة التى اقترب منها كسار احجار ملونة بالخضرة ، وقد تبدل قنديل محطم عليها من غصن الشجرة الممتد فوقها ، وعلى هذا الغصن مزع من قماش تختلف ألوانه . ووقف صاحبي وأشار إلى المكان بيده وهو يمسح ذراعيه العاريتين بمنديل له ثم قال :

— نعم هاهنا !

وكان صاحبي من أهل هذه الناحية ، يعرف أرضها شبراً شبراً حق المعرفة ، فسألته عن كيفية وجود قبر فى تلك البقعة ،

ومن عسى أن يكون صاحباً له ، كما أحببت أن أعلم منه علة
تحذيره إياي من ربط فرسي في شجرة على قبر ، واقتربت منه
ضاحكا . أما هو فقد رأيت الجد في وجهه وكأنما تبها لا فهمي
أمرا ذا بال ، وأخرج من منطقته حقا كبيرا يحمل فيه تبغه ،
ومد يده إلى به مقدما ثم قال :

— الق سمعك ياسيدي ، هذا قبر الفتاة المستمعة إلى الصوت
وهي لا تحب الغرباء ، ولذلك نصحت لك أن تبتعد عنها . لقد
شاهدت هذه الفتاة ، فلم يمحض على موتها غير أعوام ثلاثة أو
أكثر منها بنصف عام ، وهي من بنات هذه القرية ، ومع كل
فقد كانت أروع حسنا ، وأوفر عقلا ، وأخزر علما من بنات
المدن . لحفظت وحدها عن معلم القرية ، وتعلمت عليه بعض
الأنشيد الدينية ، وكانت مليحة الصوت ، فقرأت المولد للنساء
القرية في الأسبوع مرة . وكانت آتت بين السادسة عشرة والسابعة
عشرة من سننها ، ولها شعر يبلغ السكعين طولا ، وعينان
تبعثان هزة الدهشة في كل ناظر إليهما ، أما أسمها فأمنية .
وخطبها فتى هو أعظم فتيان القرية جاها ومالا وأحدهم
سيرة وسجية ، وكان ذلك منذ أربعة أعوام أو خمسة ، قيل

والعهدة على الراوى -- انهما تحاببا فى طفولتهما فطلبا الزواج فى شبابهما ، وقامت الحرب فى الأسبوع الذى تمت فيه الخطبة ، حرب الروملى المشنومة ، فانخرط الفتى فى سلك الجندية ، وكان له عن ذلك محيى لا تساع ثرائه وقدرته على اقتداء نفسه بماله ، غير أنه لم يرغب ، كما أراد به والده أن يذهب ، فذهب ذهابا لا إياب منه وسمعنا أنه وقع فى أسر اليونان ، ثم جاء خبر استشهاده فى قتال الصرب بمكان لست أذكره ، وقد غمر هذا الخبر المروع تلك القرية بالأسى ، فبكاه رجالها ونسائها ، وكان سواسية فى ذلك طفل لم يبلغ السابعة وشيخ ذرف على السبعين ، ولم يكن فى القرية ولا حولها إلا من كان له محبا ، والعجب أن خبر موته لم يسبب لأمة عينا بالدموع ولم يرفع لها صوتا بالنواح ، وكل ما كان منها أنها امتنعت عن الطعام والشراب أياما ولم تكلم أحدا ، كما كفت يدها عن كل عمل ، وكانت تتجول والحزن الصامت باد عليها ، والأمر طبعى عادى الى هذا الحد لأن ...

وسكت محدثى والقى سيجارته من أنبوبتها الغليظة بعد أن أتم تدخينها . ثم عاد الى حديث أكثر فى الجد ، وأظهر فى الاهتمام وقال :

وفي يوم من الأيام ، تغيرت حال أمينة ، فامتقع وجهها
فكانت له صفرة الليمون ، ولمعت عيناها فكانت لها لمعة النار ،
ومدت عنقها من آن الى آن قائلة لمن حولها : الصمت
الصمت ! ، وقد أصغت الى صوت لا يسمعه أحد سواها ،
فسئلت عما تسمع ، إلا أنها لم تحر على ذلك جوابا ، ومضت أيام
وأمينة تلقى سمعها الى صوت وهي تلتزم السكوت ، ولم يمر
طويل زمان حتى تحرك لسانها بما كانت تسمع أذنها فقالت
حكاية عنه : « انهضى يا أمينة ، ان العدو مغير على بلادنا ،
انهضى يا أمينة أن العدو محقق بأرضنا . »

وذكرت أنها سمعت هذا الصوت للمرة الأولى في منامها
ففتحت عيناها وسمعته ثانية ، ثم سمعته تكررارا على طول الأيام
وكأنما ينتهى اليها من عميق الأغوار وسحيق الأبعاد ، ويقول
لها : « ما بقاؤك ؟ ، تارة » وانهضى ، تارة أخرى .

وتكشف الغموض عن هذا الكلام فظهر معناه ، وعرف
أهل القرية نبأ ضياع الروملى ، ولم يمر هذا الخبر بسمع أمينة ،
أو أنه مر بسمعها ولم تفهم مغزاه . وقد خرجت ذات يوم
هائمة على وجهها ، وقد قطعت القرية من أقصاها الى أقصاها

قائلة : انهضى يا أمينة ، ان العدو محقق بأرضنا لقد وضع الطريق ، لقد وضع الطريق ، كونوا على أتم الأبهة ، وليذهب النساء والرجال والشباب جميعاً لملاقاة العدو ، الجهاد الجهاد ، الجلاد الجلاد !! ، وكان هذا القول جواباً لمن سأها ، من يذهب ؟ وإلى أين يذهب . .

وارتجت القرية وعمها الاضطراب ، وظن أهلها أن أمينة مخبولة يتخبطها الشيطان من المس . فخبست في دارها وأمسك عليها بابها ، الا أنها لم تكف عن قولها : « دعونى اطلقونى سأذهب بمفردى ، ألم تذهب فاطمة ؟ انى اذن لذهابة ، انما هو واجبى . » ثم سكنت فجأة وبرزت عيناها وامتد عنقها كالمصغية لتسمع ذلك الصوت الذى ينتهى اليها من عميق الأغوار وسحيق الأبعاد ، وكانت تهدأ وتسكن اذا ما اصغت ، أما اذا ما شرعت تتحدث فلا سبيل الى اسكاتها . وقال معلم القرية : « لا يمسه أحدكم ، انها أعقلنا جميعاً ، ولقد وصلت الى مرتبة ان نصل اليها . » فتركت على حالها . ومضى على ذلك خمسة أيام أو ستة فغابت الفتاة عن الأنظار ، وذكرت أمها أنها قامت فى منتصف الليل والناس رقود ، فخطفت سيفاً لا يها كان معنقاً بالحائط ثم

خرجت ، ولا يعلم ان كانت خرجت الى جبل أو واد . وطلبوها فلم يقفوا لها على أثر وأصبحت سرا من الأسرار .

وسكت محدثي واخرج سيجارة أخرى ، ونقث دخانها وهو حزين ثم جعل يقول : وذات صباح ، وجدها قروى يدعى جوبان محمد وهي مكبة على حافة النبع ، فحركها وأراد حملها ، الا أنه تحقق فعرف أنها ميتة ، وقد تمزق ثوبها من أعلاه الى أسفله وظهرت الجراح على جسمها ، وكأنما كانت عيناها تنظران وشفتها تبسمان . واندلق جوبان محمد الى القرية يخبر الناس بعجيب ما رأى . فتناهضوا يتعادون لمشاهدتها ، وقدم الطبيب ورجال القضاء من القصبة وقرروا أن تحت ثديها الأيسر أثرا لطعنة بمدية ، أما أهل القرية ومنهم أبوها وأمها ومن جهازها ، فأنكروا رؤية شيء من هذا . ثم حملت ودفنت . فكان النور يهبط على قبرها ثلاث ليال تباعا . واليوم يسميها أهل قريتها بالفتاة التي تستمع الصوت وقد نسوا حقيقة اسمها .

ويزور قبرها الغرباء وغير الغرباء من أهل القرى المجاورة وأكثر من يزورها شواب النساء والعداري ، أما الخارجون للقتال فلا يفوتهم أن يمروا بها وينذروا لها ، رجاء أن يعودوا

سالمين موفورين . واليوم وقد مضى على قيام الحرب الأخيرة
عامان ، أصبح من عادة النساء اللاتي هن في الميدان زوج
أو خطب ، أن يعتلين الهضبة المقابلة لمدفنها عند الغروب ، فيقفن
عليها وقد اتجهت وجوههن إليها ، ويرفعن الصوت بقولهن :
امن الشهداء أم من الغزاة ! ، فتجيبهن الفتاة من بعيد الأغوار
وسحيق الأبعاد ، قائلة لبعضهن شهيد ، وبعضهن الآخر غاز !
وقلت لصاحبي :

-- لماذا لا يسألنها عن قرب وينادينها من بعد ؟

فقال -- لأنها لا تكلم من كان قريبا .

-- اذن فلننادها نحن أيضا اذا ما اعتلينا الهضبة المقابلة .

-- ان كان لك في ميدان القتال من يمت اليك بصلة القرابة

والا فعبث ما تصنع .

وركبنا ، واجتازنا قرية الغرباء ، ولما صعدنا الهضبة ، لم
أصبر أن أناديهما ، بدافع من تجسس دنيء يفسد على نساء القرية
المعصومات عقيدتهن ، فرفعت صوتي وقلت مرتين متتاليتين :
(أيتها الفتاة التي تسمع الصوت ، أيتها الفتاة التي تسمع
الصوت !)

فردد الصخر صوتي وأعاد الى ندائي .



من نظر في تاريخ أدب الفرس والترك ، وجد أسماء للشعراء
مالها عدد ، ولا ريب أن هؤلاء الشعراء حظوظا من الاجادة
متفاوتة ، ودرجات بعضها فوق بعض ، فحال أن ينزلهم القارىء
من نفسه منزلة واحدة ، أو يخطرهم جميعا على باله ، والبين الواضح
أنه لا ينفك عن ذكر شاعر ان برز في فن شعري خاص ، أو تميز
بصفات ليست عند غيره ، وان الاجادة وحدها لا تكون على
الدوام سببا في شهرة الشاعر وسيرورة شعره ، فأى عجب في
اشتهار شيء بحسنه كاشتهاره بقبحه ؟ ونريد هنا لنقول ان الخروج
عن المألوف خروجا ما ، ومخالفة الغير أيا كانت ، مما يجذب
انتباهنا إلى بعض الشعراء ويجعلهم منا على ذكر ، ونضرب مثلا
شاعرين هما سوزنى الایزاني وكافى التركى ، فقد انفرد هذان

الشاعران بهيل إلى الهزل والدعابة ، فكان شعرهما أو معظمه خفيفا على الأرواح ، حبيبا إلى النفوس ، وإن لم يبلغ من الجودة والسمو ما بلغه شعر الفحول من شعراء الفرس والترک .

وسوزنى من أهل القرن السادس الهجرى ، وقد حيا حياة لهو وتبطل ، فتهالك على اللذات ، وطلبها أينما ثقفها ، ومضى فى غوايته مخلوع العذار ، لا يزعه وازع من دين ، ولا يهديه هاد من عقل ، فلم ير من دنياه إلا وجهها البسام ، ولم يعرف عنها إلا بهجتها وزهرتها ، مما أغراه بطلب المزيد من متعتها ، ففرح كثيرا وضحك طويلا لأنه لم يجد ما يبعث حزنا ويشير بكاء ، وكان يغشى سوامر الظرفاء ، فيشيع فيها المرح ويعلم الناس من نوادره وأضاحيكه ما يدور على كل لسان وتضحك له الشكالى . ويلوح أن الرجل كان ذا استعداد مزاجى خاص جعله يحس الفكاهة فى كل شيء ، فلا يعرف للوقار معنى ، ولا يلتقى سمعا إلى من بذل له النصيح وأنحى عليه باللائمة ، وقد استنكر بعض الناس معاييه ونقائصه ، وهاج الهجاء بينه وبين شعراء من أهل زمانه ، ولا غرو فقد كان الهجاء وسيلة طيبة لسوزنى يظهر بها فكاهاته ، ويهزأ بالناس ماشاء الله أن يهزأ . وتمادى فى استهتاره حتى أصبح ذلك

منه قحة تعافها النفس ويمجها الذوق ، فلم يستح أن يقول في شعر له : « لقد ركبت طريق الشيطان فترديت في حباله ، وأصبحت أخبث منه مكرا وأكثر شرا ، وما من يوم يمر على إلا قارفت فيه ذنوبا وار تكبت آثاما ، وبلغت بي الحال أن اعتبر الفضيلة رذيلة ، والخير شرا عظيما ، وكل جارحة لي مذنبه مفسدة ، فكأنها منبت طيب لخبث الشرور ، وستشهد على جوارحي يوم القيامة فالويل لي ! »

ومن أسف أننا لم نقف له على هزليات مع شهرتها المستفيضة ، فمؤرخو الأدب الفارسي لا يخصصونه من عنايتهم إلا بقدر ضئيل ، ويرجع ذلك في أغلب الظن إلى أنه لم يكن شاعر كبيرا وأن الفحش كان ملء شعره ، ويقول أحد الأدباء إن هزلياته لا تخلو من جمال شعري ، إلا أن اغفال ذكرها خير من إيراد نماذج لها ، كما يستميع غيره العذر عن طيها تورعا واستحياء . ويقال إنه ضاق بحياة المجون في أخريات أيامه ، وهو بذلك لا يخرج عما نعهده عند الماجنين أمثاله ، فلا بد لليلة الأانس الطويلة من فجر شاحب لاغب ، وللذة العقار من ألم الحمار ، وكل غافل إلى اتباه . ولسوف يقرع المسىء سنه يوما ما ويميز الخير من الشر

والهدى من الضلال . وندم سوزنى على ما فات وتاب وحسنت
توبته ، ثم التفت إلى ماضيه المعيب وذكره بقلب حزين ولسان
شاك فقال : « ماهذه الدنيا إلا بلاء وشقاء ، لكأنى فيها حباب
على كأس ، وسراب يلتمع على كدرة فيه ! » وفى كلامه هذا
دلالة على أن بهجة الحياة لم تمس روحه فى الصميم والأعماق ،
ولم ترو نفسا له مازالت ظمأى ، فهو يشكو زمانه ويسخط على
سرابه الخادع الكذوب .

وتجمعت له حكمة وخبرة من حياة لهوه السالفة ، فيحدث
حديث عاقل تدرس بالأمور وأحاط علما بخفاياها ، ويهبط
الناس ويدعوهم إلى الخير والفضيلة ، ويزجرهم عن الشر والردية
فيقول : « ليس كالجمانة والغواية معابة ومعرة ، فليهنك أن
تعيش بلا عيب ولا عار ، ارفع الرأس تها بفضائلك ، وكن
من زمرة الفضلاء ، ولتكن مبرءاً من العيوب ، وبنجوة عن
كل النقائص . »

وحج البيت وكفر عن سيئات عمر طويل ، ويقال ان الله
غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر لبيتين قالها باسطا اكف
الضراعة إلى ربه ، وملتصسا منه رحمته وغفرانه ، وهما : « انى

لأرجع إليك يارب وفي جمعتي ما ليس في خزائنك ! فلدى افتقاري
وحاجتي وما اجتريته من خطاياي وسيئاتي !

أما كاني فهو عند الترك كسوزني عند الفرس متميز بفكاهته
وشعره الهزلي ، وقد بدأ حياته درويشا مولويا بإحدى مدن
الأناضول حيث عرف بالعلم والفضل ، واشتهر بالزهادة والورع ،
وكان من صنع الله أن مر ببلدته على باشا الصدر الأعظم ،
فتقدم إليه كاني بقصيدة جيدة يمدحه بها ، واستمع الباشا إلى
المديح فاهتز له طربا ووقع من نفسه موقع الإعجاب ، فعرض
على الشاعر أن يصحبه إلى استانبول ، ورحل كاني عن مدينته
الصغيرة الهادئة ، إلى تلك المدينة العظيمة الصاخبة ، فبهرت
الحضارة بروائها ، ورأى مالم يمر له بخيال وهو في الأناضول
يعيش عيش البسطاء منطلقا على سجيته من غير ما قيود يتقيد
بها ، ولا حدود يلزمها ولا يتخطاها ، ورأى ثوبه الخشن وعمامته
الصغيرة ، بين الثياب المزركشة والعائم المسكورة الكبيرة ، فخر
ذلك في نفسه ، واحس السخط على حياته الجديدة البراقة
وأهلها المتكلفين المنافقين . وجعله الصدر الأعظم كاتباً من كتاب

الديوان ، وكان الشاعر ملولا بطبعه قليل الثبات على حال من الأحوال ، وأراد أن ينطلق من قيد وظيفته ، ووجد الفرصة المواتية يوم استعفى الصدر الأعظم من منصبه الكبير ، فاستعفى معه الكاتب من منصبه الصغير .

وزينت له نفسه أن يزابل استانبول إلى بلد آخر فشد رحاله إلى بوخارست وهناك أصبح كاتم السر التركي لمن يدعى الأمير اسكندر . ولم يدم كافي في هذا المنصب ، وكأنما كان السكون محرما عليه بغضضا إليه ، فما سمع بأن يكن محمد باشا أصبح صدرا أعظم وأنه يدعوهُ إليه حتى انطلق راجعا إلى استانبول ، وكان كافي من أصفياء الصدر الأعظم وأهل أنسه منذ عهد بعيد ، فكلمه متبسطا معه ، وفاه بما أغضبه وهيج سنخطة عليه ، حتى أمر بقتله ، ولم يعف عنه إلا بعد أن شفع له رئيس الكتاب ، فاستبدل بالقتل النفي إلى إحدى الجزر .

وأقلعت به السفينة إلى منفاه ، بعد أن صرعه لسانه ، فكان ضحية الهزل واسامة الأدب في حضرة الوزراء واثروساء ، وسامت حاله كثيرا في جزيرته نخلت وفاضه ولم يجد معه من المال ما يبتاع به تبغ يدخنه ، وحرَم من نار جيلته ، فكان اذا رأى

خرطومها الذى يشبه الأفعى ، تأذت نفسه وثار غضبه وتصور
الخيال حقيقة فظن خرطوم النارجيلة حية تسعى ! ولا نعرف
عن حياته أكثر من هذا لأن المؤرخين سكتوا عند هذا الحد
بعد أن قالوا انه تاب عن حياة الهزل وعاد الى حياة الجد والزهد
وكان الرجل مزاحا جبال على المزاح حتى قيل انه أضحك عواده
وهم ملتفون حول فراش موته بقوله : « لست متسولا أسأل
الفاخرة ، فاذا مت فلا تكتبوا على قبرى انى أسأل الزائر أن
يقرأ لى الفاخرة ، أسوة بغيرى من أصحاب القبور »

وكان يدخل الفكاهة على كل شيء يراه وكل عمل يصنعه
بالغاما بلغ من الجد والوقار ، حتى ان بعض الناس كانوا
يكتبون أبياتا من الشعر ويذهبون بها إليه ليتمها قصيدة هزلية
يضحك لها كل من سمعها ، ولم يكن شاعرا مجيدا ، فلم يعن
بانتقاء الفاظه وترتيب معانيه ، فجاء الكثير منها مظلما مبهما ، كما
أنه لم يتجاف عن عيوب القافية . يقول كافي واصفا بدر السماء :
« هو ذا البدر فى قبة السماء ، فسكان شحاذا يمد يده بالوعاء ، الا
ان الفلك خسيس دنىء ، فهل يمد الدرويش يده بالسؤال ان
كان له أباء وكبرياء ؟ »

وقد شبه البدر بشحاذ يمد وعاءه الفارغ الى أهل الجود
والكرم ، فكأنه لم يستثن حتى الكواكب في سماواتها من
سخريته اللاذعة وتهكمه المر ، وقال في نؤوم : (هذا النائم
لا يستيقظ وان قرعت الطبول عند رأسه ، ياله من جهول
لا يعلم أن عينه النائمة ستبكي دما على الكسل غدا ، أنت تنام
كالحمار الكسلان مع أن نفسك نفس انسان ... اذهب الى
الحقل ، تر الثور يرعى وهو واقف يقظان ! ، وكان كافي
كاتباً جيد العبارة حسن الترسل ، والأجماع منعقد على أن نثره
خير من شعره ، وقد أجاد كثيراً في فن خاص هو فن كتابة
الرسائل ، وله رسائل هزلية كثيرة تتجلى فيها روحه المرححة ،
ومنها رسالة يهدى فيها السلام بقوله : سلامي إلى كل من
عندكم من دلال وحمال وبقال ، وفلاح وملاح ، ونمام وذمام ،
ومفسد وملحد ، ورمال ونجم وحجام ، وسمسار وحمّار ،
وسؤالى عنكم جميعاً ، فهو يخلق الفكاهة خلقاً ، ويتعمد
الاضحاك تعمداً ، وإن ذلك لآية من آيات الفطنة ، ولا نجده
عند سوزنى الذى انما كان يشعر بالفكاهة شعوراً كما يؤخذ من
سيرته .

ومات كافي سنة ١٧٩٢ بعد أن عمر طويلا ، ولا يعرف
قبره ، فكأن الزمان عمل بوصاته فلم يقف علم قبره من يقرأ
له الفاتحة !

عنازل الخطيب

من بنات الفرس لا من بنات العرب ، وكانت معدمة من
أهل البؤسى لا مترفة من أهل اليسار والنعمة ، ولم تحرك لسانا
ولا يدا بأذاية الرسول صلوات الله عليه . ولسكنها هوت بخنجرها
على قلب مولاهما ملك الملوك فانهار صريعا . وإنظرنا إلى حمالة
الخطب العربية كمثال لامرأة السوء ، فهذه الفارسية هي الشيطان
المريد في صورة المرأة الحسنة ، وأنا لنذكر بظاهرها الجميل
وباطنها القبيح حية بين زهر أو جيفة تحت قبر .

فيروى أن الشاه اسماعيل ميرزا الصفوى خرج يوما متصيذا
أو متفرجا إلى ظاهر مدينة اصفهان في رفقة من الاتباع والندماء ،
وانطلقت المطايا بمن عليها تطوى المروج المنخفضة ، وتتخذ
لها سيلا في الجنائل ، فتعنف باغصان كانت متعاقبة تتناجي بهمس
النسيم ، وتبعث الجلبة بوقع حوافرها على الحصباء في مكان

لا عهد له إلا بجفيف جناح أو عذب نواح ، حتى بلغ الركب
ضفة نهر زند رود . وهناك طرقت مسامع الشاه نغمات حزينة
تنبعث من حيث لا يعلم مأتاها ، فتوقف يستمع وطال منه
التوقف ، ووجد لوقعها في نفسه هزة طرب ونشوة حائلة ملكت
عليه قلبه . وما سكك الصوت حتى أحس الرغبة في استعادته
وطلب المزيد منه ، كما قام في نفسه أن يتسائل عن صاحبه
ويتنسم أخباره ، فانفذ أحد ندمائه إلى مصدر الصوت ، وما
سار النديم مسيرا بعيدا حتى رأى كوخا متضائلا غيره البلى ،
لا يكاد يماسك بين أصول شجرات السرو ، وقد انتشرت
حوله كومات حطب تجلس على أحداها فتاة كاحسن الناس شبابا
وجالا في ثياب أخلاق ، وبين ذراعيها البضتين قيثاره تصلحها
وتشد أوتارها . ولم تنب عين النديم عن الفتاة لهيئتها الزرية
ومظاهر الشظف البادية عليها ، بعد أن شاهد لها جمال زهرة
انبتها القطر بين الصخر في واد سحيق . وسألها عن حالها فعرف
أن اسمها (منور) وأنها تسكن هذا السكوخ مع أمها العجوز
وتستقطر الرزق النزر اليسير من حطب تجمععه ، وتقضى عامة
نهارها بين حطبها وغزلها حتى إذا ما أدركها بعض الليل نقلت

خطاها إلى المدينة فبلغتها بعد جهد ، وقصدت دار من يدعى
مراد خان وهو موسيقى له حذق وشهرة ، فجلست إليه لتأخذ
عنه كيف تضرب بالقيثارة ، ثم تعود ادراجها ، وتنقلب إلى أمها
وهي فرحة مستبشرة بما تعلمت . واكتفى النديم بذلك من شأنها
وتركها بعد أن ألقى عليها نظرة من يرأف بها ويعجب بجمالها .

وعاد إلى الشاه بحقيقة الخبر عنها ، وكان الشاه اسماعيل
صاحب لهُو وشراب وزير نساء ، فما وصفت له بالحسن حتى
تحركت رغبته فيها . وحن حنينه اليها ، ومضى توارؤيتها رجاء
أن يميز بين السماع والعيان ، فراقه منها جمال ساذج عاطل من كل
زينة ، وأدركته الرقة عليه من فاقة قد تذبل نضرتة ، كما تصوره
أكثر اشراقا وأخذ بالعين والقلب ان تعهدته يد في القصر
بالتطرية ، والبسته شفوف الحرير ، وحلته من أساور وعقود ،
وعرض على الفتاة أن يلحقها بحريمه فتتعلم بالطيبات وتبذل من
حياة الكوخ بحياة القصور ، غير أن لسانها انعقد رغبة ورهبة ،
واسكتها الصمت عن لا ونعم ، أما أمها فتكلمت كلاما ليلا
وشكت غربتها ووحدتها ، ان فارقتها من تونسها وتعولها .
وركب الشاه وقد خلفت الفتاة بين جوانحه ما خلفت ،

ومضت عليه الأيام لا ينساها ، فلم يستطع عن منور صبرا ،
وكره أن يعلم الناس بما بينه وبين فتاة تحمل الخطب مع ما في
قصره من نساء في طلعة الصبح ، فكان يخرج مستخفيا تحت جنح
الليل ليلتقي بها وينعم بساعة وصل معها في غفلة من العيون ،
ناسيا أو متناسيا في نشوة الحب ما يفرق بين سوقة وملوك .
ورأت نساء القصر خروجاً للشاه عن عادته بمغادرته القصر خفية
كل ليلة ، وساقهن الفضول فذهبن مذاهب شتى في تعليله
وتكليفه ، وكان غريزتهن النسوية كانت تملي عليهن أن أمرا
يدبر ليصرف قلب الشاه عنهن ، فرصدن له من يتبعه ويأتي
بخبئه . وبرز الخفاء وفشا السر ، وساء ذلك زوجته الأولى
وجرح كبرياءها ، كما علم اسماعيل ميرزا بافتضاح أمره ، وكان
الظن به أن يطيب خاطر زوجته ويعتبرها ، غير أنه احتدم
غضبها ، ورغب عنها وقطع ما بينه وبينها وحمل إلى القصر منور ،
واحلها محل زوجته البائن .

وذاقت منور من النعيم الوانا ، بعد أن كانت في أحط
الدركات ، فسمت إلى أعلى الدرجات . وازداد الشاه بها كلفا
على المدى ، فكان يرغب إليها أن تناديه على شرابه وتسمعه من

الخان قيثارتها ما يرقق قلبه ويجرى على الخدين دمه ، ذلك
القلب الذى ما كان يرق حتى يرق الصخر . وذلك الدمع الذى
ماسال يوم كريمة وبأس . فذل اسماعيل بعد عز ، كما عزت منور
بعد ذل .

وعاش الزوجان المتحابان ردحا من الزمن فى صفاء لا تشوبه
كدرة ، ووصال لا تقطعه فرقة ، ثم كان لطول الألفة ملالة
ظاهرة ، وسرعان ما تولت السكره وجاءت العبرة ، فأصبح الغرام
المشبوب المدموع ذكرى ، ولإيالى السكوخ قصة يتفكك بسردها ،
أما التفريط فى جانب الزوجة الأولى فكان حسرة دائمة والمأ
كينا . وهاج الشر بين منور ونساء القصر فنظرن إليها نظرتهم
الى متهم عليهن ليستأثر بالمنزلة دونهن فكدن لها كيدا ، أما هى
فبادلتهم كراهية بأشد منها ، وما أثار أحقادها ، شعورها بضعة
حسبها وهوان شأنها فى الأمس القريب ، وعليها بأنهن جميعا
يستحقن حمالة الخطب وإن أصبحت ملكة على إيران ، فكادت
تنشق كذا وغیظا ، وجعل السخط يأكل قلبها ، فسخطت على الناس
طرا كأنهم يطلبونها بثأر ، وكرهت حتى اللحظة السعيد الذى رفعها
من كوخها إلى أبراج قصرها ، وامتلات نفسها ثرا وخيئا ،

وفسدت طوبتها ولم تخلص لشيء نيتها . وذكرت ماضيها ، ودعت
لأيامه بالسقيا على ما كان فيها من جهد الفاقة ومرارة الحرمان ،
وإثار حفيظتها أن يسلو زوجها الشاه عنها بعض السلو وهو من
كان يحبها حبا جما ، فلم تتعجب إليه ونشزت منه . وجر ذلك حتما
إلى وقوع الوحشة والجفوة بينهما .

وحدثتها النفس بالفرار من القصر ، غير أنها رأت ذلك
أمرًا دونه صعاب وأهوال ، واستياست من العيش ، فخطر لها
أن تأكل السم ، وفكرت مليا ، إلا أنها ضنت بنفسها أن تكون
ضحية من يمقتها ويشمت بها ، ثم زين لها الشيطان أن تتأثر بيدها ،
فتريق دماء من أراق دموعها ، وانصفت بحور المظلوم إذا
أظفروه الله بمن كان له من الظالمين ، فقر عزمها على قتل الشاه
اسماعيل ، ولم تهب الأقدام على مثل هذا الأمر العظيم ، فتحينت
الفرصة ، وأعملت الدماء والحيلة ، واتفق للشاه اسماعيل أن كان
حزينا ذات يوم لأمر نقمه من بعض الأمراء حتى أمر بتضريب
أعناقهم ، فخرج إلى حديقة القصر يذرع طرقاتها بين الأشجار
جثة وذهوبا وهو كظيم لا يدرى شيئا مما حوله ، وأظله الليل
وهو يسير واجما شارد الفؤاد ، ولاح القمر في الأفق وغمر

الحديقة نورا ، وحانت من الشاه نظرة إلى كوة من كوى القصر
فرأى خلفها وجه امرأة تديم إليه النظر ، وتحقق بما رأى فعرف
منور بعينها النجلاوين وشعرها المصفف ، ولثامها الرقيق ،
وناداه فلبطت إليه ، وشكا إليها ما يحزنه ملتجئاً منها أن تنفس
عنه كربته ، وكان الرجل سليم الطوية فيما يقول ، ولم يدري ما
بياله ان تبث منور له الغدر أو تقصده بالسوء ، فهو من اسبغ
عليها من فضله وكرمه وحبه ، واستوجب حفظها لجميله وشكرها
لنعمته .

ورأت منور فرصة مواتية ، يعز عليها أن تفلت من بين
يديها ، فاقترحت عليه أن تساقيه كأساً تجلو عنه همه ، وتسمعه
لحنائيل اعطافه طرباً ، وأخذوا ستمهما إلى مجلس الشراب ، وجلست
منور بمجلس النديم إلا أنها كانت بادية الحيرة مختلجة الأعضاء ، فلم
تصب من كأسها إلا كحسوة الطير ، أما اناملها فمست الأوتار مسا
رفيقاً قارة وعنيفاً تارة أخرى ، وكان اضطراب الحانها كاضطراب
نفسها ، وشرب اسماعيل ميرزا فصرعته سورة الصبيان ،
وما شاهدت منور ذلك منه حتى استلت من طيات ثوبها خنجراً
فضيا رشقت به قلباً باطالما احبها وخفق لها . وجدت في مجلسها

تتملى حمرة الدماء وهى تتفجر من صدر ملك الملوك . ولما مضى
الليل إلا اقله ، قامت فى خفية وآوت إلى مضجعها .

وتبين حراس القصر أن الشاه اسماعيل لم يغادر مجلسه فى
موعد جرت عاداته بأن يغادره فيه ، فأوجسوا خيفة وراهم
الامر ، ودخلوا عليه مستطاعين فوجدوه قتيلا ، وكان ذلك فى
عام ١٥٧٦ ، ونمى الخبر إلى أهل القصر وأهل البلاد ، فعم الأسى
وتضاربت الأقوال فى مقتله من غير أن يعلم قاتله ، ورفعت
نساء القصر صوتهن بالواعة عليه ، وكانت منور أكثرهن
نواحا ، وأشدهن حزنا وأغزرهن دما .

قيل وكانت إحدى الجوارى قد أبصرتها مع الشاه فى الحديقة
ليلة مقتله ، إلا أنها طوت ذلك ولم تذكره مخافة أن ينالها من
بأسها ما نال مولاها ، فتصنع بها ما تصنع النار بالخطب .

وذهب دم القتيل العظيم جبارا ، فقبول أجمل احسان بأفح
اساءة ، وتلك شيمة لخضراء الدمن .



هى ذى استانبول القرن الثامن عشر ، وقد استوفت كل
روعة وجلال على عهد احمد الثالث ، ذلك السلطان الهادى
النفس اللين العريكة ، الذى كان محبا للوئام والسلام ، كارها
للعنف والخصام ، فتأثم من أن يسوق رعيته إلى حيث تكتب
له بالدماء صحيفة مجد ، وآثر أن تسعد أيامه وأيامها ببال رضى ،
وهناءة لا يرنق صفوها شؤم الحرب وسوء مغبتها ، وصرف
همته فى حياته الآمنة المستقرة إلى بنیان يرفعه ، وعلم يناصر أهله ،
وصاحب حاجة يصدق عليه من نعمه السوابغ ، فعم الخصب
والرخاء ودار بالسعد الفلك .

وكان أحمد الثالث مشغوفا بالترف والبذخ ، شديد الحرص
على أن ينال أوفى نصيب من لذادة النعيم وطيبات الدنيا ، فبذل
المال الجزيل فى سبيل متعته ، ودعا الوزراء والعظماء إلى مأدبه ،

كما كان من تواضعه أن يقبل الدعوة إلى مآذهم ، وابتنى قصرا
بمكان يقال له سعد اباد لينعم فيه بطيب أنسام البحر صيفا ،
وبسط المتنزهات حوله فأما الناس مستروحين متفرجين ، وكان
مرهف الشعور بالجمال ، يتبعه أينما كان ، ويتملاه في الوجوه
الصباح ، والألحان الشجية ، والأشعار الرائقة ، وكأنما أحب
أهل استانبول أن يؤيدوا قول من قال ان الناس على دين
ملوكهم ، فاستنوا بسنته في طلب البهجة والتهالك على نشوة اللذات
وتبارى أهل الميسرة منهم في لبس الناعم وأكل الطيب وركوب
الفاره ، وعمرت مجالس الأانس وطاب فيها السماع على الشراب ،
حتى أصبحت استانبول عروس المدائن وزينة الدنيا بالقباب
العالية والرياض الباسمة والنعيم الذي يكاد ينطق في جنباتها ،
وصدق عليها قول بعض شعراء هذا العصر في وصفها : « تلك
هى استانبول التى لم يخلق مثلها فى البلاد حسنا وطيبا ، وان الحجر
فيها ليفديه ملك العجم بما وسع اياها جوهرة نفيسة بين بحرين
واذا ماشئت لها وزنا فلن يعادها فى الميزان إلا شمس الضحى ،
كل أرض خضراء فيها روضة ذات بهجة ، وكل ركن من أركانها
مجلس انس وصفاء ، واظلم الظلم أن تؤثر عليها الدنيا بأسرها ،

ولست موقفا إذا ما شبت رياضها برياض الجنان . .

وكان على رأس هؤلاء المترفين ، ابراهيم باشا الصدر الأعظم
ختن السلطان ، ومصطفى باشا القبطان ، فقد كانت لها حاشية
من الشعراء وأهل الأدب ، يقبلون بالمدائح ليعودوا بسنى الصلات
وان الحديث ليطول في ذكر ما كان من سرفها وكرمها . أما
النساء فابتكرن من الأزياء ما رق نسجا وطاب لونا ، فجررن
الذيول ومسن في الشفوف وكفن بعواتهن مالا يطيقون من
نفقة ، وقد استلزم اسراف السلطان والعظام أن يضطر الصدر
الأعظم إلى فرض جديد من الضرائب ، فأرهب ذلك الفقراء
واحزنهم ، وإن كان أبهج الأغنياء وأسعدهم ، واتخذ أهل الضياع
أتباعا من يهود وكلوا اليهم أمر ضياعهم ، وتدبير أموالهم ،
فظهر لليهود في هذا الزمان شأن ومقدرة ، وانتشر صيتهم ككاتبين
وحاسبين ومتجرين . وقد سجل رسام فرنسي مظاهر النعمة في
هذا العصر ، فرسم نحو من مائة وثلاثين صورة للسلطان في
قصوره والوزراء في مجالسهم والأثرياء في ولائهم ، فما نطقت إلا
بالحق ريشته . ويلحظ أن الترك أخذوا بشيء من حضارة الغرب
فقلدوا الفرنسيين في محافلهم وتأثروا بخطاهم في المعروف من عاداتهم .

غير أن اظهر ما تميز به المترفون في هذا العصر ، هو اعجابهم بضرب من الزنبق يسمونه « لاله » فافتشوا في غرس شجيراتاه ، وولد أهل الخبرة بزراعته الف نوع منه ، وتأنقوا في تسمية زهراته على اختلاف شكوها والوانها . فمنها ما كان يسمى تاج القيصر ، ومنها ما عرف بالؤلؤ الأزرق ، كما قيل لبعضها حمراء الخد والكأس الذهبية . وتباهى الوجهاء باقتناء المختلف من أنواع هذا الزهر والعجيب من الوانه وكأثر بعضهم بعضا ، وجعلوا له حدائق خاصة بغرسه ، وراجت تجارته رواجاً لا يعهد في شيء سواه ، وغالى التجار أعظم المغالاة في رفع ثمن النادر من أنواعه ، حتى تدارك الأمر ابراهيم باشا الصدر الأعظم الذى كان في طليعة هواة زهر اللاله ، وحدد للتجار اسعاراً لا يتجاوزونها ، وجعل عليهم رقياً يقال له الشيخ محمد لاله زارى ، وأباح له أن يستصدر الأمر بنفى التاجر ان استزاد . وأصبحت المدينة روضة فيحاء لهذا الزهر ، فكانت تصفف اصصه على النوافذ ، وترف الوانه في مغارسه على جانب الطريق ، وما كان يحل موسمته حتى يركب الناس البحر زرافات زرافات لمشاهدته بحدائق السلطان في سعد اباد فيمرحون ويقصفون ، وهناك تتم فرحتهم

مشاهدة الجياد وهي تستبق في حلباتها ، والرماة وهم يرمون
بالنشاب ، كما كانوا يضحكون للديبة الراقصة والكلاب المتهارشة .
وقد عرف عصر السلطان احمد - أو صدر منه - في التاريخ
التركي بعصر زهر اللاله ، لأن هذا الزهر كان أكثر ما يشغل
الناس ويملك عليهم اعجابهم . وان الزهر لخير رمز لهذا العصر
الملء بالمفاتيح والمحاسن .

وفي عام ١٧٣٠ شق الانكشارية عصا الطاعة ورفعوا
راية العصيان فاقتحموا على مصطفى باشا القبطان حديقته التي
كان يشاهد ازهارها ، فخنقوه مع الصدر الأعظم ابراهيم باشا ،
وقسروا احمد الثالث على التنازل عن عرشه بعد أن ملك سبعة
وعشرين سنة .

ولئن سبق الذبول إلى عصر الزهر قبل الأوان ، لقد نقش
ذكره على صفحات القلوب ، وجرى ذكره على كل لسان ،
وكتب له الخلود بفضل الشاعر التركي أحمد نديم الذي خلده في
شعر يعتز به الترك ويعتبرونه من روائع أدبهم القديم . وكان
هذا الشاعر في أول امره من هيئة العلماء ، واشتغل بالقضاء فقضى
بين الناس بالعدل . ثم عرف ابراهيم باشا فضله ومنزلته ، فاصطفاه

حازنا لكتبه ، وأدنى مجلسه لظرفه وأدبه وطلاوة حديثه ،
ويبدو أنه لم يدم على صفات أهل التقوى والكف عن
المحارم ، فنادم الصدر الأعظم ، وإن هذا التحول في سيرته ليفسر
لنا ما نرى في شعره من جرأة عجيبة وصراحة سافرة . فقد كان
يطرق من المعاني ما يتعنت عنه الشعراء في زمانه . ويذكر
الحقائق عارية ما أن يوارىها ، وفي هذا ما يرضى الفن والتاريخ ،
وإن كان لا يرضى المتحفظين والمتورعين ، ولذلك عرف نديم
بأنه أهدق شعراء الترك لهجة ، وابعدهم عن التعسف والتكلف ،
حتى قيل إن شعره يبدو غريباً عن زمانه المتقدم ، ويصلح أن
يكون لشاعر متأخر ، فهو يخلو من النزعة الصوفية وهذا خروج
عن المألوف في شعر العصر ، ولا أثر فيه لتحديد المعاني ، فنديم
يقول في كل معنى يطيب له أن يقول فيه ، وحديثه عما يقع تحت
حسه أكثر من حديثه عما يحول في خياله ، فهو واقعي بكل
ما تنسج له الكلمة من معنى ، وبذلك صور بيئته فأحسن
تصويرها .

ومن قوله في تعبير ساذج عما يكابد من لوعة الأشواق :
« عودى إلى نجدد عهدنا الخالي اتعالى ، إن لى من حاجيك

هلال عيد . فلنقض معا يوم عيد . ولا جعل منك شمسا للضحى
بكأس من عقار . تعالى ، ان لى من حاجبك هلال عيد فلنقض
معا يوم عيد . أما كفى ما قد جرى ، لقد أبكيت قلبا مستهما
مدنفا ، ومن خيالك أشكو زفرائى وحرقاتى ، اسعدنى يوما بأن
تراك عيني ، تعالى ، أن لى من حاجبك هلال عيد ، فلنقض
معا يوم عيد .

فالرقة والعذوبة طابع لهذا الشعر الذى لا يصدر إلا عن
نفس مشرقة ولا ينعكس إلا عن طبع أصيل . وقال نديم من
أغنية له يدعو صاحبه إلى أن تزور معه سعد اباد ، فذكر الأماكن
والطريق إليها ، فى اطار بهيج يشهد له بأنه شاعر الفرح والمرح ،
والمصور الفنان الذى يوزع الألوان بحذق ودراية على صورته
الجميلة ، لتكون أقرب شيء إلى الطبيعة : « تعالى ، وليفرح هذا
القلب الذى ما عرف الفرح ، تعالى ، ياسرورة تهادى ، سىرى
معى إلى سعد اباد . فهاهى ذى القوارب بمجاذيفها السكثيرة على
أهبة حملنا ، لنضحك ونمرح ، ولننل نصيبنا من هذه الدنيا ،
لنشرب ماء تسنيم من عين تفجرت لنا ، ولنشاهد ماء الحياة يمج
التين . تعالى ياسرورة تهادى ، سىرى معى إلى سعد اباد . وإذا

ماوصلنا إلى حافة الحوض سرنا الهوينى ، وإذا ماقر بنا من قصر
الجنان رفعنا إليه البصر بالاعجاب والعجب ، لتغنى بأغنية من
الأغاني ، أو تترنم بشعر في الغزل ، تعالى ياسرورة تنهادى ، سيرى
معى إلى سعد اباد ، استأذننى أملك فى الخروج ، وقولى انك خارجة
لأداء صلاة الجمعة ! وسنتهز غفلة الدهر عنا يا حبيبتي ، وانه دهر
خوون . سنمضى فى طريق أظالها السكون ، لن يكون معنا
ثالث فطيمى نفسا وقرى عينا ، تعالى ياسرورة تنهادى ، سيرى معى
إلى سعد اباد .

فهل بعد هذا دقة فى التصوير ، وصدق فى العاطفة ، لقد
وصف نديم سعد اباد فلم يستثن منها نافورتها التى لها هيئة التينين
ولا مياهها الجارية فى أحواضها ، وذكر ركوب البحر إليها لرؤية
قصررها والسير فى رياضها . فكان حقا شاعرا ومصورا وراوية
حديثه الصدق .

ولنديم شعر يحب فيه الدنيا حبا شديدا ويتها لك على لذاتها
تها لك عجيبا فيقول : بنا إلى البستان يافضة الخريف وسرورة
المروج ، فالوقت وقت بهجتنا ونزهتنا . هو ذا الببليل يناديك
فإن له من ثغرك وردة يهراها ، بنا إلى البستان . ما أطيب أن

نفسى لحظات عابرات تسعد فيها قبل أن يأتى الشتاء ، فتذبل
بساتين . ولتكن كأس الصهباء فى يدك عوضاً من زنبقة حمراء
ما أشبه هذه الدنيا بحنة المأوى ، فما أكثر الثمار التى تقدم اليها
أتحرمينى ثمرات حسنك الفتان ، وتضمنين حتى بقبلة لا تراها
العيون ! تعالى يا حبيبى يا فتنة الخريف .)

ولما قتل الصدر الأعظم ، كبس الانكشارية دار نديمه
وشاعره ، وشدّدوا الحصار ، فانطق هارباً وأراد أن يثب من
سطح داره إلى سطح الدار المجاورة فسقط قتيلًا بين الدارين ،
فكان بيده لا بيد عمرو : وكف البلبل عن تغريده بعد أن ذهب
الربيع وذبل الزهر .

لأله فى الفارسية هو اسم الزهرة المعروفة بـ Tulip فى الانجليزية

روح حيرى

والقوا اسماءكم ! لقد نفخ الروس فى الصور ، والقوا بالكم !
فان للطبول دويا يصم الاسماع ، وارفعوا الصوت بالنواح
والعويل ، فقد رفع المتحاربون الصوت بالتكبير والتهليل ،
ولتخطم هذه التيمود ، فان الموت يأتى الأسود ، هاهو ذا جيش
لو رايتموه ورايتم النجوم ، لتحيرتم ، أليه تنسبون الكثرة
أم اليها . يا أسدا كالحمار أو باحمارا له هيئة الأسود ، ان اللب
لا يعلم أيها أفضل فى الظفر معه بنصيب الأسد الحمار أم الأسد !
هيات هيات ، لن تتحقق الوعود الكاذبة ، انما نحن
مسوقون الى ابواب الجحيم . انا من نصحت لكم ، فلم تسمعوا
من نصحى ، انا من وعظتكم فهزأتم بى وجعلتم كلباتى دبر آذانكم .
لقد بدا اللب من وراء الجبل ، وراه حبيبي فحن حنينه وذاب
شوقا اليه . ثم مضى ليلقى بنفسه بين ذراعيه ، فكان اللقاء لقاء

حبيدين ، ويلاه لقد اصبح الشرق من نصيب الدب ، والغرب
من نصيب الأسد ا ،

هذا بعض من قصيدة للشاعر الإيراني محمد الباقر ، وقد
نظمها عام ١٨٨٢ اثناء مقامه ببلاد الانجليز فسميها (الشمسية
اللندنية) ، وهى طويلة مفرطة الطول ، يتجاوز عدد ابياتها
الثلاثمائة والستين ، واذا ما قطعنا النظر عن قيمتها الفنية ، الفينا
وثيقة تاريخية على جانب من الأهمية ، فقد صور صاحبها حال
إيران فى عهد الشاه ناصر الدين . وبين كيف تسلط الأجانب
عليها تسلطا تتأذى به نفس الحر ، ولا يرتضيه من عمر قلبه بحب
وطنه .

وفى هذه القصيدة سخرية لاذعة وتهكم مرير ، ثم هجاء لمن
يستحق الهجاء . واذا اتصففت ببعض الجودة ، فقد كانت من
صاحبها بيضة الديك كما يقولون ، وما ذاك إلا لأن محمدا الباقر
لم يكن شاعرا مجيدا ولا معدودا من اولئك الشعراء الذين
يصدرون عن طبع مداد ويستوحون ملكة ملهمة ، غير ان
ما يلفتنا اليه ويبعثنا على التحدث عنه ، هو شخصية غريبة وعقيدة
حبرى ، وغرام فيه الأعاجيب ، واحوال تقلبت به فجعلت من

حياته اشبه شيء بحديث عبقر ، او قصة من نسج الخيال .
فقد كان محمد الباقر في اول امره طالب علم يداوم النظر في
مسائل الدين . ويردد الفكر في الملل والنحل ، فيعرف باستقامة
المنطق وثبات العقيدة والوقوف عند الحدود ، ويجعل على نفسه
ان يأخذ المعنى من ظاهر اللفظ ، فيحرم تأويل آيات الذكر
الحكيم كراهة ان يحور به ذلك عن قصد المحجة فيضل مع
الضالين . وشاء الله ان يجمعه بالسيد جمال الدين الأفغانى ،
فتكون بينهما الفة وصحبة ، واتفاق على جمع المسلمين ولم
شعثهم فيما يسمى باتحاد الاسلام ، واصبح لمحمد الباقر شأن
وعلو منزلة ، فبصّر الناس بأمور دينهم ، وتصدى لوعظهم
وارشادهم ، وتنقل في ايران من بلد الى بلد ، ترمقه العيون
وتهوى اليه الأفئدة . واتفق ان كان في احد المساجد مع السيد
جمال الدين الأفغانى فصعد المنبر بعد الفراغ من الصلاة وقال :
« ايها الناس ؛ ان كنتم في ريب مما اقول ، فانا اقسم بحمد السيد
جمال الدين على انى امامكم الغائب ، ولكم على ان اظهر الكرامات
وآتيكم بالمعجزات لتطمئن قلوبكم ! » .

وما سمع الناس ذلك منه حتى علت صيحتهم باشد الغضب

فاضطرب بعضهم في بعض ، وقاموا لينكسوه عن المنبر ، ويقتلوه
شر قتلة على ما كان في رأيهم كفرا والحادا . ولم يصددهم عن
غايتهم الا السيد جمال الدين الذي حال بينهم وبينه ، وطلب ان
يخلوا سبيله ويكلوا اليه أمر قتله ، متظاهرا بأنه سيقته من غده
بظاهر المدينة . فتمت الحيلة ونجا محمد الباقر من فتكة الغاضبين
عليه .

وعرف انه جاء شيئا فريا . فلم يأمن على نفسه ، واضطرب
في مناكب الأرض ، واستقرت به النوى في انجلترا . وهناك
اشتغل بتدريس الفارسية ، وكان مدعاة لفخره ان يتخرج عليه
المستشرق الكبير ادوارد براون ، وعرف فتاة من بنات
الانجليز ، كانت بارعة الحسن فشغفته حبا ، وكان للحب سلطانه
وغايته التي لا ينفك عن السعى اليها ، ألا وهي الزواج ، فتم
الاتفاق عليه ، ولكن بشرط يخرج عن مجرى العادة ولا يخطر
بالبال . فقد ارادت به صاحبه الانجليزية ان يرتد عن دينه
ويستبدل باسمه الايراني اسما انجليزيا . ويلوح ان ما وقع لمحمد
الباقر في ايران من امر كاد يهلكه ، قد هون عليه ان يأتمر بأمر
فتاته . فارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية ، واصبح جون بعد

ان كان محمدا . غير انه ظل على عادته من تقليب الرأى فى العقائد .
وتصويب بعضها وتفنيد بعضها الآخر ، والتقى بعالم من علماء
الاديان يقال له تيلور ، فاحتدم الجدل بينهما ، وتمسك كل
منهما بوجهة نظره ، حتى انتهى الامر بالمهاترة ، واغضب
زوجته ان يرى مالا ترى ، ويجهر بما تتأذى له نفوس المؤمنين
من اهل دينها ، فطلبت الفراق . وساء له ذلك منها فحزن واستيأس .
ثم هجرها كما هاجر عن بلادها الى فرنسا . وفى باريس ساءت
حاله واجهدته الفاقة وطلب عملا يدر عليه رزقا ، فاشتغل
بالترجمة فى جريدة « العروة الوثقى » . تلك الجريدة التى كان
يصدرها السيد جمال الدين الافغانى فى اوربا لرفع لواء الاسلام ،
والمطالبة بحقوق الشرق الناهض ، وجدد صداقته للسيد ذا كرا
بالخير أيامه فى ايران ، وشاكر له ذلك الجميل الذى طوق به
عنقه . يوم استنقذه من الهلاك المبير بحضور البديهة ولمح
الذكاء .

وسرعان ما اندملت جراح قلبه ، وعاود الربيع روضة أمه ،
فاشتاق حبيبا يؤنس ، وزوجة يسكن إليها ، ووجد
ضالته ، فخفق فؤاده لفتاة فرنسية تزوجها ، وكانت بديعة

الحسن مرهفة الشعور بالجمال ، كريمة النفس ، تعرف لزوجها
حق طاعتها له ، فنسقت داره ، وزادت الحياة إليه طيبا ، إلا أن
الإمان لم يفلقه من كيده ، فعكز صفوه ، وجعل النعيم شقوة
وبلاء ، واعتلت الزوجة الحبيبة وقال الطبيب انها ذات الصدر ،
فلا أمل في الشفاء إلا بالرحيل إلى لبنان ، ورحل الرفيقان إلى البلد
النازح إلا أن أيام العليمة لم تطل فمضت ، وخلفته وحيداً مستوحشا
في أرض ظن أن طيب هو أنها يشفيها ، فكان قبرها فيها ، وجزع
الرجل جزعا شديداً وكره الحياة بعد أن فارقها من كان يحبها
إليه ، وعول على التخلص من عيشه الشكد وحزنه الممض ، ولم
يجد الوسيلة إلى ذلك إلا بالانتحار ، وصح منه العزم فيها قارورة
تحتوى على سم ساعة ، وخرج إلى طرف بعيد من أطراف
المدينة ، وكان الوقت وقت الغروب ، فوقف واستند إلى جدار
وهم بوضع القارورة على فمه ، إلا أنه تلبث قليلا ، وجعل يرنو
إلى الشمس الغاربة ، وكأنما أراد أن يتزود من جمالها بآخر
نظرة له في هذه الدنيا ، أو أن غروبها أوحى إليه بمعنى الموت
فردده في نفسه ، ثم أخضلت عيناه وتحركت شفثاه بقوله :
« اللهم انى أحسو هذا الشراب المميت لا لحق بها ، وان كنت

مذنبا فاعتفر منى ذنوبى ، لا طاقة لى بفراقها وهجرانها ،
وبينا هو يهمس بهذه الكلمات إذا هرة تقفز من أعلى الجدار ،
وتمس يده فى هويها ، فتسقط القارورة منها ، وتنتثر كسارتها على
الأرض ، فشده لذلك محمد الباقر ، واحزنه أن يرغب فى النجاة
من أرزاء دهره ، فيأبى عليه إلا أن يذيقه المزيد من المم وعذاب .
وهم بالعودة إلى داره فاستوقفته فتاة عربية كانت واقفة على
سره ، وناظرة من بعيد إلى ما حدث ، فأرأت تلك الصدفة
العجيبة حتى سرت لها أعظم السرور ، فسألته عن خبره واحسنت
عزاه . ثم تم التعارف بينهما ، فواسته واسعدته ، وانسته مالم
يخطر بباله أنه سوف ينساه ، إلا انها ذكرته بزوجه الانجليزية
التي شرطت عليه أن يعتنق المسيحية ، لأن العربية رغبة ت إليه
أن يعتنق دينها ، فرق قلبه لدينه الذى ولد عليه واسلم وحسن
اسلامه .

ومضى على هذه الزيجة نصف عام ، وشعر محمد الباقر أنه
يحيا حياة آمنة مستقرة . فلم يعد غريبا عن بلد ولا أهل ولا
دين ، وخالجه الشوق إلى أن يعود إلى إيران لرؤية الوطن
والعشيرة بعد أن شرد فى الأرض واعتورته الخطوب . ورجع

إلى بلاده ، إلا أنه لم ينعم فيها بأوبة الغريب وفرحة المشتاق
فقد قتل بطهران عام ١٢١٠ هجرية .

وسكنت هذه النفس الحيرى ، إلى كتب عليها الا تثبت
على عقيدة واحدة ، ولا تنعم بغرام واحد ، ولم تعرف الهدوء
ولا القرار . فلما سكنت بعض السكون كانت كالموجة موتها فى
سكونها .



ان كان للآداب سمات عامة تلوح عليها ، فللآداب التركي من
كثرة الشواعر سمة تميزه ، وان اعتز قوم بالنساء فيهم اذا سمت
مداركن ورقيت ثقافتهن ، على أنهن عنوان نهضة ومعيار تقدم ،
فللترك أن يعتزوا من بناتهم بمن اتسعن في العلوم ، والهمن عبقرية
الشعر ، فاخرجن الكلام أحسن مخرج ، وكن في دولة الآداب
ملكات لمن جمال وجلال .

وانا نخمّن هنا بالنظر شاعرتين هما فطنت هانم وليلى هانم ،
فكلتاها من بليغات النساء ، ولها في الشعر منزلة أى منزلة ، والأولى
أشعر تركية في عصرها ، أما الثانية فتتلوها في مرتبتها ، وقد
وصلت بينها حباتان متشابهتان ، ونزعتان لا تختلفان .

ونشأت فطنت هانم في بيت علم وفضل ورفعة ، فكان أبوها

محمد اسعد افندى شيخا للاسلام على عهد للسلطان محمود الأول
كما تبوأ اخوها هذا المنصب العظيم على عهد عبد الحميد الأول ،
وعرف الشيخان بالميل إلى الأدب والطرب للشعر ، ووجدت
الفتاة قدوة حسنة فتأدبت وأخذت من كل فن بطرف ، ولما
اكتمل شبابها ، زوجها أبوها من يقال له درويش افندى ،
وكان رجلا خامل الذكر ساقط الهمة ، لا عقل له ولا لسان ،
فأساء عشرتها ونغص عليها عيشها ، وصدق عليهما قول الشاعر
الفارسي : « ما من رجل إلا وبه حرٌ شوق إلى من يسكن إليها
وينعم بصحبته ، غير أن الوفاق بيننا أمر دونه شيب الغراب
فما حدثتها عن السماء يوما إلا حدثتني عن الأرض ! » وشرط
صحة هذا الكلام هنا ، أن يكون على لسان الزوجة لاعلى
لسان زوجها ، ففطنت من هي رقة حاشية ووزانة عقل ، أما
درويش افندى فهو ذلك الشيخ الأغم القفا الراكد النسيم ،
فكيف يجتمع الضدان وانى يتفق الزوجان ؟

وقد عرفت فطنت بنزعتها الى الدعابة والفكاهة ، ويبدو
ذلك غريبا بمن تغص بالأسى من زوج سوء أنسكده ، فلنا أن
نرده الى ما يعرف عند علماء النفس بالتفيس ، كما يتكلف الغاضب

أن يضحك ، أو بالتعويض كأن يلتمس المحزون لنفسه مسلاة
وملهاة ، وليس بمستبعد أن تمتلئ نفسها بها بشاعريتها وإتيانها
بما يقصر عنه باع الرجال ، فتشعر بحقارة الغير أمام عظمتها ،
وتهزأ بهم وتستحققهم . ومصدق ذلك قصة وقعت لها مع شاعر
يقال له حشمت ، فقد اتفق أن خرجت يوم عيد الأضحى لشراء
أضحية ، ورأت الناس مجتمعين أمام جامع بايزيد عند قطيع
يشاهدون كباشه للشراء منها ، فوقفت مع الواقفين وكانت وقفها
إلى جانب حشمت ، فالتفت إليها وسألها عما جاء بها ، فقالت
إنما جاءت لشراء أضحية ، وأحب أن يمزح متأدبا فقال لها
لأقدم نفسي قربانا ، وما كان منها إلا أن أجابته بقولها : « انت
معيب القرن ، ولا تحل أضحية هذه صفتها ! » . ولها معه خبر
آخر نجتزيء باجماله عن تفصيله ، فقد قيل ان حشمت كان مارا
بدارها ولما أبصرت به ، أمرت جارية لها فأطلت من النافذة
وجعلت تسخر منه وتشبهه تشبيها مضحكا بطائر غريب ، لأنه
كان خفيف اللحية والشارب ، فبادلها سخرية بسخرية ، وأبلغت
سيدتها ما قال ، فرددتها إلى النافذة بكلام قبيح كما عادت إليها الجارية
من الشاعر بكلام أقبح ، وان حمل على كونه أفكوهة وأملوحة

والرأى منعقد على أن شعرها متصف بصدق العاطفة وصراحة
التعبير عنها من غير ما تعمل ولا احتشام ، وهذا لا يشاهد عند
شعراء عصرها إلا في النادرة ، وينطوى ديوانها على غزليات
أنيفة تؤلف قسمها منه ، ويضم قسمه الثاني شعرها في المدائح
النبوية ، والمناسبات العامة كأعياد جلوس السلطان ، وأعياد
ميلاد الأمراء ، ومن قولها في الغزل : « إذا بسم الحبيب ، فللحياء
حمرة في خدود الورود ، وإذا انتنت غدائره ، ننت الأزهار
رءوسها غيرة منها وحسدا لها . لى من فؤادى أضعف الطيور ،
ولك من عينيك نظرة الصقور ، فالفؤاد صيدك ، وإن كان عنقاء
تكبر أن تصاد . إن كان ثغرك كما لم يتفتح ، فليهنك إن الندى
دمعى ، وهل تتفتح الأكمام إلا لتساقط الأنداء ؟ إن كنت تأملين
أن تموتى غراما يافطنت ، فسكونى قبل الذهاب ، ثرى عند
أبواب الأحباب ، ولها عاطفة دينية مشبوبة تتجلى في مديحها
للنبي صلوات الله عليه ، وهذا المديح منها جرى على عادة الشعراء
وإن فاتنا منه معنى جديد ، لم يفتنا حسن الأداء والابانة عن
القصد . وهذه أبيات في عدة مواضع من إحدى مدائحها :
ما كان خلق العالمين إلا من أجلك ، وكل شيء فى الوجود

باسمك . يا حبيب الله ، لك حسن يهر عين الشمس والقمر ،
يامبدأ العالم وسبب وجوده . يا صاحب الخلق الكريم الطاهر
لولالك ما كانت الجنات ، وما دخلناها لولا البر منك والكريم .
يا صاحب المعراج ونخري النبيين ، الناس وقوف ييا بك من سوقة
وملوك ، وهم اليك يسطون أكف الضراعة والحاجة . ، وكانت
وفاة فطنت هانم عام ١٧٨٠ .

أما ليلى هانم فقد درجت هي الأخرى في بيت كريم ، وتولى
تعليمها شاعر من ذوى قرباها يقال له عزت ملا ، ثم كان زواجها
في ريق شبابها ، إلا أن هذه الزيجة لم تدم إلا أياما سبعة ، ولم
تكن الملامة في ذلك على زوجها كما هي الحال في زيجة فطنت هانم
وإنما كان الذنب ذنبها ، فقد كانت حادة الطبع ، شديدة الكبرياء
معتدة بنفسها إلى أبعد مدى ، مستعلية على غيرها ، لا تنثنى عن
عزم ولا تسكت ثلوم ، فلا جرم ان ضاقت بالحياة الزوجية
وكرهت قيودها ، وأصبحت المطلقة أكثر سخطا على الناس
واستخفافا بهم ورغبة في الغض من شأنهم وتسفيه رأيهم ، فما
القت بالا إلى الهمز واللمز ، ولا أهمها أن يرجف المرجفون
ويتقول المتقولون ، فينسبوا اليها أقبح عيب يؤذى امرأة في

شرفها . وسامت سيرتها فاستهزت بكل شيء ، ولم تملك انزواتها
زماما ، حتى ان احد الوراقين نظم بيتا فيها تناقله الناس ، وقيل
بسمع منها فأثار ضحك الضاحكين وهزم الهازئين ، ولا يسعنا
هنا إلا نظوى ذكره لفحشه .

وقيل انها عرفت شابا وسيما يصنع الشمع ، وقد راقها
وسامته فكانت تكثر من زيارته في دكانه ، وكان الفتى حيا شديدا
الحياء ، إذا كلمته لا يكلمها ، ولما شاع الأمر نظم جاره شطرة
لقنه اياها ليقولها للشاعرة وهي : « لاتديمي النظر بالاعجاب
إلى شمع خدى ، لاتحترق بنارى ! » وما سمعت منه ذلك حتى
اجازت بقولها : « إذا طر شاربك وبلغت مبلغ الرجال فاستعين
بنور شمعك على رؤيتي . »

وشعرها سهل معناه في ظاهر لفظه ، وليس فيه من الصناعة
إلا ضئيل أثر ، وتفهمه لا يكدر الفكر ولا يبعث على ترديد النظر
وهذا وجه للشبه بين شعرها وشعر فطنت هانم ، ويمكن القول
بأن شعرهما غريب على عصرهما .

وليلي هانم شاعرة غنائية إلى حد كبير ، أو إلى أبعد حد
إذا ذكرنا ندرة هذا الشعر الغنائى في زمانها ، ويفتح ديوانها عن

شعر ديني في مناجاة الذات الالهية ومدح الرسول الكريم
والترحم على آله ، وتدخل من ذلك على رثاء الحسين وآل بيته
فتطيل الرثاء وتجيده قائلة : « لقد وافى المحرم ، ويلاه من يعبني
على هذا الشهر ، ففيه لا يرقأ دم لعيني ، وان الفلك الغدار لينكأ
جراحاتي فمن لي بدواء لما في القلب من حركات . وحق لمح
أهل البيت إلا يسيغ الماء حزنا كأن السهام في جرعته ، ففي مثل
هذا اليوم كان ما كان من يزيد ابن السفية حشو جهنم ، هو خنزير
وليس من البشر ، فمثل هذا الظلم لا يعرفه بنو الانسان . »

وليلي ترث أباه وأخاه ومؤدبها عزت ملا ، وشعرها في
الرثاء رقيق يعبر عن لوعة الحزن في بساطة وسذاجة ، ولها
عناية ظاهرة بتنسيق ألفاظه ، فهي تكرر بعضها على نحو رتيب
يذكر بالناتحة الشكل وهي تمذب الميت رافعة صوتها بالعويل
والنحيب وقد صدرت في هذا الشعر عن طبيعتها النسوية ، فبدت
شديدة الوضوح بكل صفاتها . قالت ليلي : « ان للاشواق نارا
تلهب القلب مني ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، أو اه لا طاقة
لي بتباريح الآسى ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، لقد ارتحل
أبي عن دنياي ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، فلستخذ من

نوحنا وصدرنا نابا ودقا ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق .
لقد رفع أبي إلى عينه وهو بالنفس يجود ، فهل حزن لقلبي
الصديع ؟ لقد أصبح في التراب ترابا ، الفراق . آه الفراق ، آه
الفراق ، الله في هذا القلب الكريم ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ،
واذا ما انصرفنا عن شعرها هذا الباكي ، وجدنا لها شعرا
ضاحكا مرحا ، ورأيناها في غزلها تجهر باستهتارها ، وتطالب
إلى العدول أن يكف اللوم عنها لأن لها أذنا لا تصغي ، فتطلعنا
على نفس تحب الحياة كل الحب ، وتحرص على المتعة كل
الحرص ، فكأننا أمام شاعر من المجان ، لاشاعرة من ربات
الخدور ، تقول ليلى : « إلهي . لنا مجلسا للانس ، وليقل
القائلون ما يقولون ، وأرشف الصهباء مع الحسناء . وليقل
القائلون ما يقولون . لقد اشبع العاشق الوطان ذوائبها العنبرية
ثمنا وشما في الليلة الحاملة ، وليقل القائلون ما يقولون ، وتقيد
القلب بقيد من شعرها ، فبالله ما أشوقني الى هذا ، وليقل
القائلون ما يقولون . لافرق عندي في هذه الدنيا بين مدحى
ومذمتى ، فأيا أخذ الأحباب فرصة اللذات ، وليقل القائلون
ما يقولون . »

وكان عام ١٨٤٧ هو العام الذى قضت فيه ليلي هانم ، وان
الساوك الذى سلكته هاتان الشاعرتان فى حياتهما ، والجرأة
التي أظهرتاها فى شعرهما ، لما يزين لنا أن نتعرف البواعث
النفسية عند الشعراء عموما ، والشواعر خصوصا

أبى ظلم

ان كان من المألوف أن يعق الابناء الآباء ، فمن غير المألوف ان يظلم الآباء الابناء ، وياقلما اظهروا القسوة عليهم والعنف بهم، ويمكن تفسير ذلك تفسيراً جليلاً بأن للطبيعة حكمتها التي تجد حاجة الطفولة العاجزة واليفوع القاصر إلى العائل الشفيق والقيم المحب، فتودع قلب الوالد ما لا تودع قلب الولد من رقيق العاطفة واكيد المحبة . ولأمر ما كان انحراف هذه الظاهرة في النادرة . وان ذلك ليمتدح على كد الفكر وترديد النظر ، شأن كل عجيب يدعو إلى التساؤل ، ويشير الرغبة في تعرف ما عسى أن يكون من سبب . وما دمننا نعالج أمراً واقعاً ، فأحرى بنا أن نضرب المثل بحقائق التاريخ التي لا مرية في صحتها ، وهو أفضل بكثير من أن نستلهم الخيال قصة ليست بكائنة .

ففي تاريخ الفرس ملك من اعظم ملوكهم يقال له الشاه عباس
الكبير ، وكان متعدد الزوجات متعدد الأولاد ، غير انه يؤثر
من ذريته ثلاثة ، وهم صفى ميرزا ولده الأرشد ، واخوان له هما
خدا بنده وامام قلى . وقد استحق صفى ميرزا من أبيه ان يكون
له محبا معزا مكرما . فهو المقدام المغوار ، والعاقل الحصيف ،
وولد تقرب به عين والده ، وولى عهد نال منه كل ما تمنى ، لأنه لم
يكن ليحول بينه وبين امر يطلبه ولا رغبة يشتهيها .

وقد اتفق لهذا الأمير الشاب أن رأى جارية شركسية حديثة
الورود إلى حريم أبيه ، وراقه حسننها ، ف وقعت في قلبه واستأذن
في أن تكون زوجته له ، فما كان من الشاه عباس إلا الرضا
والقبول ، فزفت الشركسية الحسناء إلى الأمير الفتى ، في حفل
بهيج اشرفت به ليالى اصفهان الجميلة .

ولم يكن بين الشاه وولى العهد إلا حب الابوة وبر البنوة .
إلا أن رجال القصر وحكام الاقاليم وعظماء الدولة لم يرتضوا
هذا الحاجة في نفوسهم ، فقد كان الشاه عباس الكبير يحكم بالحق
ويسوس بالعدل . حتى قيل ان ايران لم تعرف له نظيرا في تاريخها
الطويل . لأنه قبض على ازمة الحكم بيد قوية ، وصرف شؤون

الدولة بعقل ودراية ، فمضى ببلاده قدما إلى المجد والفخار ،
واستلزمت سياسته الرشيدة أن يكون الحاكم المطلق الذى
لا يشرك معه فى الحكم أصحاب المطامع والاهواء الذين يسوءهم
أن يمحى سلطانهم بجانب سلطانه ، ويصبحوا ولا حول لهم ولا
طول ، ولا يظلمون مع رغبتهم فى الظلم ، ولا يتسلطون على
حبهم للتسلط ، وأعجزهم أن يلينوا من قناته ويكسروا من شوكته ،
فزين لهم شيطانهم أن يعملوا الحيلة ويركنوا إلى الدهاء ، رجاء
التخلص من الشاه ، فاذا تم لهم ذلك ، استردوا ما فقدوا ،
وحققوا ما أملوا . فرأوا أن يقتلوه ، واستقر على ذلك رأيهم ،
ورأوا لهم عهدا سعيدا يوم يخلفه صفى ميرزا ، فهو أخف وطأة
عليهم ، وأسهل قيادا ، وأقل بالسلطة استئثارا ، وعزموا أن
يتواطأوا على قتله مع ابنه صفى ميرزا ، بيد أنهم لم يكونوا على
ثقة من قبوله النزول على رغبتهم ، واجابة مؤلهم ، وأحبوا أن
يطلعوا على سريره من طرف خفى ، فكتبوا صحيفة ضمنوها
ما يطلبون إليه ، وانفذوا من تسلل تحت الليل والقاهها فى داره .
وحمل اليه الخدام الصحيفة ، فما اتم قراءتها حتى أخذ منه الأسى كل
مأخذ ، لأنه كان حريصا كل الحرص على أن يذود عن أبيه كل

شر واذى ، وكاد من غضبه يمزقها شذر مذر ، إلا أنه تمهل
ورأى الاحتفاظ بها للتعرف على من كتبها ، واطلاع ابيه على
ما جاء فيها ، ولما أصبح الصباح طلب ان يخلو بالشاه ، ثم اخرج
الصحيفة من اثناء ثوبه ودفعها اليه ، ولما وضعها الشاه تحت
بصره وعرف جليلة الامر ، ساورته الريبة واوجس خيفة ،
وخاف الشر من ولده الذى لم يضمن له شرا ، وخال هذا الصنيع
منه محاولة لخداعه ، وسبيلا يسلكه المسىء للايهام بأنه برىء ،
وان كان ابدى لولده غير ما يخفى ، فحمد له ان نبهه الى ما كان عنه
غافلا ، وبارك فيه بره به ، ولكن الفزع اطار فؤاده وسوء
الظن حير فكره ، ورأى نفسه مقتولا ان فى الحال او فى المآل
فانخلع قلبه ولم ياتمن على الوفاء أحدا ، وهجس فى خاطره ان
ولده لاشك غادر به ، فقد ينسب المفسدون فى الغد قلبه عليه ،
بعد ان كان بالأمس صافياً له ، ووسوست فى صدره الاوهام
والوساوس ، فعز منامه مخافة ان ينتهز منه غفلة للقتل ، ولم يسغ
طعامه ولا شرابه خشية سم يدس له ، ولم يشعر بالامن والقرار
حتى بعد ان غلق الابواب واوقف الحجاب ، وهام به الخيال
ولم يستقر فكره على شيء ، وان كان لابد للطيران يقع ، فقد

وقعت ريبته على ولده صفى ميرزا ، فصب عليه ثقمته
وضاق الشاه عباس بمقامه فى اصفهان حاضرة ملكه ، فرأى
ان يزايها الى بلد آخر ملتمسا فى ذلك ان ينفس عن نفسه كربتها ،
فرحل عنها إلى الشمال ، ولم يفته ان يصحب ولده ، ليأمن منه
تدبير شر له ، مع رفيقة السوء ، وهو غائب عن اصفهان .
وايقن المتآمرون ان صفى ميرزا خيب ظنهم وبدد احلامهم ،
واسخطهم ذلك عليه ، فعولوا على أن يكيدوا له ، ويسعوا به
الى ابيه ، والقوا فى روع الشاه ان ولده يجتمع بثلة من اصحابه
كل ليلة كأنهم يدبرون امرا ، فقطع الشك باليقين وتجرد من
عاطفة الأبوة . واصبح لابنه كارها بقدر ما كان محبا . وصح
عزمه على حسم الشر بالسيف ، وغلبه ما جبلت عليه النفوس
من أثره ورغبة فى تنازع البقاء ، فانتوى أن يقتل ولده قبل أن
يقتله ، واستدعى قائدا من القواد كان مصطفىه ويجل منزله
ويفضى إليه بسره ، وناط به أن ينفذ مشيئته ، فسل القائد سيفه
وركع بين يدي مولاه قائلا : . والله لأحب الى أن تضرب عنقي
بهذا السيف الحسام ، من أن أقدم على قتل ولى عهدك ، لقد
اسبغتم على نعمكم ، فكيف أمد يدي باذايتكم ؟

ولولا تمكن القائد عتد الشاه لنال جزاء وفاقا على ما كان
من عصيانه للأمر ، ولكن الشاه كظم غيظه وأسرها في نفسه
ثم وكل هذا الأمر إلى رجل من بطانته يدعى بهبود بيك فصدع
بما أمر ، واشتمل بسيفه . وانتقل إلى دار صفى ميرزا ، وسأل
عنه ، فقيل له أنه ذهب إلى الحمام ، وسعى بهبود بيك إلى حيث
يجده ، وبينما هو في الطريق ، صادفه عائداً ، فأخذ بعنان فرسه
قائلاً : « رجل أيها الأمير . لقد حكم عليك أبوك بالموت ،
وجعل إلى أن أنفذ فيك هذا الحكم . »

وما سمع الأمير هذا الكلام حتى رفع بصره إلى السماء وهو
يقول بصوت يهدج : « رباه أى ذنب كان منى حتى يأمر أبى
بقتلى ؟ اللهم اقتصل من عصبة السوء ، لقد كادوا لى وسعوا لى ! » ،
وقتل الأمير شر قتلة ، وقال القاتل انه إنما قتله لأنه كان
قد سبه ، ثم انطلق هارباً إلى مولاه وأخبره الخبر . وطلب
الآمان فأمنه ، وكافأه على فعلته الشنعاء برفع مرتبته . ولجت
بالآب قسوته وغلظته فطلب رأس ولده وجعل ينظر إليه
نظرات الحقد والشماتة

وليس مقتل صفى ميرزا بالمثال الأوحى من فظاظة الشاه

عباس وقسوته على أبنائه فقد كان الأمير خدابنده مغواراً جسوراً ، نال نصراً مبيناً في بعض الحروب ، فعرف الناس فيه بطلاً مظفراً . وطلبوا أن يكون ولياً للعهد ، فاغضب ذلك الشاه ، وأظهر هذا الغضب بقتل مؤدب الأمير ، فدخل على أبيه محتجاً وكلمه بكلام غليظ حتى جرد سيفه ملوحاً به ، فأمر الشاه عباس بخدابنده فسمت عيناه واختلط عقله لذهاب بصره فقتل فاطمة وهي جارية لأبيه وكان لها محبا ، فانتقم منه في جاريته كما انتقم منه أبوه في مؤدبه . ثم تجرع السم ومات . وقيل أن الشاه سمل عيني ولده الأصغر كذلك لأمر نقمه منه .

فما حكم التاريخ على هذا الرجل ؟ يقول مؤرخ إيراني باستحالة ادانته ، لأننا لا نعلم يقيناً تلك الأسباب التي دفعته الى ما كان من قتل وسمل عيون ، ويريد ليخفف عنه ذنبه وعيبه بقوله انه اظهر جزعاً شديداً على ولده صفى ميرزا ، ولم يفلت الواشين من غليظ العقاب ، وجعل من المكان الذى قتل فيه موئلاً من لاذبه امن على نفسه من عدوه ، كما بلغ من حزنه أن امتنع من لبس الثياب المزركشة ، وأوصى بالملك من بعده لسام ميرزا ولد صفى ميرزا ، وكانت منه هذه الوصاة وهو يجود بنفسه سنة ١٦٢٩ .

ويميل مؤرخ اوربي الى تبرير ظلمه وقساوته بباعث لابد
ان يكون قويا ، فليس يصح في الفهم ان تسفك النزوة دما ، ولا
ان تذهب التهمة بصرا ، ويذكر بعد ذلك أن الشاه عباس كان
ملكا عاقلا عادلا .

ومها يكن من قول المؤرخين فالرأى عندنا ، أن نفرق بين
الرجل كملك وانسان ، فهو ملك عظيم ومصلح من الطراز الأول ،
إلا انه انسان خسيس ميت العاطفة عليل النفسية ، ولا تعارض
مطلقا بين هذين الجانبين فيه ، وان يكون العظيم عظيما بكل
صفاته ، وانما اعجابنا بالعظماء ينصب على ناحية أو نواح ، وليس
لزاما ان ينصب على كل النواحى . فبعض صفات الشر لا تنفى عن
العظيم عظمته ، وبذلك يكون الشاه عباس الكبير خير الملوك
وشر الآباء .

حَقَايَةِ عَابِرِ الْبَيْلِ

فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ ، قَالَ الشَّاعِرُ الْفَارِسِيُّ سَعْدِيُّ :
وَكَانَ خَلَقَ الْإِنَامَ جَمِيعًا مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ مِثْلَهُمْ
كَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَّتْ مِنْهُ جَارِحَةٌ ، تَدَاعَتْ لَهَا سَائِرُ الْجَوَارِحِ
بِالشَّكْوَى ، وَإِنْ بَيْنَ بَعْضِهِمْ وَبَعْضِهِمْ مَا بَيْنَ الْعَضْوِ وَالْعَضْوِ مِنْ
سَبَبٍ وَأَصْرَةٍ ، فَلَنْ يَحْقُقَ أَنْ تَسْمَى بِالْإِنْسَانِ ، إِنْ كُنْتَ لَا تَشْرِكُ
إِخَاكَ فِي الْأَرْزَاءِ وَالْأَحْزَانِ .

مِنْ هُنَا الشَّعْرُ تَصْوِيرُ أَمَلِكِ النَّزْعَةِ الْإِنْسَانِيَةِ الَّتِي تَمَرُّ بِهَا
الْقُلُوبُ ، فَيَرْتَفِعُ السَّعِيدُ لِلشَّقِ مَا هُوَ فِيهِ ، وَتَدْرِكُ الْقَوَى رَقَّةَ عَلَى
الضَّعِيفِ ، وَتَأْخُذُ الْقَادِرُ رَافَةَ بِالْعَاجِزِ . كَمَا فِيهِ تَفْسِيرٌ لِمَعْنَى
الْإِحْسَانِ الَّذِي يَسْمُو بِأَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ ، وَيَأْخُذُ بِيَدِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ
رُكْبِهَا ، فَيَكُنِي مِنْ نَقْصٍ ، وَيَشْفِي مِنْ عِلَّةٍ وَيُصْلِحُ مِنْ عَيْبٍ ، فَبِهِ

حفظ لـكيان الحياة ورغبة في جعل سعادتها بديلاً من شقتها ،
وكان تراحم الناس وتوادهم يتفرع في النفوس عن اصل هو
حب الحياة وطول البقاء .

واحتساب الخير عند الله وتقديمه في سبيله ، جعل الكلمة
سبيل مدلولاً خاصاً ، فاقترنت بكثير من الصدقات ، كأن يقال
عملت التواييت لتفصيل الموتى للسبيل بغير أجره ، وان فلانا
كان يقيم في كل سنة سبيلاً للحاج ، وسير معه جميع ما تدعو حاجة
المسافرين اليه في الطريق ، ومكتب السبيل هو المكتب الذي
لا يلزم الصيادان في دخوله شيء ، ومن أخص ما يسمى بالسبيل
سبيل الماء ، وهو بناء صغير أو كبير يشرب منه ، وتجري العادة
بغرس شجرة أو شجرات تمتد عليه واراف الظلال ، ليكون مثابة
وماوى لعابر السبيل يلوذ به من لفحة الهاجرة ووقد شمسها ،
فيرتوى من حرقة الظمأ ، ويجد برد الراحة بعد طول الاين
والاعياء ، فكأنه كان يضرب في الصحراء المشمسة العطشى ، ثم
عاج بواحة خضراء فيها ظل وماء .

وكان للترك ميل وشديد اختصاص باقامة السبل ، فهي
أول ما يقيمه محسن يجعل قدراً من ماله حبساً على الخيرات

ملتصبا دعوة صالحة له من متوضيء أو ظمآن ، ولنا أن نعلل
اهتمام الترك هذا بتلك السبل تعليلا تاريخيا . فاذا رجعنا إلى
استانبول في سالف زمانها ، وجدنا أن الماء لم يكن وفيرا بها ،
حتى أنشأ السلطان سليمان القانوني ما عرف بالعيون الأربعين
فكثرت الماء بالمدينة بعض الكثرة ووجد الناس حاجتهم منه ،
وخزن لتجرى به مجاريه عند الضرورة ، وتنافس المتنافسون
من أهل الخير في إنشاء السبل ، قيل وكان لأحدى نساء السلطان
سليم الثاني حمام عظيم ، إذا فضل عنه ماء وزع على هذه السبل .
فاذا عرفنا قلة المياه في استانبول ، ومس الحاجة إليها صيفا
على الخصوص ، أدركنا أن ارواء العطشان عمل يشكر ويؤجر
عليه صاحبه ، ويقل عجبنا من كثرة تلك السبل التي خلدت
على وجه الأيام ذكر من بناها ، وحوت استانبول وحدها
مئات منها ،

وبما يشير إلى فرط اهتمام أهل الخير والبر بها ، وانها كانت
عندهم أول ما يبتغون به مرضاة الله بعد تشييد المساجد ، أنه
بينما كانت والددة أحد السلاطين تبنى مسجدا ذا مئذنتين ، قل
مالها ولم يف إلا باقامة مئذنة واحدة ، وعرف ولدها السلطان

ذلك من أمرها ، فأمدّها بما يسد حاجتها ويقيم لها المئذنة
الأخرى ، بيد أنها قالت لما تحصل المال لها : « كلا إن في المئذنة
الواحدة كفاية لدعوة المؤمنين إلى الصلوة ، وما في الأخرى
إلا مجدى ورفع ذكرى ، إن المسكين إلى السبيل فقيرا ،
وأمرت باتفاق المال على تشييد سبيل .

وهذه السبل منها ما هو نفخ البناء جميل الزخرف ، تأنقت
يد الفن في تزيينه وتحسينه وانفق على ذلك مال جزيل ، ومنها
ما صغر بناؤه وتعرى عن كل زينة حتى لم يعد سوى حوض
صغير يمسك الماء ، والعظيم منها كسبيل داود اغا ، وذلك الذى
ابتناه السلطان احمد الأول فى القرن السابع عشر ، اما أشهرها
وانخمها ، فسبيل السلطان احمد الثالث ، وهو من اجل الأبنية
فى القرن الثامن عشر . فقد بنى من الرخام الأبيض وله سقف
آية فى الروعة ، وخمس قباب تحمل الالهة ، وعليه كتابة بخط
حسن وماء ذهب ، وهى ابيات من الشعر هذا نصها :

« قف ايها السائر ، فهذا ينبوع يهيجك ويسعدك ، تلبث
هنا لتجد الراحة فى ظلال الدوح . ان لهذا السقف فينا كافياء
شجرات السرو ، غير انه ابهى والطف نسيم . واسوف يخبرك

الملائكة في الجنان يوما ، ان ماء هذه الروضة كما انهار الجنة عذوبة
ولذاذة . وقد تعلم أيضا أنه شبيه بماء زمزم . ان السلطان احمد ،
وهو الاسكندر الثاني ، وله من الأجداد امثال الشموس ، ومن
السباحة ما يتزايد على مر الأيام ، فقد اقام للناس هذا السبيل
وسمه بخاتمه الملكي . وهذه المياه المتفجرة المتدفقة تجري فكأنها
كرمه وكثير نواله ، ويصيب من هذا الماء امير وفقير وعاقل
وجاهل على السواء ، الا إنما الماء نعمة سابغة من نعم الرحمن .
وللسلطان احمد الثالث سبيل آخر ، وهو وان كان اصغر
حجما من الاول ، إلا انه اكثر رواء وبهاء ، ويقال ان امبراطور
المانيا شيد في استانبول سيلا سنة ١٨٩٠ ، ذهابا منه إلى الرمز
الى ما بينه وبين السلطان عبد الحميد الثاني من ود اكيد .

ولا يشترط في هذه السبل ان تقام في مكان معين لاقامتها ،
فهي في كل مكان ، والعين تقع عليها في الأسواق ، والميادين ،
واقفية المساجد . وقارعة الطرق ، وعندها نشاهد طوائف مختلفة
من الناس ، فهام اولاء الملاحون ، قد جلسوا في ظلها يستريحون
مشمرين عن سواعدهم المجدولة التي اعياها تحريك المجاذيف ،
وجذب الحبال كاشفين عن صدور تفلكت ثندواتها ولعت

وجذب الحبال ، كاشفين عن صدور تفلكت ثندواتها ولمعت
قطرات العرق على شعراتها . والى جانبهم جلس البائع الجوال
بعد ان التى عن عاتقه سلة العنب التى انقضت ظهره ، وقد استرخت
له ساقان كادت تشتمكيان من طول السير ، قبل حلقا جف من
ندائه المتواصل دون ان يدخل يده درهم ينفقه فى حاجات من
يعول . اما ذلك المتسول فى اطواره البالية فاتخذ له هناك مأوى ،
لانه عدم دارا يأوى اليها . فالجميع وقوف بها او قعود حوالها
ليصيبوا من مائها وينعموا بظلالها .

وللعظيم من هذه السبل حارس موكل بها ، يلحظها بعين
عنايته ، ويتعمدها بما يحفظ عليها رونقها ، ويديم الفائدة المرجوة
من إقامتها . فيصيح بسمعه لخرير مائها ، وهو يرتل القرآن ويحلم
بالنعيم المقيم ، وقد يمتد الحديث بينه وبين أحد المارين به ،
فيحدثه بعجيب ما رأى فى عمره المتطاوول ، ويرسل الحكمة
ويبذل النصيحة كما قد يسأله طلبة أو مستفيد عن صاحب السبل
فيذكر بالخير والحسنى عمدا ناسه ناس كرام ، داعيا بالسقيا لقبر
كل من سقى الظلمآن ، وراح المتعب المجهود .

ومما يزيد هذه السبل حسنا على حسن ، تلك الاسراب من

الحماة التي تحوم عليها وتهاوى لتقع على ستوفها ، وهي تهدل
وفي هديلها حزين الشكوى وعذب النجوى . وان بياض البيض
منها ليذكر بالنقاء والطهر ، ويرمز إلى تلك النفوس التي تجود
لتسعد الغير ، ولا تخف عنها آلامها ، حتى تخفف عنهم آلامهم
وان من بعض هذه السبل ما شاهد أجدانا محزنة ، ومظالم
تأذى بها القلوب ، فقد حدث منذ نحو مائة من الأعوام ، أن
حوكم حائك يوناني لم يستطع اقناع قضاته ببراءة ساحته مما نسب
اليه ظالما ، فحك عليه بالموت وضرب عنقه ، وشوهد جسده
ورأسه بين ركبتيه ، على مقربة من سبيل في سوق السمك .

وقال سائح أوربي انه شاهد مجرما ، لعله كان قاتلا أو من
لصوص البحر ، والجند خلفه يسوقونه إلى حيث لا يعلم ،
فتوقفوا عن السير فجأة ، ودقوا مسهرا غليظا في جدار حانوت
لفاكهى ، ثم جعلوا حبلا في عنق الرجل بعد أن أوقفوه على
قفص من اقفاص الدجاج وربطوا الحبل في المسمار ، ودفع أحدهم
القفص من تحت قدمي الرجل فمات ميتة سوء . وكان ذلك أمام
سبيل من السبل ، والعجب أن الحبل ظل معلقا في المسمار زمنا
طويلا ، وترك حتى تبليه الشمس والأمطار ، وان الواقف بهذا

المكان لناظر إلى ضدين ، فالسبيل مظهر للرقّة والرأفة ، وذاك
الحبل عنوان للقسوة والغلظة ، فهل ساء ذلك بانى السبيل
فقلقت بروحة الخيرة وهى تنعم عند ربها بعظيم الأجر على
ما كسبت ؟ وهل أدرك السابلة الفرق بين هذين الضدين اللذين
يتنافران فى النفوس ، وان كانا يجتمعان فى الوجود !

ويمكن بعد هذا كله ، أن نعزو إلى هذه السبيل بعض الفضل
على الأدب ، فقد اذاعته وجعلته متداولاً بين الناس ، وذلك
لما تتحلى به من اشعار كتبت على واجهاتها أو نقشت على كيزانها ،
وليس يخاف أن الغرض الأول من كتابتها هو الزينة ، غير
اننا لانعدم الجمال الشعري فى الكثير منها ولنضرب مثلاً هذه
الآيات التى تخلق من الماء متكلاً يقول : « انا صفاء الصفاء ونقاء
النقاء ، وإذا اديرى على الندماء اقداحى ، غمرت قلوبهم بالبرد
والسلام . قف متع العين باجتلاء محاسنى ، وتأمل فى بديع
صفائى ايما عطشان شكا تلهب الهيام ، اشكيتته ورويته بجلاوتى
وعذوبتى

المضامير الساعية

إن كان للفرس شعر سياسى بحق ، فهذا الشعر يستمد نشأته من تلك الثورة التى خفقت ألويتها ما بين سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٩ ، بعد أن تحرك الوعى القومى فى النفوس ، ووضح الحق المنقوص فى العقول ، فطالب الشعب الفارسى بالحكم النيابى حتى أجيب إلى طلبته ، وأراد الحد من تسلط الأجنبي وغلوائه فخاب فى مسعاه وغنى عن البيان أن الشعر فى مثل هذه الفترة لا يكون غالباً إلا وطنياً سياسياً ، يعبر عن روح الجهاد ، وينادى بالاصلاح العام والخاص .

ومن المتأدين من يميل إلى نفي الشاعرية عن هذا الشعر ، ويذهب إلى أنه وليد المناسبة لا فيض الخاطر ، فصاحبه ينهته من صخر ولا يغترفه من بحر ، ومهما يكن من هذا القول فليس

يصح في الفهم أن نطلب إلى الشاعر السكوت أمام أحداث تدفع
إلى التأثر منها والتحدث عنها ، ولن يسوغ أن يذرف الشاعر
دموع الحب أو ينعم بنشوة الحميا ، على حين تجرى النفوس على
النصال المشرعة ، ويعالج أبناء وطنه سكرة الموت الزوام ،
وكيف يصف الربيع الباسم المغنى ، وهو يشاهد تعبيد المتقاتلين
ويسمع أنين المظلومين ؟

والشاعر المجيد قد ير على تصوير الحقائق أجمل تصوير ،
والشعور بها شعورا شعريا يخرج بها عن المادية إلى الروحانية ،
فنحن قد نجد في الشعر السياسى جمالا نعدمه فى كثير من شعر
الخيال الهائم والعاطفة المشبوبة . ولنا أن زيد على ذلك أن
اهتمامنا بهذا الشعر ضرورة تاريخية وأدبية معا .

ومن رجال الثورة الفارسية من يدعى لاهوتى ، وقد كان
شاعرا ومغامرا وجنديا وسياسيا ، ويعتبرنا منه حياة عجيبة
الاطوار متقلبة الأحوال ، ساقته ملامساتها شريدا طريدا فى
الآفاق ، وشعره يعتبر مثالا جيدا لشعر السياسة والوطنية فى
إيران على عهد ثورتها .

ولد لاهوتى سنة ١٨٨٥ ولاحق عليه مخايل التبوغ والعبقرية

في فجر عمره ، حتى قيل انه عاج النظم وهو غلام لم يستوف
السابعة من سنه ، ولما وافى عام ١٩٠٨ كان لاهوتي ينتصر
للثورة ويعتق مبادئها بكل ما في قلبه الشاب من حماسة ، وما في
عقيدته من رسوخ وعناد ، ولما اضطر الثوار إلى ماقد يضطر
إليه الجندي من كرك وفر ، زایل لاهوتي العاصمة والتمس موئلا
في مدينة بشمال إيران ، وهناك لم يرتض لنفسه حياة خمود
وركود ، فأسس مدرسة واشتغل بالتدريس فيها ، ولبث بعض
الزمن حتى استقر الأمر للثوار ، وظفروا بما ثاروا من أجل
الظفر به ، فقفل راجعا إلى طهران وانخرط في سلك الشرطة ،
وأبلى في عمله أحسن البلاء ، ونال من الرتب ما يشير حسد رفاقه
غير أن شراً وقع بينه وبين أحد رؤسائه السويديين ، فخرج
لاهوتي عن طوره ، وأملى عليه شيطان الغضب أن يتوعدده بالقتل
ووجد الضابط السويدي قتيلا بعد أيام ، واجتمعت الدلائل
ضده فلم يبرأ من دمه ، وكان لاهوتي يقظا شديد التحفظ فتعلق
بأذيال الفرار قبل الوقوع في قبضة العدالة ، وحكم عليه بالموت
وهو غريب بالبلد البعيد .

وهاجت الحرب العظمى فخارب الانجليز والروس ، ثم التي

عصاه في استانبول ، وقعد عن الكسب ردحاً من الزمن فشحت
موارده وضائق ذات يده ، ولم يكن بد من الاستعانة على العيش
بحرقة أو تجارة ، وصحت عزيمته على بيع الكتب ، إلا أن
تجارته منيت بالكساد ، فحار في أمره ، وطلب قوت يومه
بكل حيلة ، وكان من أضحك القدر أن يحترف طهي الطعام في
أحد المطاعم ، وهو من هو في منزله الأدبية وسمو رتبته
العسكرية ، وشاء الله أن يخفف بلواه ، وبعيد إليه بعض العز
بعد ما كابد من ذل ، فعرفه القنصل الإيراني باستانبول ، وجعل
إليه إدارة المدرسة الإيرانية بهذه المدينة ، كما جمعت الصدقة بصحفي
من مواطنيه فاشتركا في تحرير صحيفة .

ولم يستقر لاهوتي على حال ، فآب إلى وطنه عام ١٩٢١ ،
ولجأ إلى أحد الحكام ، وسأله أن يشفع له عند الشاه ، فصدق
أمله ، وأحسن الشاه العقو عنه ، كما أكرمه بإعادة منصبه إليه
وما لبث في إيران طويلاً حتى عاوده حب المغامرة وركوب
المخاطر ، فجهز لنفسه جيشاً من أتباعه ، وثار على الدولة ، بيد أن
الدائرة دارت عليه ، فتشتت شمله وانفض أعوانه من حوله ،
فهام على وجهه يطلب النجاة ، ووصل به تجواله إلى القوقاز حيث

اعتقله الروس الذين أبوا تقديمه إلى حكومة إيران ، وضموه
إلى جيشهم ، ثم عرفوا منزلته العلية فأثروا أن يفيدوا منه
كاستاذ للفارسية بجامعة موسكو .

وليس لاهوتى بالشاعر المحبوب في إيران لما كان من نزواته
وتقلباته ، وهو محدود في الخونة ، بعد أن كان معتبراً من رواد
الاصلاح ومحبي الخير للوطن . وشعره يتألف من مجموعتين ،
تعرف الأولى بلآله لاهوتى وقد طبعت في استانبول ، أما
الأخرى فديوان من الشعر يسمى بالأدب الأحمر ، وقد نشره
في التركستان وضممنه مذهبه الثورى ، وميله الفوضوى .

ومن لآله الجميلة قوله : بالله مرحة أيها الصياد ، اشفق
على تلك الزفرة التى تبقت من حياى فلا تخمدها ، لا تحرق
عشى ولك إن شئت أن تقتلع منى القوادم والخوافى ، وإذا كان
مبتغاك أن توقعنى فى الأسر ، فهأ نذا قد وقعت فى الفخ . أخرج
من بستانى ولا تسكن من يخرّب على دارى . لقد قيدت جناحى
وصدعت قلبى ، فترفق أيها الصياد ولا تعقل لسانى ، كم شوكة
أدمت كفى فى شجرة الورد حتى احمر العشب من وقع خطوانى
أنى لأموت كمدأ فى هذا الركن من قفصى بعيداً عن البستان

وطنى ، فيا نسيم الصبا تحمل خبرى الحزين إلى صاحب بستانى ،
إن قلبى الكسير الدامى لينفطر فى تلك العزلة الموحشة ، فاللهم
اجعل لى رفيقا مواسيا ، يخفف عنى برجائى ، ويقص على
أحبائى ما حل بى ، لقد أيقنت بالهلاك يوم عرفت أن الذئب
والراعى صارا على إلبا واحداً ، ولما أراد القدر القاتل بين برائن
الاجنبى ، القى حارس بستانى فى سبات الغافلين ،

فهذا الشعر تصوير للحال السياسية فى خيال الشاعر الذى
عمد إلى التلويح وامتنع من التصريح ، وأوماً إلى الحقائق إيماء
خفياً تحت ستر دقيق من الرموز . وأن التوصل إلى المعنى
المقصود بهذه السكيفية لأوقع فى النفس وأخذ بالقلب ، وأكثر
توضيحاً للمراد من ذكر الحقيقة مجردة والمعانى عارية ، فضلاً
عن ذلك الجمال الأدبى الذى ننعم به ونحن نتناسى المعنى البعيد
ونفهم المعنى القريب .

وعرف لاهوتى بمؤازرته للنهضة النسوية فى بلاده ، ورغبته
إلى المرأة الايرانية ان ترفع الحجاب وتنال حظاً من العلم والمعرفة
اسوة بأختها الأوربية ، وقال فى ذلك شعراً نقتطف منه هذه
الآيات :

« يا بدر ملك العجم ، يادمية الشرق الجميلة ، اعيريني منك قلبا
يعنى ما أقول ، لقد عفرت الجبين فى ترابك ، ويا طالما رفعت اليك
اكف الضراعة كأنى عابد فى محراب ! كان هذا بالامس ، أما اليوم
فأنا اوجه اليك كلاما جليا وقولا فصلا فاسمعى ، لقد كففت قلبي
عن هواك وانصرفت نفسى عن سحر حسنك ، حتام اقيد عنقي
بغدا ترك واجعل من اهداب عينك سهاما تنخر قلبي الجريح والى
كم اقول ان لك وجه البدر وقد السرو ؟ اى حاجة الى تحصيل
الحاصل وما جدوى اظهار الظاهر ؟ لا رغبة لى فى الصباحة مع الجهالة
فلا تعرضى على فتنك وصباحتك . انا صاحب جد وعمل ،
لا صاحب لهو وغزل . لا ، لا يحمل بك ايتها الجميلة فى عصر المدينة
هذا الا يكون لك من العلم حلية تزيد فى حسنك ، واقبح العيب
ان يكون العالمون احرارا وانت اسير خلف السدول . ويا اسفى
عليك وانت فى غفلتك ، والعالم من حولك فى يقظته . اسفرى
قناعك عن وجهك ، ولتحوك دور العلم ، وتلق افانين المعارف ،
فالجهل شجر والانحطاط له ثمر ، تعلب الحكمة ، واجعلى من
امومتك خير مرب لا بناء الوطن ، انت من يلقننا الحرف الاول
وكلامك اول ما نسمع ونعى . »

والشاعر في هذه القصيدة عنيف غليظ متهم كأنه قائد جيش
يأمر جنده ، فهو يزجر النساء عن حياة الخدر الناعمة الحاملة
ويزري على حسنهن الذي يتطرب الشعراء ، داعيا إلى طرح
الخمول والاستكانة والأخذ فيما يعود على المجتمع بالخير والجدوى
وان هذا العنف في دعوته ليسدل واضح الدلالة على طبيعته
الثورية التي لا تعرف الهدوء ولا السكون .

ولما خلع محمد علي شاه ظهر من يقال له رحيم خان وكان من
رجال العصابات يحيط نفسه بمنسر يعيث في الأرض نهبا وتقتيلا
وقد ثار على الحكومة الدستورية الجديدة وحارب الدولة غير
انه انهزم ووقع في أسر جنود من الروس أطلقوا سبيله بعد أن
افتدى نفسه بمال عظيم ، وما استرد حريته حتى عاد إلى عدوانه
نغذله التوفيق وفر إلى روسيا التي أبت أن تسلمه للحكومة الإيرانية
وعاد إلى القتال ثالثة فكان حتفه فيها ، وقبض عليه وقتل .
وقد أثارت حماية الروس له سخط الإيرانيين . وفي ذلك يقول
لا هوتي : « لادر در هذا الخوون الحسيس الذي وجد عند
الروس موثلا بعد كل ما كان من شره العظيم ، وما أظن بلادا
غير بلادهم تحمي رجل سوء مثله ! لقد وجد الرعاية والحماية

منهم وهو من ملأ الآفاق ظلما واثما ، ووالله ما ادرى ، ما الذى
يرغب دولة عظمى فى أن تدعو إليها هذا الشيطان المريد ، وكان
الظن بها أن تزجه فى غيابة السجن ، لا أن تكرم وفادته وتبذل
له القرى ، الا ان كل من ناصر عدوا للانسانية ، لنادم على ذلك
فى يوم من الأيام ،

وليس لهذه القصيدة قيمة فنية ، فصاحبها راية يسرد الوقائع
سردا يفيد أهل التاريخ ولا يطيب لأهل الأدب .

وقد ملك حب السياسة عليه نفسه ، فاشتغل بها ، وتتبع
أخبارها فى أرجاء الدنيا ، ولم يذس مصر فنظم فيها قصيدة جيدة
عام ١٩٢٥ بعنوان الروضة المحترقة ومنها (يا عجا كل العجب
لتلك الروضة طيبة النسيم ، أى روضة كانت ؟ منذ الذى أضرم
انار فيها على ما لها من بهاء ورواء وفى أى ذنب كان قتل أصحابها !
لئن أصبحت قاعا لا يرتفع منه الا عمود من دخان ففيها ولا جدال
للتاريخ أجماد مؤثلة وآثار باقية ، وإذا احترقت وذوت فلها
عطر ما زال ساطعا ، وما ضرها أن ينهار بنيانها ويستوى بالأرض
هدما مادامت تستمد من السماء رونقا . هذه الروضة هى
مصر العزيزة) .



در اویش

الدرويش بالمعنى اللغوى فى الفارسية هو المتسول الذى يقف بالأبواب مستجديا، أما بالمعنى الاصطلاحي، فذلك المتزهد المتصوف الذى يرفض الدنيا ويرغب عن زخرفها، جاعلا من دأبه وديدنه أن يخشوشن ويهين البدن ببعض العذاب، لتصفو الروح وتطهر، وتحلم عند ربها بالنعيم المقيم، فشقوة الدنيا عنده سعادة فى الآخرة، وعلى المرء أن يبتغى الوسيلة الى الفناء فى محبة الله، والحاق ذاته بالذات العليا، حتى اذا بلغ من ذلك ماربا، فقد وصل الى غاية ينشدها، وحقق الآمال كل الآمال. وليس بخاف أن ايران هى الموطن الاول لهؤلاء الدراويش وما ذاك إلا لما فطر عليه أهلها من ميل الى التصوف والنظر فى

الدين نظرا مجردا ، وأحرى بنا أن نقول ان الإيرانيين أكثر الشعوب رغبة في اعتناق المذاهب ، وترديد الفكر في الملل والنحل . وأنا لعل حجة من تاريخهم الطويل الذي يمدنا بالبراهين القاطعة والأمثلة التي لا تدخل تحت حصر .

وانبعث التصوف من إيران فغمر آسيا الصغرى ، وتمذهب به الدراويش فتألفت منهم مختلف الجماعات والفرق ، وانتشروا في البلاد طولا وعرضا ، وفي طليعة هذه الفرق ، فرقة المولوية وشيخها جلال الدين الرومي المعروف بمولوى والمتوفى سنة ٦٨٣ هجرية بمدينة قونية ، وهو أعظم شعراء التصوف من الفرس غير منازع ، غير أن ما يعنيننا بخاصة من أمر هؤلاء الدراويش ، هو وسيلتهم التي يتخذونها لتحقيق الغاية من شرعتهم فالمولوية يستعينون بالرقص والموسيقى على تحريك النشوة الدينية في نفوسهم ، واذكاء نار الحب الإلهي في قلوبهم ، وللنأى عندهم منزله لا تسامى ، وقد قال فيه جلال الدين الرومي شعرا جميلا منه هذه الأيات : ، استمع للنأى عذب الشكاة موصول الأنين فانما يشكو الفراق وآلام النوى . وكأنه يقول ، لقد انتزعت من قصبائي فتوجع لى كل من سمع بكأى ، ولقلب أن يتصدع

ويتفطر ليفهم شوقا يعذبني ويضنني ، وما عجب ان يحن كل ناء
عن مستقره الى عهد مضى وأيام خلت . ليس في الناي ربح
تتردد ، ولا كنهها نار للحب تستعر ، فلا كان ذلك القلب الذي
خلا من حرّها ، والناي مؤانس ومسامر لمهجور ومفارق ،
فقد هتكت انغامه كل ستر ، فبرح الخفاء وانكشف كل سر ،
ومن مستطرف امر المولوية ، اجتماعهم في تكيّتهم لإقامة
طقوسهم المذهبية ، فهم يحتشدون فيما يسمى « سماع خانه ، أى
بيت السماع ، وهو بهو واسع مستدير يلتف حوله حاجز يقف
المشاهدون خلفه ، وفي صدر المكان موضع للضارين بالمعازف
ومقصورة للنساء . فيدخل الدراويش بقلانسهم الطويلة ،
وقصانهم البيض وسراويلهم غير الفضفاضة ، وبعد التسليم على
شيخهم ، يرفعون اذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى الى أعلى
وراحة اليسرى الى أسفل . ويحن الناي وترن القيثارة وتقرع
الطبول ، فيشدون أقدامهم وهم حفاة حتى يقفوا على أطراف
اصابعهم ، ثم يدورون بخفة وسرعة كما تدور الرحي حول قطبها
وبعد مدة يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقف حركاتهم
ويضعون أيديهم على صدورهم ، ثم يحنون قاماتهم ، وبذلك

تنتهى رقصتهم التى يعاودونها بعد ذلك مرتين .

ولا ريب ان الانغام تبعث فى النفوس هزة طرب تتبعها هزة فى الاعضاء ، فتكون هذه الحركات التى تعتبر رقصا ، ولهذا الرقص معنى رمزى يشرحه جلال الدين بقوله : « اذا ما ذكرت البحر وامواجه ، فأنت فى واقع الامر لاتذكر شيئين متباينين ، فالامواج هى البحر فى ارتفاع وانخفاض ، والموج بعد الهبوط الى البحر يعود ، ومثل البحر مثل بنى الانسان فها هم إلا امواج الله ، فاليه بعد الممات مرجعهم ا » .

ويحكى عن السلطان سليم انه كان ذات يوم مارا من اقليم قرامان ومعه كمال باشا زاده فراعته الاعاصير التى يسكنر هبوبها فى هذه المنطقة وتعجب من ذلك . فقال له الباشا إن قونية عاصمة لهذا الاقليم ، وهى التى سكنها مولانا جلال الدين الرومى ، ولذلك فإن كل ما فيها من تلال واحجار وغبار يرقص رقصة المولوية ! وقال الشاعر فهم فى غلام مولوى راقص (آه منك ايها المولوى الوسيم آه . فإن لعينك الوطفاء من الاهداب خناجر تسفك دمي ! ايها الكافر القاسى ، ماكنت اعلم قبل رؤية ذؤابتك القاتنة ان المنطقة فى وسط المولوى كالزنار عند المجوسى . وإذا

حركت ذراعيك ، واختلبت القلوب برقصاتك في صميم روحى
اسنة من نظراتك ، بالله مرحمة يا بدر التم ففهم فى أسرك دائم
(الانين)

ومن عقائدهم ان الله خلق عالم الأرواح قبل عالم الاجسام ،
وجعل روح النبي الكريم فى وعاء من نور على هيئة تلك القلنسوة
التي يلبسونها ، ويعزون بها هذه الذكرى ، ولرئيس المولوية منزلة
عظيمة تنل منزلة شيخ الاسلام ، وقد جرت العادة بتتويج
سلاطين آل عثمان فى مسجد ابى ايوب الانصارى باستانبول ،
فكان رئيس المولوية هو الذى يتولى ذلك ويقدم الى السلطان
سيفا اثريا هو سيف عثمان .

واذا عرف المولوية بالدرأويش الراقصين ، فهناك فرقة
اخرى يقال لها الرفاعية وتعرف بفرقة الدرأويش الصالحين ،
وهم يلبسون السواد ويفضلونه على غيره من الالوان ، وكانوا
يعقدون اجتماعهم عصر كل يوم ثلاثاء ، فيجلس شيخهم على
سجادة امام المحراب بين مبخرتين ينفع الطيب منها ، ويصطف
مريدوه امامه ، فيرتلون ماتيسر من آى الذكر الحكيم ، ويترنمون
بعد ذلك بقراءة خاصة بهم وهم يهزون رموسهم هزا شديدا ،

ثم تدق الطبول والصنوج ، ويرفع الدراويش عقيرتهم بقولهم :
« الله اكبر ، يا الله ، ياهو ، ويشير اليهم شيخم فيذكرون اسماء
الله الحسنى ، ويتساندون بوضع ايدي بعضهم على اكتاف بعضهم
الآخر . ثم يصيحون قائلين : « الله هو ، حتى يتصبب العرق من
جباههم ، ويقع الخشوع في قلوبهم فيفقدون وعيهم ، ومن
المألوف ان يتوجه اليهم جمع من المتبركين والزمنى ، فينسطحون
على الارض امامهم ويرجون منهم ان يطأوا اجسامهم بأقدامهم ،
املا في الشفاء من الالوجاع ، فكأى من عليل يلتمس الخير
والبركة من قدم الدراويش ، وام ترقد ولدها الكسيح وتقول
ان الوطأة المباركة لا تؤلم الطفل ولا تبكيه ! وكان الرفاعية قدما
يعلقون في جدران تكاياهم مدى وقضباناً من حديد ، ليحموها
في النار حتى تحمر ثم يضربون بها صدورهم او يخزون وجوههم .
وهناك فرقة تعرف بالترلاقية ، ودراويشها متقشفون الى
ابعد امد ، فهم لا يذوقون لحماً ولا سمكاً ، ويقتاتون بالأعشاب ،
اما النساء فلا يقربوهن ، ومن عجيب امرهم انهم يسيرون
عراة من غير شيء يستر جسومهم ، وقد شوهد احدى متجولا
في احد شوارع استانبول سنة ١٨٨٩ ، فهرع اليه العوام من كل

صوب ملتسمين البركة وهم يلمسون جسده العارى ، وقد ساء ذلك بعض السفراء فى المدينة وضجوا منه بالشكوى ، فقبض على الدراويش وامر بأن يتوارى فى احدى التكايا . وقد كثرت الاراجيف والاقاويل حول سيرة هذه الجماعة ، فخلتها السلطات وكان ذلك فى اواخر القرن الماضى .

اما المعروفون بالبكتاشية فينتسبون الى حاجى بكتاش الذى رحل الى الاناضول فى القرن الثامن الهجرى ، وزاره السلطان اورخان فى صومعته ملتسما منه البركات والدعوات يوم الف فرقة جديدة من الجند سماها الانكشارية ، فباركه وباركها ، ويسمى الانكشارية (اولاد حاجى بكتاش) ، وهم اوفر الدراويش عقلا ، واغزرهم علما ، وقد توفروا على الدراسات الفلسفية والسياسية والعلمية ، وانضم بعضهم الى حزب الاحرار وتركيا الفتاة يوم ثار الترك على السلطان عبد الحميد مطالبين بالدستور سنة ١٩٠٨ فظهروا كياسة وحسن سياسة ، وكان السلطان يوجس خيفة من يقظتهم ونهضتهم ، وييث الجواسيس عليهم . وهم يشاركون فى الحركات العامة منذ قديم ، فقد كان منهم من صحب السلطان محمد الفاتح فى حملاته على القسطنطينية عام ١٤٥٣

وقيل ان رئيسا من رؤسائهم يقال له فاضل بك ، رحل إلى باريس في اوائل القرن الثامن عشر ، وهناك عرف فولتير وغيره من اعلام الفكر ، فوعى عنهم تعاليمهم وعاد إلى بلاده بعد غيبة طويلة فبث في البكتاشية روحا متوقدة ، وآراء حرة . وكان من هؤلاء البكتاشية فريق ضمن تلك الفرقة العسكرية المعروفة بالانكشارية . ولهم قصة مستملحة مع السلطان محمود الثاني المتوفى سنة ١٨٣٩ ، وهي تدل واضح الدلالة على تميزهم بالعقل والرأى من غيرهم من الدراويش ، فقد حدث ان اوغر بعض اعدائهم صدر السلطان عليهم ، وزينوا له ان يحل جماعتهم ، غير ان السلطان تمهل قبل الاقدام على مثل هذا الامر .

واولم وليمة عظيمة دعا اليها رؤساء الدراويش جميعا في استانبول . وقدمت اليهم صحاف الارز ، إلا ان الملاعق التي جعلت امامهم لتناول الطعام بها كانت كبيرة مفرطة في الكبر . فقد بلغ طول الواحدة اكثر من ذراعين ، فتبادل الدراويش النظر وبدأت الحيرة على وجوههم ، ولم يعرفوا كيف يأكلون بهذه الملاعق التي لا يمكن ان تصلح لتناول الطعام بها ، فقال لهم السلطان في ذلك وسأهم ما بالهم لا يأكلون الارز ، فاسقط في يدهم ولم يحيروا جوابا ، ولما رأى البكتاشية انهم في مأزق

متضايق ، اغترفوا الارز بملاعقهم الكبيرة ، ومد كل منهم ملعقته
عبر المائدة الى صاحبه وجعلوا يأكلون . ولما رأى السلطان ذلك
من حيلتهم صفق متهللاً وقال : « الله دركم ايها البكتاشية ، ما عقلكم
والله لن احل جماعتكم من اجل هؤلاء الأغبياء ! »

ولدينا قصة اخرى تنهض برهانا على جرأتهم في الحق ،
ورغبتهم الاكيدة في اصلاح المنكر أو ما يعتقدون انه المنكر ،
فلما قام السلطان محمود الثاني باصلاحاته المعروفة في التاريخ التركي
(بالتنظيمات) ثارت لذلك حفيظة بعض رجال الدين ومنهم
البكتاشية ، وبينما كان السلطان مارا في استانبول ، انطلق اليه
درويش بكتاشي فقبض على زمام فرسه حتى أوقفه وقال في
وجهه : « ايها السلطان الكافر ، أما كفالك ما اقترفت يداك ؟ لقد
افسدت الدين ، وسيلعننا رسول الله ! » فالتفت احد اتباع السلطان
قائلا : « انه مجنون يا مولاي وليس عليه حرج ، وما سمع
الدرويش ذلك حتى احتدم غيظا وقال : « كلا ، لست بمجنون ،
انت المجنون ايها السلطان الكافر ، ان الله يتكلم بلساني ، وسيزين
رأسي بتاج الشهداء مادمت قوَّالا بالحق
فقال السلطان : « حسنا زينوا رأسه بتاج المجد ، ففهم من
ذلك حكمه عليه بالموت . »



الحمامات سمة من سمات الحياة الشرقية على العموم، والتركية على الخصوص، وقد زخرت مدينة استانبول بالعدد الوفير منها ووجد الجوابون فيها تلك المشاهد التي تروى نفسها ظمأى إلى رؤية العجيب، وتقر بها عين تواقه إلى المزيد من كل جديد، أما الكتاتيون فاستقوا منها صفحات تفيض رقة وعذوبة وتحدثوا عنها حديثاً طلياً كأنه يجرى على ألسنة الخور العين وجماليات الأساطير. وإذا ذكرنا هذه الحمامات فنحن لا محالة ذاكرون بها قولة من قال ان رقى الأمم وتقدمها على قدر عنايتها بالتنظيف والتطهر.

ولنا أن نميز الحمامات الخاصة من العامة، فكان لوجوه

القوم حمامات تأنقوا في تشييدها وتزيينها ، أما السلاطين في قصورهم ، فخصوا أنفسهم بحمام كما خصوا كل حظية من حظاياهم وجعلوا هذه الحمامات آيات حن وفن بقبابها العالية ، ونافوراتها الجارية ، وأرائكها المخملية ، ومرمرها الناصع الذي يغمرها بنور حالم كنور القمر ، يلتمع فيه ذهب الأباريق والسكيزان . ولنضرب المثل بحمام السلطان مراد الرابع الذي وصفه أوليا افندى سنة ١٦٣٥ فقال : « ختمت القرآن ذات ليلة فكان من سعد طالعي أن أحظى بمشاهدة الحمام السلطاني ، وهو حمام ليس له من شبيه في الدنيا بما وسعت . فماؤه الدافق يجري في كل الجنبات من الحياض والنافورات ، متسابيا في أنابيب الذهب والفضة ، وإن هذين المعدنين النفيسين يزينان تلك الحياض التي تنصب فيها المياه وتتجمع ، والعجب أن الأنبوبة الواحدة تخرج من الماء ما هو حار وما هو بارد ، أما إفريز الحمام فمن رخام تراجمت عليه الألوان يهر الألبصار ، وقد عطرت جدرانه بالعنبر والمسك ونضج عليها ماء الورد ، ونفح الطيب من مباخر لا تخبو جمراتها وتسربت الأضواء من نوافذ بهية منقوشة ، أما مقصورة اللبس فقد صفت فيها مقاعد من تبر ولجين ، وكان هذا الحمام على رهوة

فكانه يمس الجوزاء في عليائها بقبة عظيمة من الرخام اللامع
وكل نافذة له على البحر مطلة ، والمطربين غرفة إلى جانب
باب المقصورة .

ويحكى عن السلطان محمود الأول المتوفى سنة ١٧٥٤ ، انه
كان مولعا شديدا بالولوع بحريمه ، محبا لتسريح الطرف في محاسن
النساء ومفاتنهن ، فطلب ذلك يوما بحيلة لانعدم فيها الطرافة
والفكاهة ، واختار مكانا مرتفعا يخفيه ليشرع على الحمام ويرى
من فيه من حيث لا يرى ، وتلبث في مكانه برهة حتى دخلت
الملاح ، ومنحت كل منهن غلالة رقيقة من حرير عند دخولها
على مألوف العادة ، ولبستها على جسدها العارى حتى إذا تددت
عرقا ، كشفت عما كانت تستره بعض الستر ، فامتد بصر السلطان
وخفق قلبه ، غير ان متعته لم تكن لتنتهى عند هذا الحد ، لانه
أوصى بأن تكون هذه الغلائل مغروة لا مخططة ، وكان يداخله
من الطرب مالا مزيد عليه إذا صهرت حرارة الحمام ذلك الغراء
الذى يمسك شق غلائل الحسان ، فيتولى منهن حسن الزهرات
البيض تفتقت عنها الأكمام .

وما دمتا نذكر السلاطين في حماماتهم فلا بأس أن يتغلغل

بنا القول إلى الشاعر التركي احمدي المتوفى سنة ١٤١٢ والذي
التقى بالعاقل تيمور لنك في مدينة اماسية ، فقر به اليه ورفع
منزلته لانه كان مشغوقا بالشعراء مكرما لأهل الأدب . فقال
يوما للشاعر وهو في الحمام : « قوم لي هؤلاء الولدان بثمانين ،
فقال احمدي ان بعضهم يساوي ملء الأرض ذهباً وفضة ،
وبعضهم الآخر يساوي خراج مصر إذا أدته دراً وجوهر .
ثم سأله تيمور لنك وقد انتفخ زهواً : ان كان هذا ثمن الولدان
فماذا يكون ثمنى أنا عندك ؟ ، فأجاب احمدي بقوله : « انت عندى
بثمانين دانقاً ، ، فادركت العاقل حيرة ، وألهبت وجهه غضبة ،
غير انه ملك نفسه ولم يخرج عن طوره وقال : « انى يكون ذلك
وتلك المنشفة التى بيدي تساوى الثمن الذى ذكرت ؟ ، فكان من
جراة الشاعر أن يقول : « هو هذا ، فالثن ثمن المنشفة ، انت
لاتساوى شيئاً ، لأن نفسك الامارة بالسوء لاتعدل عندى دانقاً ،
واعجب من هذا الكلام ان الطاغية كظم غيظه وأحسن
جائزة الشاعر ، فأعطاه الرضا وفوق الرضا ، وكان الظن كل
الظن انه لاشك قاتله .

ومن شعراء الترك الماجنين من يدعى محمد شلى ولقبه

(الأخ المجنون) لخلاعه وغوايته ، وقد كان من ندماء الأمير قورقود بن السلطان بايزيد الثاني وصحبه في رحلته إلى مصر ، وقتل الأمير فارمض الشاعر الحزن عليه ، وانصرف عن الدنيا لانصرافها عنه ببشاشتها ، وانزوى باحدى التكايا في مدينة بروسه ثم ابتنى في استانبول مسجدا وحماما عاما ، وكان هذا الحمام ملتقى لخلعاء هذه المدينة يسعون اليه للهو والقصف وقضاء اللبانات وما مر خبر هذا الحمام بسمع الصدر الأعظم ابراهيم باشا حتى أمر مائة من الانكشارية فسووه بالارض هدماء ، فانسى الخلاء ذكرى محمد شلبي الذي مات سنة ٥٣٤ .

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، عهد الظلام والظلم ، تناقل الترك من أبناء الشعب أقصوصة مستملحة يذكرون فيها الحمام فيقول قائلهم ان السلطان عبد الحميد كان في حمامه في اليوم الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٤٢ فمراعه إلا أن يذق عليه بابه من يبشره بغلام اسمه عبد الحميد ، ففرح عبد الحميد للبشرى غير انه تأسف الا يكون معه ساعتئذ ما ينبغى أن يدفعه إلى البشير من ذهب أو جوهر ، فتطير بذلك وقال في نفسه ، ستكون أيام عبد الحميد أيام شؤم !

وقال حكيم من الترك ، يزع قومه عن مجانة الحمامات وما
قد يفرض من بعض من يغشونها أو يغشينها : « انما الحمام
مجلبة للشر عليكم يا معشر الترك ، ففيه تشدقون بهراء لا طائل تحته
وتلاعبون خدامه ، فكنتم العار والشنار لامتكم التركية التي
فتحت البلاد وسادت العباد في سالف الايام . وفيه تقضى نساؤكم
ساعات متطاولة وهن يتجاذبن احاديث الهوى والفتون ، ويطعمن
ويحتسبن من القهوة والشاي اكوأبا بعد اكوأب ، ، ولا كلام
لهن إلا عن الترهات والحز عبلات ، وهناك بنات الروم اللاتي
يعلمن غرام بنات الروم ! »

وكان من جراء ذلك ان اصدر الصدر الاعظم محسن زاده
سنة ١٧٦٨ امرا بمنع تشييد حمامات جديدة في استانبول ، محتجا
بأن هذا الصنيع سيوفر للناس الماء والاخشاب .

وكانت هذه الحمامات تفتح أبوابها للتركيات في أيام السبت
ولليونانيات في أيام الأربعاء ، اما بقية ايام الأسبوع فكانت
للرجال . وجدير بالذكر ان الحمام كان لنساء الترك في الغابر بمثابة
المقهى في الحاضر ، فكان إذا عقدنا العزم على الذهاب اليه ،
اتخذن لهذا الأمر أهبة ، فصحن جواريهن واطفالهن ، واكوأما

من ثيابهن ، ولم يفتهن ان يحضرن كل ادوات الزينة ، ويتزودن
زادا كثيرا ، فيحملن معهن سلال الفاكهة وصحاف الطعام واقداح
الشراب لقضاء صدر النهار أو طول النهار في الحمام . فاذا اجتزى
الباب استقبلتهن سيدة ذات سن هى القائمة بأمر الحمام ، فتحيين
ببسمه مشرقة وترحب بهن ترحيبا حارا بعبارات معسولة ،
وهناك يدخلن مقصورة يتجردن فيها من ثيابهن ، ثم يزابلنها إلى
بهو واسع تتردد تحت قبته رنات الضحكات واصداء المكالمات ،
حتى إذا قضين من الاغتسال حاجتهن ، دخلن مقصورة أخرى
طيبة النسيم ، فارقدن بعض ارجيتهن وجلسن على الارائك او
تربعن على الحشايا ، واسلمن شعرهن للجوارى فتناولنه بالترجيل
والضفر والتسكين ، وسكبن العطور عليه سكبا ، ثم يمددن ايديهن
لتخضب اناملهن واكفهن بحمرة الحناء .

وإذا ماتم لهن ذلك تخلقت اسراهن حول الطعام فاصبن من
الوانه المتعددة ، او خضمن فاكهة لذة للآكلين . ويندر الا يكون
بينهن من لا تدخن دخيبتها ، او تنفث السحاب من نار جيلتها .
أما حديثهن فطويل طويل ، وهو يدور ابدا حول محور واحد
هو الزواج وما فيه من وفاق وشقاق ، وما اكثر ما يتم الاتفاق

على تزويج الصبايا ، واختيار بارعة الجمال زوجة لعظيم المال . .
وجرت العادة بدخول الفتاة الحمام قبل ليلة عرسها ، فتطوف
حول النافورة في موكب من اتراب يرفعن صوتهن الاغن بعذب
الآغاريد . وقد برز جمالهن العارى فتألف منهن مشهد لا تصوره
إلا عبقرية الشعراء

اما المطافيل من النساء فكان يقمن فى الحمام مهودا تدل على
اتساع الحيلة ، وذلك بأن يشددن حبلين الى عمد الحمام ، ويضعن
على الحبلين وسادة وثيرة ، فيرقدن الطفل ويهززن مهده حتى
ينام . والجوارى فى الحمام يقطعنه جيئة وذهابا ، وعلى رموسهن
دست من ثياب ، وفى ايدين قوارير العطر ، فيسهين الى سيداتهن
بما يشتهين ، ويدرن عليهن اقداح القهوة والشراب . وبما يميزهن
عن غيرهن انهن لا يكشفن إلا عن صدورهن ، ولا يجلبن الحسن
بالتزين والتطرية . ومن أصدق ما وصف به النساء فى الحمام أبيات
قالتها سائحة انجليزية شاعرة وهى : « هى ذى المليحة منسطحة على
حشيتها المزركشة ، وفى جبينها سهوم . ولعينها سجاو الأحلام ،
لكأنها الزهرة المطولة ا والى جانبها ركعت جاريته تصفف لامع
طرتها ، وتنثر قطرات العطر على وجه غمرته الرؤى ، فتزيدها
حسنا إلى حسن وفتنة على فتنة . »



قصة للكاتب التركي عمر سيف الدين المتوفى
سنة ١٩٢٠ وهو من كتاب الترك المجيدين
أولى التبريز ، وقد جرت عادة القصاصيين من
أهل زمانه بأن يتخذوا استانبول دون غيرها
مسرحا لقصصهم . واليه يعزى فضل التجديد ،
لأنه أول خارج عن مألوفهم ، فصور غيرها من
البيئات ، وافتتح جديدا من الآفاق ، كما مجد
قومه وحيا أسلافه فيما كتب ، وهذه القصة
مثال لذلك .

كانت أكمة صغيرة على البحر مطلة ، تناوح آفاقا ليس لها
من نهاية ، فبدت في رأى العين كما تبدو الخيلة ذات الأزاهير ،
وقد تموجت هيف الظلال لطويل الأغصان في شجرات اللوز

قربتك قدمك مني ولو كان لي سيطرة على نفسي لسايس زمامها في
 كفي ، وتحاشيت ان اسىء اليك . بالله مرحمة ، ان هذا القلب الذي
 قد من صخر ، لا يليق بهذا الجسم الذي كما نأف فرغ من نور ا
 زكية (تنازع نفسها مهتاجة مترددة) - ما اطول ماتحمات
 من عذاب الموت (تشير إلى اسلام بك) ماذا تريد ؟ أنا اجاهد
 نفسي ، لقد انتزعتني من نفسي ، انت في اسلامي إذا رقدت ،
 وفي افكاري إذا صحوت ، وامامي في وحدتي ، انت على الدوام .
 فهاك روحي وجسدي ، وارحني مما اكابد من لوايحي وبرحائي .
 اسلام بك .. لما ابصرتني اردت ان تحولي عني بصرك ، اليس
 كذلك يا قاسية القواد ، ولما ابصرتك اتعلمين ماذا كنت احس
 في قلبي لو كنت اغمضت الجفن برهة لظننت اني فقدت العمر كله ،
 الحمد لله حق حمده ، انك تحبين على غير عمد مثلي ولا تملكين
 قلبك ، لقد رأيتك مرة ورأيتني مرة ، لقد خاق قلبانا صنوين
 وجعلك الله لي كما جعلني لك ، ولو فرقنا الايام هنا فسوف
 تجتمعنا هناك ، وإذا افترقنا اليوم فلتقيانا في الغد ، وقد نلوح
 مفترقين ، ولكن كلانا سياتي صاحبه ، وإذا تصدع شملنا فنحن
 ملتقيان .

عاما أو تزيد ، وقد وقع في أسر قراصنة مالطة وهو بطل صنديد
له من العمر ثلاثون عاما ، فعالج جذب المجاذيف في سفنهم
عشرين سنة ، وعاش عشرين بعدها في قاع السفينة الرطب
موثق الساق بالحديد ، وعجزت هذه الأعوام المتطاولة ،
بصيوفها وأشتيتها وشموسها ورياحها ، عن أن تذيب له جسدا
كأنما أفرغ من الصم الصلاب ، وبليت قيوده وتحطمت وأصلحت
حلقاتها تكرارا ، غير أن بأسا لم ينل ساقين له أشد من الحديد
بأسا وشيء واحد كان يغمر نفسه بشديد الأسى وهو عجزه
عن أن يتوضأ ، فكان يجعل مشرق الشمس على يسرته ، ويستقبل
القبلة بوجهه . ليقيم بالإشارة صلواته الخمس سرآ .

ولما بلغ الخمسين من سنه ، زهد القراصنة في وجوده
عندهم وقالوا انه لم يعد يصلح لتحريك المجاذيف ، فباعوه في إحدى
الجزر ، واشتراه أحد الزراع . ولم يكن يقدم إليه طعاما سوى
الخبز بلا أدم ، وأمضى على هذه الحال عشرة من الأعوام ، غير
انه طاب بذلك نفسا ، وحمد لله أن أطلق ساقه من أصفادها ،
فتمكن من الوضوء وعرف قبلته فاتجه اليها ، وصلى بآيات لم
ينسها ودعا ربه . وكان قصارى أمله أن يعود الى وطنه ، ولم

ينفض يده من هذا الأمل طوال أعوام ثلاثين وهو يقول :
« إذا اعتقدت انى سأبعث حيا ، فأنا كذلك معتقد انى أعود
إلى وطنى . »

وكان من أوسع الملاحين أترك شهرة وأشرفهم سيرة ،
وقد اجتاز بوغاز جبل طارق وهو فى العشرين متجها إلى الشمال
الشرقى ، ودامت رحلته شهورا دون أن يرى الشاطئ ، وتحصلت
له الجزية من سحيق الجزر ، وطالما أغرق كبير السفن وصغيرها
وحده بزورقه الخفيف ، كما دار اسمه على الألسنة كما تدور
أسماء أبطال الأساطير .

وركب بحارا فيها من الجليد جبال وجزائر ، ودنياها غير
دنيانا ، لأن ليلها الرهيب نصف العام . أما زوجته فكانت من
ذلك العالم العجيب الذى لا يعرف إلا ليلة طويلة ونهارا طويلا ،
وبنى عليها فى عرض البحر ، وفى سفينة مفعمة بالذهب والفضة
واللؤلؤ والماس ، موقرة بالأسارى . وأنجبت له ولده طورغود ،
وهو يمر بالدردنيل . ولم يمض كرايا من مدينة استانبول من خياله ،
فكان على ذكر من أفقها وما يرتسم فيه من سامقات القباب
والمآذن ، ولما علت سنه ووهت قوته ، رأى مولاه أن يعتقه

فتركه نهبا للجوع والشقاء هائما لا يلوى على شيء .

واهتدى الشيخ إلى هذا الكوخ الخرب في البستان ، فدخله
وارتاضاه مأوى له ، وكان يهبط المدينة بين الفينة والفينة ليعمل
بها ، ثم يعود إلى كوخه برزق ضئيل .

واختلف الجديدان ، فضعف الشيخ ولم تبق فيه بقية ، وكره
صاحب البستان بقاءه في بستانه فأين يذهب ؟

وعادته تلك الرؤى التي كان يراها من زمان بعيد ، ويشاهد
فيها مقدم الترك إلى جزيرته بسفائنهم ، فمد يده النجيلة المعروفة
إلى عينه لمسحها ، وردد في آفاق البحر صرعه ، وترجع عنده
أنهم لابد قادمون . وقال إن حلما يراه هذا الزمن الطويل
لا يمكن إلا أن يتحقق ، ودخل كوخه ، وانسطح على أرضه
ثم أغمض عينيه .

وأشرق الربيع باسماء في كل الجنبيات ، فكأن الأمل في
بسمته المشرقة ، وخيل إليه أن طير البحر تبشر بقدوم الترك ،
وهي ترسل الشجى من أصواتها ، فأعارها السمع وهو في الخيال يهيم .
وكانت خشاش الأرض وهوامها تخرج من شقوقها في
جدران السكوخ لتدخل ثوبه وتتواثب على بياض لحيته ، ورأى

الشيخ الأسير سفن الترك تدخل فرضة البحر ، وتنزل منها
كتاب الجند إلى الشاطئ ، وعرف العلم الأحمر من بعد ، والتماع
الشمس على السيوف والروس .

وهب من نومه وهو يقول : هاهم أولاء أبناء الوطن
هاهم أولاد أبناء الوطن .

فقام ورمى ببصره إلى البحر ، فرأى السفن القادمة بقلاعها
العظيمة ومجاذيفها الكثيرة ، فتغيرت سمته وبرزت مقلته
ووجب قلبه ، ووضع يده على صدره ، هاهي ذى سفن الترك
تقترب رويدا رويدا . لم يصدق الشيخ عينه ، وظن نفسه من
الحالمين ، وأراد أن يستوثق من يقظته فعض بمانه ، ودق جبهته
بمحجر صغير ا فتحقق واقتنع ، ورأى في اليقظة ما كان يرى في
المتام ، تلك هي السفن تظهر الواحدة تلو الأخرى من وراء
أنف الجبل ، ولم تتمالك ساقاه عجباً وفرحاً ، فجثا راکها ،
وكانت كتاب الجند تتقدم نحو القلعة ، رافعة حمراً الأعلام ، بعد
انتظار الشيخ لها أربعين عاماً .

وجأة سمعت فرقة لعظامه ، وانطلق في طريق تظله شجرات

مزهرات ، واخذ سمته إلى الشاطئ وجرى ماوسعه ان يجرى ،
ولما رآه الجند منطلقا نحوهم قالوا :

— قف !

غير ان الشيخ لم يقف ورفع عقيرته قائلا :
— اناتركى .

...

وانتظر الجند وصوله اليهم ، فماوسعه الا ان يعانق اولهم
وعينه تفيض من الدمع ، فتأثر كل من شاهده ، ولما اعقب الجلبة
بعض السكون سألوه قائلين :

— منذ كم وانت اسير ؟

— منذ اربعين سنة .

— من اى بلد انت ؟

— من ادره ميد .

— ما اسمك ؟

— قارامش

— أقبطان انت ؟

— نعم

وماج الجند بعضهم في بعض واختلط لغظهم ، وتصايحوا
قائلين . « اخبروا البك ، اخبروا البك ، واخذوا بعضد الشيخ
ومضوا به الى ساحل البحر ، واركبوه زورقا حملة الى سفينة
عظيمة ، ولم يكن فيهم الا من عرف مناقبه ، وسمع بصيته الرنان .
وقد تلبث الشيخ قليلا ، واذهلت الفرحه برؤية ابناء وطنه
بعد طول الزمان وشدة الحنين ، ثم منح قلنسوة وقباء وسراويل
فما لبسها حتى قالوا له : « هيا بنا الى البك ! »

وسار في صحبتهم الى مؤخرة السفينة ، حتى وجد نفسه امام
رجل ربعة ، عظيم الشارب اسوده ، يلبس زرد الحديد على ثيابه
المزركشة .

— أأنت القبطان قرامش ؟

— نعم انا .

— اصادق انت فيما تقول ؟

— وما بالي اكذب !

— اذن ، اكشف عن ذراعك .

واخرج الشيخ ذراعه من تحت القباء وبسطها الى البك ،
فبدت فيها ندبة عميقة لها شكل الصليب ، وهي اثر جرح اصيب

به يوم هرب بزوجه من تلك الجزيرة التي عامها ليلة واحدة
يتلوها نهار . فما رأى ذلك أبك حتى تناول يد شيخ واكب عليها
يقبلها وهو يقول :

-- انا ولدك !

-- انت طور غود ؟ !

-- نعم

...

وقد استخف الشيخ الطرب حتى غاب عن حسه ، فقال له
ولده :

-- انا ماض الى القتال ، فأبق في السفينة واركن الى الراحة
والدعة .

-- كلا ، انا معكم في قتالكم .

-- ولسكنك هرم ، عاتك السكرية ورق عظمك .

-- نعم ، غير ان لي قلبا مازال قويا فتيا .

-- اقنع من ذلك بأن تشاهدنا ، ولتسترح .

-- انى احن الى الهيجاء منذ اربعين سنة .

-- ستغلب ، وسيحزن الوطن افتقارك .

وأراد له البقاء في السفينة ، فاعتدلت قامة قاراعش ، وكأنما
ارتدت اليه شبيبته ، ولم يطق على البقاء صبرا ، فطلب السيف
والترس ، وأشار الى علم السفينة الخفاق وهو يقول :
-- اذا ما استشهدت ، فلتجعلوا هذا غطاء على جثمانى . اليس
الوطن حيث يخفق العلم



كان لبعض من شعراء الترك وفادات على مصر قبل الفتح التركي وبعده ، فقدمها الامير جم وهو شاعر انيق الشعر رقيقة نزل ضيفا على قايتباي ايام نازع العرش اخاه بايزيد وهاجت الحرب بينهما ، وجاء مصر من الأمراء الشعراء ، اخ للسلطان سليم يقال له الامير قورقود ، ومعه نديمه وشاعره الماجن محمد شلبي الذي كان شديد الاختصاص به لا يفارقه في سفر ولا حضر ، ولما تجهز السلطان سليم الاول لفتح مصر ، لم تفته دعوة الشعراء الى صحبته ، ليسكونوا رفقة معه تؤنس وحشته ، ويتسلى بها من كل هم ملم . وهو من يعز العلماء ويكرم الشعراء ، لانه كان شاعرا ديوانه ربحانة اهل الادب .

ومن ندمائه الشعراء في سفرته الى مصر ، اسحق شلبي ، وكان جبهة الاخبار حلو الاسمار كثير الاضاحيك راوية يستمد من

بحر لا ينفد ، ومعه شاعران مزاحان ضحا كان لهما اتساع خبرة .
بأدب النديم ، فكانوا ثلاثتهم يسامرون السلطان ويسرون عن
نفسه ما قد يغشاها من هول خطب واقع او متوقع . واتفق
لهؤلاء الشعراء الثلاثة يوما ان رفعوا التكلف كما لم يرفعوه من
قبل ، وتبسطوا مع مولايم ، ورأوا من الظرف والدعابة ان
يمسوه بسيوفهم ، فغضب السلطان عليهم واكبر ذلك منهم ،
وبلغ به السخط ان يأمر بقتلهم ، إلا ان الغضب سكت عنه
فاستبدل بالقتل الضرب ، ثم احسن العفو عنهم ، وجهد الشعراء
ان يسترضوه فدخلوا عليه من الغد في ثياب رثة منشدين شعرا
ما جناهزاياء ، غير ان السلطان عبس واشاح ، وقال لهم : اريدكم
منادمين لا مضحكين ،

وكان كمال باشا زاده من اتباع السلطان سليم ، له عنده دالة
وحظوة فاصطفاه رفيقا له مقربا ، وكان شاعرا عالما ، فناط به
أن يترجم كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وامثل
الباشا أمر السلطان ، وأطلعه كل يوم على القدر الذي ينجز
ترجمته من الكتاب ، فما دخل سليم مصر إلا وهو على علم
بتاريخها ، وأخبار ملوكها .

والعجب أن أحدا من كل هؤلاء الشعراء الذين
اسلفنا ذكرهم لم يخص مصر بشعر له فيما نعلم ، اللهم إلا إذا
استثنينا قول الأمير جم في أبيات له بالفارسية انه وعمود
المقياس شبيهان ، فهو غريق في ماء الدمع والعمود غريق في
النهر ، وقد ذكر النيل عرضا في شعره التركي وقال ان
القناديل مصففة على شاطئه .

وللسلطان سليم بيت واحد في ديوانه الفارسي وهو :
«لى همه عالية جعلت من والى مصر عبدا لى مخلصا فى طاعتى ،
ومن ممالك تسع رفعت لوائى .»

وليس يخاف أن تلك أشارات ضئيلة عابرة لا يعتد بها في
هذا الصدد ، غير أننا إذا تجاوزنا عهد السلطان سليم وهو في
القرن السادس عشر ، إلى القرن السابع عشر ، الفينا الولاية على
مصر تسند إلى أيوب باشا ، فيزايل استانبول لتسلم أزمة الحكم
ومعه شاعر من بطانته يقال له فهم . وليس فهم هذا بالشاعر
المرموق المكانة عند أهل الأدب من الترك ، فبعضهم يطوى
ذكره وهو يؤرخ الشعر التركي على أنه ضعيف الشأن خامل
الذكر في دولة البيان . والذي نرى أن هذا الشاعر المغمور

مظلوم ، فنحن لا نعدم في شعره روعة وجوده ، كما نرى له
اهمية فنية وتاريخية ، لأننا نجد عنده ما لا نجد عند غيره ممن
تقدموا عليه في الزمن ، أو بذوه وبهرت اشعارهم أشعاره ،
فقد ذكر فهم مصر ، ووصف نيلها أجمل وصف في قصيدة
طويلة ذيلها بمدح الوالى أيوب باشا ، ومنها :

« انظر بعين العبرة إلى حسن ما صنع الرحمن ، لقد جاش
هذا النيل وفاض ، فكأنه من تخالجه شوق اللقاء . حمدا لله ،
لقد سقطت على المقياس نقطة من قلم القدرة ؛ فكأنها إنسان
عين غمرها دمع الحنين . ونال من الوصال ما ينال العاشق
الولهان ، وارتسمت موجاته حلقات حلقات ، ولسان حاله
يقول : أنا من جن حبا ، وتلك أغلالى وأصفادى . وما دام
في قلب النيل للهوى خفقات ، فإى عجب أن ينطلق إلى البرارى
والصحارى شأن محب ذهب عقله ؟ واثن كانت له هيئة من به
جنة ، فان لقلبه صفاء مرآة ينعكس فيها الوجد والوجدان .
النيل طغى وفاض كأنه الطوفان ، وهامى ذى أمواجه ترتكض ،
ويلوح عليها أنها على أسنمة نياق تمضى بها . وانسابت الحيات
العظيما من ركن خفى إلهى تنثنى وتتلوى ، حتى انسلت إلى

منعطفات المزارع وهي تمج إعابها ما أعظمها حكمة واعجبها
معجزة ، فإن لهذه الحيات لعبا يحيي الأرض بعد موتها ، لقد
انكشف السر الذي يخرج الحي من الميت ، فتأمل ماء الحياة
منبجسا منها .

وبدت في وسط النيل نخلات ما أشبهن بسرب من
الحسان يتردن ، وقد ثارت رءوسهن وتفرقت شعورهن . وما
رأى الزراع للنيل تيارا حتى نثروا الحب ، فنصبوا بذلك الحب
شباكا لطير الرزق ، ولما فاض وكثر ماؤه ، طفع وعاقوه ،
فخرج عن طوره وثار ثائرتة وبسط لسان القدح في البحر ! ،
فهذا شعر تستعصى روعته على الترجمة وجمال تشبيهاته في
حدود الغاية ، وقد تراحت معانيه وغمرته نفحة صوفية تعددت
رموزها . وانه لتصوير جميل للنيل زمن فيضانه ، فهو في خيال
الشاعر محب مشتاق يقدم من بعيد ويرتجى وصل الحبيب ، ثم يوصف
متدفقا بالخصب والحياة حتى يرتجى في البحر ، وشاعرنا موفق
عظيم التوفيق في تشبيه المزارع وهم يخططون أرضهم وينثرون
فيها الحب ، بمن ينصب الشباك لطير الرزق .

وهذه القصيدة مثال جيد لفن فهم ، الذي عاش في بداية

عصر يعرف في الأدب التركي بعصر التحول ، اى التحول من
عصر قديم كان شعراؤه يلزمون انفسهم طرق المعاني الصوفية ،
إلى عصر تحرروا فيه من هذا التصوف بعض التحرر ، فتحدثوا
عما يقع تحت حسهم وعبروا عن ذات نفسهم ، فقد مزج
التصوف وما فيه من اطياف واحلام بالواقع الذى لا مجال فيه
لريب ولا جدال .

وشاعرننا يخرج من كل هذا ليدخل على الوالى مادحا ، الا انه
يعود الى النيل متحدثا عن الاحتفال السنوى بوفاته فيقول
«ومضى باليمن والاقبال ، فشرفت بمقدمه مصر العليا ، وعز
القصر والايوان ، وتحلى النيل بالزين والزخارف ، فكأنما
تزينت زليخا للقاء بدر كنعان هذا المستوى على عرشه . واصبح
النيل عروسا تمشط المواشط شعرها ، وما اشبه القوارب على
صفحته بامشاط ، والمجازيف اسنانها . وبدت عروسان فى الوشى
كأنهما ذيل ط-اووس ، او حوريتان من حور الجنة تتخطران
وتنظران ، لاخبار رضوان بأن فى الدنيا ما يشبه الجنان ! ،

والشاعر هنا و صاف بارع يتكىء اكثر ما يتكىء على تشبيه
مبتكر يكسب شعره جمالا وفتنة . وفهم شديد التأثير بالنيل ، فهو

فى شعره كثر الذكر للامواج والبحار والامواه .

وقد سامت فى مصر حال هذا الشاعر ، لان جفوة وقعت
بينه وبين مولاه ، فتذكر له وقطع كل سبب كان يربطه به . اما
فى اى شىء كان غضب ايوب باشا عليه ، فهذا ما سكت عنه
المؤرخون . وايا ما كان فان سوء حاله اثار فى نفسه السخط على
مصر واهلها ، فلم تطب له مستقرا ؛ وردد فى شعره شكوى الفاقة
ونكد العيش ؛ فقال برما وهو سؤوم : « على عهد الله لا دخلت
بعد اليوم من باب مصر ولو قيل لى انه باب الجنة ، ولا شربت
لها ماء ؛ وان امرنى الخضر بأن اشرب منه ماء الحياة ؛ ولو جعلت
شمسا ما اخترت البروغ فى افقها ، ولو كنت قرا ما استمددت
النور من شمسها . ان اليأس يخرس البلابل فى بساينها ؛ وللغربان
نعيق يرن صدها فى طولها . لقد شاهدت كثيرا الا انى لم اشاهد
فيها رجالا ، وما ذاك الا لان عيني غائمة من خمار خطوبها ، وعلى
بصرى غشاوة من ترابها . من دخل النار وصف لاهلها ما يخلع
قلوبهم رعبا من عذابها ، فلا داوم على اكل الخشخاش حتى تأخذنى
سنة ونوم . ولا افيق من غفلتى عنها . »

فالشاعر حزين حزين ، يستعين على العزاء ونسيان النجوم

بنشوة لا يريد الافاقة منها كراهة ان يراها او يرى اهلها ، غير أنه لم يدم على سوء ظنه بأهل مصر ، لانه وجد منهم من فك كربته وكشف غمته ، فلما عقد العزم على الرحيل اعوزده المال ، ورأى ان يلوذ برجل عريض الثراء يقال له معالى بك ، كان سمحا كريما يغيث اللهفان ، فدحه رجاء خير يصيبه منه ، ومال يتزود به لرحلته الى استانبول ، فاغدى عليه معالى بك من عطاياها واجازته بجائزة سنية ، ثم الحقه بتلك القافلة التى كانت تحمل الخراج فى كل عام الى السلطان .

وانطلق فهم مع القافلة قافلا الى وطنه ، وفى احدى مدن الاناضول اصيب بالطاعون ، ولم يمهله الموت حتى يفرح فرح الغريب بأوبة وتلاق ، فما شاهد استانبول ، ومات غريبا بالاناضول كما عاش غريبا فى مصر ، وكان موته عام ١٦٤٥ .

وشاعر آخر من شعراء الترك سكن مصر اعواما عشرة وذكرها فى شعره ، هو محمد عاكف المعروف فى تركيا بشاعر الاسلام ، لانه كان ذا نزعة دينية ، فدعا الى اتحاد المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها تحت راية القرآن ، وفى جمهرة اشعاره تفسير لآية كريمة او حديث شريف ، ولنا أن نعتبره اول

داع الى ما يعرف بالجامعة الاسلامية في شعر تركي محكم النسيج
رصين الأسلوب . وقد شتا بمصر من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٢٥
وانخذها مستقرا له فلم يعد الى استانبول الا سنة ١٩٣٦ ، وهي
السنة التي كانت وفاته فيها ، كما طبع بمصر الجزء السابع من ديوانه
المسمى (صفحات) وشغل نفسه طوال هذه الأعوام العشرة
بتدريس التركية في الجامعة المصرية ، بعد ان تأكد الود بينه
وبين الأمير عباس حلمي باشا الذي بذل له القرى واكمه كثيرا
اما الباعث له على الرحيل الى مصر ، فضيقه بالمقام في تركيا ،
ويأس خيم على نفسه من حياة لا تدور ايامها ولياليها كما يهوى
ويرضى ، ومن ثم وجد الحاجة الى سياحة فيها نفرج هم ، وغرب
لتنفتح عيناه على دنيا اخرى قد تكون من دنياه خيرا وابقى ،
ورأى في ذلك احياء الآمال ، كما اعتبره جهادا وسعيا في مناكب
الارض يذكره بقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبلنا » . وقد اورد هذه الآية في تضاعيف رسالة له ، منها : « كلا
كلا ، اليأس حس مشثوم انكسد : فلنباعد بينه وبين قلب عامر
بالايمان ، واذا ماخذل التوفيق انسانا ، ومات في سبيل امل بحقه ،
فان موته حياة اخرى . قيل لئمة تسعى ، الى اين ؟ فقالت الى الحج

قيل كيف تخرجين للحج على ضعف سورتك ! فكان منها ان قالت :
« ان حال ضعفى بينى وبين بلوغ بيت الله ، فليكن فى السبيل
اليه موتى . »

وبين الشاعرين التركيين فهم ومحمد عاكف وجهاشبه ، كبير
وغير كبير ، اما الوجه الاول فهو انها جميعا وصفا النبيل فى
شعرهما ، والثانى ان فهما كره المقام فى مصر ، اما محمد عاكف
فذكره ان يسكن القاهرة ، وابدى لذلك سببا قد ندهش ونبسم
له ، فقال فى رسالة له بتاريخ ٢ مارس سنة ١٩٢٦ : « هبط مصر
من الخارج يونان ويهود وارمن وطلبان وروس ، وبهم جميعا
من جهد الفاقة ما لا يخفى . ثم اصبحوا اليوم من اهل الثراء والحوول
والطول . اما من جاء مصر من بلادنا فان بعضهم على حال نعوذ
بالله منها !! وانى لاحسب ان اعتكافى بمدينة حلوان ، يعيننى على
تحقيق رغبتى فى عدم مشاهدتهم حتى لا تذهب نفسى حشرات ،
ولمحمد عاكف قصيدة عصماء بعنوان « فى الاقصر » يتغنى
فيها بالنيل وآثار الفراعين فيقول : « النسيم راكد ، وشدة القيظ
لا تكاد تحتمل ، اما الشمس ، ففي الطفل . وقد انحدرت انحدارا
وثيدا من ربوة كثيرة شجراتها . هوذا الوادى المنخفض

يحتضن النيل ، وموجاته الزمردية تمتد امام ناظرى الى غير نهاية ،
وهى تهور وتمور كأنها سراب الحياة . فما هذا القدر الفارع البض
وامتداده المديد الذى تعانقه الشمس من سمائها بعد ان عبرته من
شرق الى غرب . وكان على يسرى نخلة وحيدة اويت الى ظلالها
المتفرقة المتخرقة . ما بهج ان يمتد البصر من هذا المكان الى الفضاء ،
وقد ارتفعت الدور على الشطين كالاجنحة . واذا تأملت صدره
البديع ، حلق الخيال بك كل محلق فى عالم غير هذا العالم ، ويدسم
الوادى القديم وتبسم امواهه ورغبتها ان تثب منه وتخرج عنه .
ثم يقف محمد عاكف عند هذا الحد من وصف النيل ، ويردد
النظر فيما تعمر به الاقصر من خرائب ، فيناجيه ويناجى فيها
مصر واعلمها الاقدمين : « تلك الهياكل التى ملأت منها العين صباحا
وجست خلالها ، هى حرص عنيف ضعيف لهذا الانسان على
ان يكون من الخالدين ! وأراد ان يرفع له فى الفضاء ظلا ضئيلا ،
فاتخذ من كل صخرة حجر قبر لآلاف حياة ! اما هذه الاصنام ،
فقد اقام منها اشباحا مخيفة اوائك الذين كانت الارض تسجد عند
اقدامهم ، والعروش تهتز لتعبيس فى وجوههم . غير ان الزمن
مد يد الكبرياء الى هؤلاء الطغاة البغاة ، فلم يبق منهم إلا انف

مجدوع او ساعد مكسور . وامتلا الرحب بأشلاء من الاتقاض
لتكون عبرة لمعتبر ، فما على الوجوه مهابة ، وما في الجباه غرور ،
ومحا البلى كل اثر البلامح والسمات ! ،

ولا يسترسل الشاعر في وصف الآثار ، وانما يلتفت ثانية
الى النيل في ساعة الاصيل فيقول : « والآن ، اوشكت الشمس
ان تنطفىء فانعشت منها الاشعة في الافق ، وركز وميضها
الاخير في ماء النيل عمودا نورانيا هاجت له الامواج وماجت ،
ثم اتخذت من الجبل ستارا لها يحجبها ، ومضت لتعرض الحسن
في آفاق آخر . وسكب المغرب روحه المعذبة وهو حزين
وهبط الغسق على الأرض رويدا رويدا ، وتردد وجه النيل فهو
مصفر ، اما عمود النور فهو ذاكن محمر . »

وهكذا تغنى بمصر ونيلها شاعران تركيان ، قديم مغمور
ومحدث مشهور ، والذي نيل اليه هو ان نيل فهم ابهى وأجمل
من نيل محمد عاكف .

بَيْطَةُ اللَّيْلِ

قصيدة من الشعر التركي العالم لجنا ب شهاب الدين
بك المتوفى عام ١٩٣٤ ، وكان في بدء أمره يتلوتلو
الأقدمين من شعراء الترك ، حتى رحل الى فرنسا
طلبا للطب ، فاطلع على الأدب الفرنسي وتأثر به
تأثرا يتجلى في هذا المثال من شعره اليرقراق .

تعالى يا جميلتي ، بالله الا ما قربت مجلسك منى هذه الالامسية ،
لنسترقى السمع معى باذن مصغية ، فان هذا الليل من حولنا
يموج بالانغام .

المعزف بعيد بعيد ، وله حنين ورنين ، لان رفاق الانامل
تداعيه بلبسها الرفيق ، فسكان ارواح الخريف تخفق ثم تخفق .
فاملنى مسمعيك يا حبتى من حنينه فى اغوار الليل الساكنة
وجوف الظلمة الخرساء .

إذا أدرك هذه الأنعام لين ورقة ، أو غشيتها للأسى وحشة
وانكسار ، ذكرت بها بلبل البستان وهو يرجع في شدواته
العذاب .

أما اذا ما عرتها هزة النشوة ، فان زفرة الوحدة تغمر كل
ما في هذا الكون النائم .

لمن تلك اليد المرتعشة التي ترسل لحنا بعد لحن ؟ ومنذا الذى
يرفع الصوت بذلك الغناء المحزون ؟ وأين هذا المحبوب الهاجر
الذى ينطق الأوتار باللحن الكسير على ذكره ؟ وأى مآتم
يرتج بهذا النحيب ؟

وذاك الصوت يدق ويرق ، ويطنل فيه الليل بترجيع أصداؤه
فتصغى إليه ظلمات بها سكات ، وقد يعلو ويدوى فيهتز الوجود
وينخلع قلب الدنيا ! فأشبهق شهقة تمضى عنى فى الليل المظلم جاعدة
أن تحرك روح الصمت .

ثم ينخفض رويدا رويدا ، ويتقطع كأنه يتلاشى ويمحى
حتى يسكن سكونا ، وينقطع انقطاعا ، ولا يتبقى من هذا النغمات
التي كانت تداعب السكينة إلا أنين خفى .

فمن يدري ما تحكى هذه الزمزمة العابرة واللحون البواغم ؟

ومن يفهم هذا الجرس الذى يطرق المسامع كألطف ما يكون
الطرق وأعذبه ؟

وما هذه الشكاة المترددة بألفاظها التى لم تتم وجملها التى
لا تفيد معنى ؟

لعلها تستعطف الليل الساجى ، أو تلتمس السلوة والعزاء ،
وتصنع ما يصنع النسيم اذا هب فنطق وطال منه ما يقول ، ثم
تنطلق من كل صوب تطير وهى بالآمال والخيال مفعمة . أما
اذا وهنت فهى كبقية الروح إذا ترددت فى صدر المحتضر ، وما
أشبهها بضعاف طير تتناوح .

هو ذا المعزف أسمعهم من بعيد ، وما أحسب الا احدى بنات
حواء تضرب به وتناجيه ، ثم تسأله فلا يريد عليها الا بحزين اليأس .
اسمعى يا حبتى ، فانها هى الباكية التى تنتحب انتحابا .



الطبيعة

في الشعر الفارسي القديم

للشعراء شديد ميل الى الطبيعة وفرط اعجاب بحاسنها ،
وقلما يخلو ديوان شعر من ذكرها أو وصفها ، في قصيدة أو
قصائد وبيت أو أبيات ، ففي آفاقها الرحبة متمتع لروح الشاعر
إذا انطلقت كالطائر الغريد يخفق جناحه فيحوم على غدير رقراق
ويقع على فتن مزهر مياد ، وهي دنياه التي تحتوى عليه وتحيط به
فلا يملك الخروج عنها ، والمشاهد انه يستوحىها معانيه ويصوغ
منها زينة لبلاغته ، فالجميل عنده روضة حسن غضة الزهرات
ياقنة الثمرات ، والجواد بحر ، والحليم طود ، والمدامع أمطار ،
الى آخر مايجرى هذا الجرى ، وإن وردها في الشعر ليلزمنا
التفرقة بين الشعراء وتحديد الأسباب التي تربطها بها . فهم ازماءها
شاعران ، شاعر بكففيه منها نظرة عابرة تمر عليها من النسيم ولا

تردد في نفسه إلا أصداء خافتة ، وآخر يكرر البصر فيها ويستبيه
حسنها ، فيختص بها ويتخذ منها عروسا للشعر . وفي مكنتنا أن
نتبين ذلك جليا ، ونجعله أصلا نفرع عليه فروعا ، اذا نظرنا في
شعر الفرس والترك ، ضاربين الأمثال بشعرائهم ، ومستقين
الأمثلة من أشعارهم .

فن شعراء الفرس في القرن الخامس الهجري شاعر مداح
يقال له فرّخي ، وقد عاش في كنف السلطان محمود الغزنوي وأمير
من أولاده ، كما ازلفه شعره عند الوزراء والكبراء ، وليس بدعا
من مثله أن يكون المدح جل بضاعته ، غير أنه كان يحلى أجياد
مدائحه بأبيات حسان جمهرتها في وصف الطبيعة ، وقد جعل هذا
الصنيع من حقه علينا أن نعتبره شاعرا من شعرائها ، لتلك الجودة
التي يتميز بها ، كما في قوله يمدح السلطان ويصف سحابة : «وافت
سحابة دكنام بعد أن مرت على صفحة بحر من الزرقة ، وكأني
بها نفس العاشق في فورتها ، ومهجته الجياشة في خفقتها . فاذرت
ما كانت تمسك من مائها ، وعلى أديم السماء تفرق بعضها عن
بعضها ، فكان الفيلة تجمعت ثم تفرقت في البيداء ذات السراب
ولاحت السماء كما تلوح المرأة تحت الصدا ، أو الشعر الذهبي

إذا انتشرت غداثه على حرير في لون الفيروز . وكأننا بحرا اخضر
عليه أفراخ العنقاء تطير . ،

فالشاعر موفق عظيم التوفيق في رسم هذه الصورة للسماء
الممطرة بما يزدحم فيها من متباين الألوان والشكول ، كما وهب
الحياة هذه السحابة اذ شبهها بقلب عاشق يحتدم لوعة ، ويريد
ليفيض بما هو مليء به ، واختار تشبيه بقاياها بالعنقاء لأنها
منوعة تكبر أن تصاد . وقال أيضا من قصيدة في النوروز وهو
عيد الربيع عند الفرس : « نتنسم ريح الربيع من بستانك أيها
البستاني ، فاعطنا مفتاح بستانك لأن لنا به شأنا في الغد ، وإذا
ما قدم البابل للقاء الربيع فيه ، فاعلم بأن ضيفانك الكثير سيقدمون
من غير دعوة ، أما اذا ازهرت شجرات الورد فاعلم ان اريجها
من طيب أحبابنا ، وان ربيع هذا العام لأجل من ربيع مضى ،
وأجل منه الغد ، لأن السلطان يعود فيه من صيده ، فليكن كل
عيد بهذا الجلال ويوم بذاك الجمال له عيد نوروز . ،

وهو في هذا الشعر يحدثنا حديثا هادئا طليما ، فلا يلزم نفسه
تأنقا ولا تعسفا ، ولا يقصد الى تحديد للرسوم ولا توزيع
للأصباغ ، وإنما حديثه عن نفسه ووقع الربيع على حسه ، والغرض

واضح من جعل عيد الربيع مناسبة يفترصها لمدح مولاه وزف
التهان اليه . وقد جرت لشعراء الفرس عادة بتحية النوروز ،
فجرهم ذلك إلى وصف الربيع ، ان اجمالاً أو تفصيلاً .

ومن أهل عصر فرخى ، أبو القاسم الفردوسى ، وهو صاحب
الشاهنامه - أى كتاب الملوك - وهى منظومة من ستين ألف بيت
جمع فيها تاريخ ايران منذ أقدم العصور الى الفتح العربى .

والفردوسى فى الشاهنامه قصاص عظيم وراوية ، الا انه
كذلك شاعر متصرف فى كل فنون الشعر ، فهو يروى الأخبار
ويسرد التواريخ ولا يكتفى بلسان شاعر وبيان متفنن ، ووصف
الطبيعة من تلك الفنون التى لم تضيق عنها شاعريته فهو الذى قال :
« ما زاندران بلاد أحيا الله ذكرها ، وأفعم بالعمران أرجاءها
على مر الزمان ، فرفت الأزاهير فى بساطتها ، وأنواع الرياحين
فى ربابها ووديانها . وصدحت العذالب على غصونها ، ورعت
الغزلان فى مروجها ، ودامت للنضرة بسمه على شطآن الغدران
وطاب أن يصاد بالبازى فى كل مكان . »

فهذا وصف ساذج للطبيعة فى بلد يدعو له الشاعر بدوام
الربيع والخصب واستبحار العمران . ولا يعد هذا شيئاً اذا

ذكرنا ان الفردوسى وصف شروق الشمس وغروبها فى النى بيت
واربعائة ، وله فى الشمس قرابة خمسة وعشرين وصفا يغاير كل
منها الآخر ، وكأنه بذلك يدل على انه من أهل خراسان ، فان
معنى خراسان بلد الشمس ، ومن قوله فى وصف الغروب ومقدم
الليل : « وانتشر لليل جيش كثيف فى البرارى والسهوب ، فمد
له بساطا كجناح الغراب ، وأصبحت السماء أشبه شئ بحسام
يكسوه الصدا ، وسكتت نأمة الدنيا ، وأدرك الشمس من الآين
والأعياء ما أوهنها . وانعقد لسان السكون واقصرت عن
الكلام خيره وشره ، فلا بلبل يئن ، ولا دابة تحن ا ،

وكان السابق الى الظن ، ان يعجل الفردوسى عن الاجادة
ويتخلف فى وصف الطبيعة لانسياقه مع حركة القصص ، وترديد
نظره فى سير الملوك والأبطال . والواقع من الأمر غير ذلك ،
أما منوچرى فهو شاعر السلطان مسعود الغزنوى المقتول
سنة ٤٣٢ هجرية ، وهو معروف فى الأدب الفارسى بتقليده
الشعر العربى وشدة تأثره به ، فقد حذا حذو امرئ القيس فى
معلقته ، والخيال العربى واضح فى شعره ، كما انه يعتبر شاعر
الطبيعة بحق فهو وصاف لها يصيب صفاتها ، ومفتون بها يتطربه

جمالها . ومن وصفه اعاصفة قوله : « عصفت الريح وكان هبوبها
من بابل ، فخطمت الصم للصلاب واقتلعت منيع القلاع ، وكأنها
السيل الجارف ينحط من رأس الجبل ، ويمحط معه الجلاميد
من عل ، وبدأت في الأفق سحابة لها سواد الغراب وهيئة طائر
من طيور البحر ، بعد أن عبرت قمة الجبل الأشم . وومض
البرق فيها بين الفينة والفينة ، وعمر بالنور كونا تغمره الظلمات ،
فكأن حديدة محماة يخرجها الحداد من كوره في الليل البهيم .
وقصف الرعد فانخلعت القلوب وانتصبت الشعرات كالإبر ،
وهز الأرض زلزال عنيف حتى خرت الجبال على جباها .
وسح المطر سحاما كما تنهاوى أوراق الورد في البستان . وتدفقت
سيول الصحراء من كل صوب ، وقد تعوجت واحتفرت لها
في الأرض مجرى ، وأرسلت من الخريف نغما موصولا . ،
والروعة ظاهرة في تشبيه اشتداد الريح بسيل يجرف الصخور ،
ووميض البرق بالحديدة المحماة يخرجها القين من كوره في ظلمة
الليل . وله بيتان يصف فيهما طلوع الشمس وهما : « رفعت
الشمس رأسها من وراء جبال البرز ، فكأن قاتلا يطل من
مكته وفي وجهه دم القتل ، وما أشبهها بسراج خبا نوره ،

ولا ينفك صاحبه عن مده بالزيت .

فمنو جهرى وصاف يعتمد أكثر ما يعتمد الى النحت والتجسيم ،
ولا يكتفى كغيره من الشعراء بالرسم والتلوين ويبتكر التشبيه
ابتكارا يكسبه جدة وخروجا عن المألوف .

• • •

وجرى كذلك للطبيعة في الشعر التركي ذكر طويل ، ومن
ترنم بمحاسنها شاعر يسمى نجاتي ، وكان من شعراء السلطان محمد
الفاتح ، فامتدحه بقصيدتين مشهورتين ، الأولى في وصف
الشتاء ، والأخرى في الربيع فقال (وللثلج هبوط من السماء
فسكان ارجالا من الجراد تنهاوى ، ألا ياقلب ويحك لا تؤمل
الصفاء ، انه طائر اخضر القوادم والخوافي . والغمام ابل جنت ،
فقد القت على الأرض اكفانا ثم مضت عنها كما تمضي قافلة
السرور والحبور . اما الناس ، فخرجوا بالمصابيح صباحا يتفقدون
شمسا ، وما وجدوا منها إلا شررة خفي لمعها ، إنه السلطان محمد
ولئن أرسلت الشمس شعاعها الذهبي وطفقت إلى يوم الحشر
تمسح به بحره وتسبر غوره ، لا تجد له من قاع ولا ساحل) فقد
أجاد الشاعر في رسم صورة لالباس الغيم الأرض وكان مبدعا

حين وصف الشمس ثم هبط منها إلى بحر ممدوحه . ومن قوله
في الريح (هو ذا الريح يرد على الدنيا بهجتها وبسمتها ، فكأنه
لقاء العشا ، بعد طول الفراق . يقولون حان وقت رشف الكأس
وفرحة الجدلان ، فحذار ثم حذار أن بضيع منك هباء مع الهواء
انظر إلى الغدير عذب الخريز ، وهو ينساب في الروضة كما تنساب
الحية ، لتداعب وجهه قدم جميلة هناك في ظل الخيلة .. محمد بن مراد
نخر السلاطين ، ان النجوم من أتباعه والشمس رايته والبدر
ركابه) فيا أسفا على روحانية الشعر ، وباضاعة الفن الرفيع إذا لم
تنثر درره إلا في حواشي المدائح ، وإن قدم الحسنة في الغدير
لأبهى من قدم السلطان في هلال السماء . ولبت الشاعر فرغ
للطبيعة وحدها ، فقد شوه من جمال شعره فيها أنه لم يذكرها
إلا لحقا في شعر المدح .

وفي طليعة شعرائها مسيحي المتوفى سنة ١٥١٢ . وقد كان
هذا الرجل شاعرا بطبعه يهيم في الخيال ، ويتبع أضياف الأوهام
فتبهاك على اللذات ويضيق ذرعه عن حياة العمل والواقع .
فمنحه الصدر الأعظم ضيعة ينفق من ريعها ، وبوأه منصبا في
الديوان ، غير أن الشاعر أظهر من التمانن وسوء التدبير

لأمر نيط به إنجازها ، ما أسخط السلطان عليه ، فنقص راتبه ،
وجهد مسيحي أن يرفع عنه السخط والبلاء فكان جهده هباء .
وشعره مرآة نفسه ففيه النزعة إلى التحرر من كل قيد ، والدعوة
إلى اغتنام فرصة اللذات قبل فواتها في دنيا نعيمها إلى زوال .

وله قصيدة مشهورة في الربيع منها : « استمع للبلبل ، أنه
يزف البشرى بمقدم الربيع ، فافعم بالألحان كل بستان ، وحيته
ازهار اللوز فنثرت عليه من فضتها ، فاشرب واطرب ، ليس
لأيام الربيع دوام ! وتحلت الرياض والمروج من أفانين النوار ،
أما الأزاهير فرقدت ناعمة على أسرتها في البساتين . آه من يدرى
من منا يمتد به العمر حتى يشهد هذا الربيع قبل انقضاءه فاشرب
واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام . بدت الورود كما تبدو
الحسان حمر الحدود ، وفي الآذان جواهر الانداء . فلا يغرنك
ماترى من جمال مآله الى الزوال . اشرب واطرب ، ليس لأيام
الربيع دوام . الغمامة تسكب الآلىء كل أصبوحة ، وتحمل الصبا
من المسك أطيب النفحات . فلا تنس زينة الدنيا ولا تغفل عن
متعنها . اشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام . »

فمسيحي ينطق عن هواه ، ويستلهم الأزهار والأطياف من

المعاني ما يردده في خاطره ليعبر عنه بالشدو الجميل ، فهو يمزج الطبيعة بروحه ولا يصفها وصفاً قائماً بذاته منقطع الصلة بوجدانه .
وفي القرن السادس عشر استفاضت الشهرة لشاعر تركي يدعى لامعى ، وكان شعر الطبيعة أخص ما عرف به ورفع ذكره ، وما يؤثر عنه أنه حفيد رسام . فسكانه أورثه دقة الحس ومحبة الجمال ، كما كان درويشاً من فرقة النقشبندية ، وله مناظرة شعرية بين الربيع والشتاء ، وفيها يتحدث عن الخريف بقوله :
« اقبل ايها الوهان المستهام ، فالوقت وقت الغرام ، ولتقض ساعة الوصال في نسيم عذب للحقول . لقد اطل السفرجل شموسا من غصونه بعد ان انضجته الرياح واكسبته من الألوان لون التبر ، وتدلى من السكرمة عنقود كهيئة الثريا ، واتخذت المروج لها حلة معصفرة من الأزاهير ، اما الاشجار الذهبية فالقت على الارض من ورقاتها قلائد العقيان . »

فلامعى رسام يحسن ان ينقل الى لوحته ما تشاهد عيناه ، وان فاتته ان يصنع مثلها صنع مسيحي ، فيشعر ويشرح شعوره ويحلم ويفسر احلامه ، ويثبت انه من الكون بعض من كل .
وقد نظم شعراء الفرس والترك قصائد تسمى « بهاريه »

نسبة الى « بهار » وهو الريح بالفارسية . وتغنوا فيها بجمال
الطبيعة ، غير انهم ذيلوها بالمدح ، وجعلوها وسيلة للغرض ،
وتباهوا فيها ببعد الشأو وطول الباع ، فمنهم من اجاد ومنهم من
شوه الطبيعة بقبح الصناعة .



للوطنية حديث قد يطول في تحديد بواعثها وعرض المتعدد
من صورها ، وما همنا هنا سوى أن نقنأولها من حيث دلالتها
أوضح الدلالة على صاحبها ، فانها لا تنسب إلا إلى كل من كان
على خلق عظيم ، ولن تتصورها دون أن تتصور النفس الانسانية
في اسمي درجاتها وأخص ما تتحلى به من أثار كريم ، ورغبة نبيلة
في الفداء ، ورضا بالعناء أو حتى بالفناء في سبيل أن يسعد الغير ،
ويرد عن الوطن كل شر ، كما انها جهاد في الحق ونضال ،
واستشراق لأعلى المثل . وإذا كان للجماعة أن تعز برجال فيها
تجربى عليهم هذه الصفات ، فهي ولا ريب أشد اعتزازا بالنساء ،
لأن الزعم انهن متخلفات عن الرجال في العزم والهمة ، وعليه
لجهدهن جهد المقل وأحسانهن موضع عجب وأعجاب .

ومن الايرانيات من املين على التاريخ صفحات ناصعات في
الوطنية لا يطويها الزمان ولن يلبسها ، فلما ساءت الحال الداخلية
في إيران وعمتها الفوضى في القرن الثامن عشر ، اراد من يدعى
اشرف الافغانى ان يستأثر بالحكم ويجعل ازمته فى يده ، فاستقر
بمدينة اصفهان وأرسل دعاة ملكه فيها ، ورأى الترك ان الايرانيين
تفرقهم الأهواء وتتقسمهم النزعات ، فوجدوا الفرصة مواتية
لقتالهم ، وانفذوا جيشا تحت لواء القائد احمد باشا فاستولوا على
همذان واتخذوا اهبيتهم لدخول اصفهان ، إلا ان اشرف الافغانى
اعمل الحيلة وركن إلى الخديعة حتى تمكن من ان يقتل منهم مقتلة
عظيمة . ولما رأى ان الترك سيعيدون الكرة ، وانه لا طاقة له
بهم ، بعث بأربعة من علماء أهل السنة الاجلاء إلى معسكر
احمد باشا ، ولما وقفوا فى حضرة القائد التركى قال قائلهم : « ان
اشرف الافغانى يقرأ عليك السلام ويقول اننا اخوتكم فى الدين ،
والنسن مذهبنا ومذهبكم ، وقد قضينا على الدولة الصفوية الشيعية ،
فكيف تقاتلوننا ؟ » فوقع هذا الكلام من نفس احمد باشا موقعا
حسنا ، واكد للعلماء الاربعة انه ان يحارب الايرانيين ، غير انه
طلب الدخول تحت شرط ، وهو ان تسمح ايران برسالة الفين من

الفتيات إلى بلاد الترك للافادة من حذقهن الفنى فى تعليم فنون
النقش والتطريز ونسج السجاد . ونال احمد باشا من اشرف
الافغانى بغيته ، فاسمع الافغانى بصناع فى المدينة إلا امرها بالتوجه
إلى معسكر الترك ، حتى تجمع من الايرانيات ذلك العدد المتفق
عليه ، وكان يبنهن الكثيرات من سليلات عليّة القوم وبنات
الملوك . فرحلن مع جيش الترك إلى استانبول كالاسيرات ،
وهناك ازدانت القصور بما نسجن من فاخر الطنافس ، ورفلت
حظيات السلاطين فيما طرزته اناملهن من وشى وديباج ، وشاهد
الترك للمرة الاولى جميل الرسوم والنقوش على بديع الاوانى ،
وتعلموا منهن النساجة والتطريز والنقش . وقد جعلت الايرانيات
على انفسهن الاغضاء عن حراسهن من جنود الانكشارية الذين
طالما جهدوا عبثا ان يظفروا منهن بنظرة او بسمّة . كما رفضن
بكبرياء وابهاء كل من طلب لهن يدا من ابناء الترك ، وآثرن ان
يضربن المثل للعبة الايرانية ، وتلك النخوة التى فرضت عليهن
ان يحتفظن بكرامتهن ، ولم يكن لهن من عزاء عن حياة الاسر
والسخرة التى يحيدنها سوى ان يسمعن الناس من حولهن وهم
يشيدون بذكر إيران بلد الجمال والفن . وكم كان يطيب لهن ويرضى

كبرياءهن أن يعتبرن مدلالات على عظمة إيران معرفات بها .
غير أن الغربية لم تنسهن الوطن الحبيب فكان يشتقنه ويتسمن
اخباره . واتفق للقتال أن انتشب ثمانية بين الاتراك والایرانیین ،
فرحف نادر شاه علی بغداد بحیث عظیم ، یدانه نكص علی
عقبیه امام الفئه الکثیرة والحصون المنبعة ، ثم تلقى کتابا من
بنات قومه باستانبول جاء فیہ قولهن : دیابن ایران البئیس ،
نحب ان نلفتك إلى ان فکنا من اسرنا خیر واجدی من مدائن
تفتحها ، واخوف ما نخاف هو ان ینال اعراضنا من هؤلاء
العثمانیین ما یسوء وطننا ایران ویذل کرامته ، فنناشدک الله ان
تتدارک أمرنا ، لقد قمنا خیر قیام بما یملیه علینا حق وطننا ، فلم
یبق إلا ان تؤدي الواجب غیر منقوص .

وما انم نادر شاه قراءة الکتاب حتی تحرکت اعماق نفسه
وفاضت من الدمع عینه ، ثم امتلا انفه وحیه . فجمع قلوب
جنده ، والهبهم حماسة فانطلقوا إلى المیدان وعصفوا بالترک
عصفا بددت شمالهم واذهبت ریحهم ، ولما تهادن المتحاربون کان
أول مطلب الایرانیین هو ارجاع الفتیات إلى دیارهن . فعدن
معززات مکرمات . بعد غربه دامت نحوا من عام . اما أبناء

وطنهن فلم ينسوا جميلهن ولم يمحذوا فضلهن ، فما زال أهل القرى
حول مدينة كرمانشاه يحيون ذكراهن في كل سنة ، فيجتمعون
ويقصفون ويمرحون منشدین اناشيدهم الشعبية ، ومتخذين من
ذلك عيداً يسمونه « عيد بنات الاحرار » . ويميل أهل ايران الى
ان يتسموا بالاحرار . وذلك انفة من تسمية العرب لهم بالموالى
والموالى هم العبيد في بعض مدلولات الكلمة .

ولما قام الشعب الايراني بالثورة عام ١٩٠٨ مطالباً بالدستور
والحرية ، وراغباً الى اولى الامر منه أن يوقفوا الأجانب عند
حد ، ويحولوا بينهم وبين التدخل في الخاص من شؤون البلاد ،
كانت المرأة في هذه الثورة ظاهرة الاثر ، تثبت وجودها احسن
اثبات ، وتدل على أنها ليست دون الرجال محبة للوطن ،
وقدرة على ابراز عاطفتها الوطنية . ويقول بعض مؤرخي
الثورة ، ان للنساء معظم الفضل في انجاحها ، وذلك لمشاركتهن
الفعالة في تأريث نارهة التي كشفت الظلمات واناوت السبيل الى
حياة العز بعد الذل ، والتقدم بعد التأخر .

واحق النساء بالذكر في هذا الزمان زينب باشا التبريزية
وكلانتر الطهرانية ، فقد كان منهما أن عارضتا الحكومة معارضة

شديدة عنيدة ، وافلحتا في إثارة الخواطر ضدها . فظهرتا من الثبات على الرأي شيئا عجيبا ، ومن شجاعة النفس ما يجعل للحسد ديبيا في قلوب الشجعان . وباطالما قادتا جماعات من النساء المظاهرات وفي أيديهن عصى يلوحن بها ، فمررن بالأسواق وطلبن إلى أصحاب المتاجر أن يغلقوها احتجاجا على الحكومة واطهارا لتسخط صنيعها ، فما كان يسع الرجال إلا أن يأتروا بأمر النساء ، وينتهوا عن نهيهن . كما كانوا يضمون صوتهن إلى صوتهن ويسيرون معهن في حشود تمضي إلى قصر الشاه أو تقف باعتبار الحكام ومن يبدعهم الحل والعقد ، وهناك تستنجز الحاجات وترتفع الشكايات ، وتتملى إرادة الشعب على حاكميه ويجرؤ المسودون على ساداتهم . وقد استفاضت الشهرة لزینب باشا وكلا نتر ، فتغنى الشعراء بما لهما من مناقب ، وامتدحوا ما اتصفتا به من فضائل . فجرى هذا الشعر على السنة المنشدين ، ورتلته اصوات المغنين .

وفي مدينة تبریز تألف حزب نسائي باسم « جمعية النساء » ، ويرجع الفضل في تأليفه إلى عقيلة من يدعى ميرزا علي ، وكان لهذا الحزب أهداف وطنية قومية ، فقد أخذ أعضاؤه من النساء

انفسهن بأن ينقن ابناءهن مبادئ الثورة ، ويؤيدن الثائرين
في مطالبهم ووجهاً نظرهم ، كما جلعن من ديدنهن حب المرأة
الایرانية على مقاطعة الاقمشة الاجنبية والاجزاء بما تهيشه لهن
ايد لبنات الوطن وابنائها .

ولما توعد الروس باحتلال طهران إذا لم يخضع نواب الامة
لمطالبهم ويستكينوا لمطامعهم ، قصدت فتاة تسمى شمس المعالی
إلى حد المساجد ، فصعدت المنبر وخطبت الناس بما هن القلوب
هزا ، ثم تحدثت بلسان بنات وطنها ، فأثحت باللائمة على النواب
واتهمتهم بالخضوع والخنوع امام الروس كما صرحت بأن النساء جميعا
على اتم الالهة للبذل والفداء في سبيل ظفر البلاد بحريتها ودستورها .
ولما قر القرار على انشاء مصرف اهلى في ايران ، دخلت
على لجنته المجتمة احدى السيدات وقدمت قرطاطها مظهرة شديداً
اسفها على ضالة قيمته ، وملتزمة المعاذير لانها لا تملك من
النفائس ما تضحى به في سبيل الوطن ، فكان لذلك ابلغ الاثر
في النفوس ، وحدا غيرها من النساء على الناس بها وتأثر خطاها
فشاركن بالنصيب الاوئى في قرض وطنى .
وحين استعان محمد على شاه على الثوار بحمد من الروس ،

فضربوا بمدافعهم دار مجلس الشورى ومسجد سهبسالار ، انبرت
للمعتدين من وجهت اليهم رقيق العتاب وشديد الملام ، وما زالت
بهم تؤنبهم وتسفه أحلامهم حتى انثنوا عن قبيح ما كانوا
يصنعون ، وبلغ من فرط ندمهم وخجلهم أن طيبوا خاطرها
وسألوها العفو والمعذرة .

ومما يروى ان نساء يبلغن الثلاثمائة عدا ، اخذن ستمهن الى
دار مجلس الشورى ، وهناك طلبن مقابلة الرئيس ، غير ان الرئيس
رفض ذلك وكرهه ، ثم قرر انه لا يسمح بالتحدث معه إلا
لفريق صغير منهن ، فما نقل للنساء ذلك الخبر حتى اقتحمن
على النواب مجلسهم ، فطرحن نقبهن وبرزن اسلحتهن من تحت
ثيابهن وقلن انهن لن يترددن طرفة عين فى قتل اولادهن وازواجهن
من النواب إذا تخلفوا عن اداء الواجب وتلبية نداء الوطن ،
وبذل الجهد لارجاع الحرية المغتصبة الى الشعب وحفظ كرامته
عليه ، وبختن قولاتهن بأنهن لا يخشين موتا فى سبيل الوطن
ويسعدهن ان يهلكن دونه .

ولان يفوتنا ان نذكر الصحافة التى جعلتها الايرانيات وسيلة

الى الجدل عن الرأى ، والتميز بين الصلاح والصلاح ، فتسابقت
اقلامهن فى تدبيج المقالات والنداءات ، وتحملت الجرائد والمجلات
بما جادت به قرائنهن من نثر ونظيم .

رجال السلاطين

الناس في كل زمان ومكان على ذكر محاسن موتاهم ، ومن
المألوف انهم يكرمونهم فوق مقدارهم ، وينسبون اليهم من
صفات المدح بعد مماتهم ما لم ينسبوا في حياتهم ، ومرد ذلك الى
باعثين : اما اولها فالشعور بافتقار المفتقد ، وانقطاع ما يرجي
من افضاله وخيراته وحسناته وذلك ان كان عظيما على الخصوص ،
والثاني لوعة الفراق واسى الفجیعة وشدة الاسف التي تجعل بين
الحی والمیت من العاطفة شبه ما بين المحب الذي يتصور في محبوبه
حتى ما ليس فيه . وهل يمكن ان يأسف الانسان الا على ذاهب
كان يرجو له البقاء ، وزائل كان يتمنى له الدوام ؟ فاذا ادركنا
الرثاء بهذا المعنى ثم عرفناه بانه مدح المیت ، حق لنا ان ننظر
فيما رثى به شعراء الترك سلاطينهم لنطلع على افانين من القول

ونتفهم الوانا من المعاني .

ومن اشهر المراثى فى الشعر التركى تلك المراثية التى رثى بها
السلطان سليم الاول ، وصاحبها كمال باشا زاده ، ذلك الشاعر
العالم الذى قيسنى عنه انه علامة الخافقين ومفتى الثقاين . وقد
اكرمه السلطان سليم وادنى مجلسه ، وصحبه فى غزوه للشام
ومصر ، فكانا خير صاحب ومصحوب ، والظن بكال باشا زاده
ان يكون صادق اللهجة شديد اللوعة فى رثائه ، وان هذه المراثية
صورة واضحة لشاعرها ، ولمن قيلت فيه . فهى تظهر صاحبها
رجلا له عقل ورأى ، صبوراً له صبر المؤمن المحتسب ، يحزن
ولسكنه يستعين على حزنه بالسكتان ، ويأخذ نفسه بتعداد مآثر
السلطان ل اظهار الفجعة فيه ، وينكر بذلك نفسه الحزينة انكارا
يكاد يكون تاما ، فيقول : « هو فى عزمه قى غرير وفى حزمه
شيخ كبير ، هو صاحب القلم وصاحب التدبير ، هو قائد الجيوش
فى الميدان ، وفى اصالة الراى كوزير سليمان ، فلم تسكن به من
حاجة لا الى وزير ولا الى مشير ، له خنجر من قلبه وصمصامة
من يده ، له الرمح من ذراعه والسهم من بنانه ، لقد انجز الكثير
من المهام فى القليل من الاعوام ، وامتد ظله بين الخافقين ، واذا

كان نحر الملوك بالعروش والنيجان ، فانت العرش والتاج به
يفخران . كان شمس العصر ، وشمس العصر طويل ظلها قصير
زمانها . مارأت الأفلاك له من ضريب في ملاعب هو ولا
سوح وغى ، فهو اذا خرج الى ايوان الأنس والطرب شمس
تنير ، واذا دخل ميدان الحرب اسد هصور . الا فلتذكره
الهيجماء ، ولتبكه السيوف بالدماء ، لقد قضى السلطان سليم ،
فوا أسفا عليه ، وليبكه السيوف واليراع جميعا .

والقصيدة من الشاعرية ضئيل حظها لو لا ذلك البيت المشهور
الذى يشبه فيه السلطان المتوفى سنة ٥٢٠ هـ عن خمسين عاما ،
بشمس الاصيل طويلة الظل قصيرة الاجل . والشاعر حزين
بعقله لا بقلبه ، فانه لم يزد على ان مدح السلطان آسفا على حزمه
وعزمه ، وبكى السيوف عليه بدمائها والأقلام بمدادها .

وكان نجاشى من هؤلاء الشعراء الذين بعد صيتهم وظهر
امرهم على عهد السلطان محمد الفاتح ، فلها مات الفاتح وخلفه
ولده بايزيد الثانى ، اختار الشاعر مؤدبا لولديه عبد الله ومحمود
وكان ذلك منه اعترافا بفضله واعلاء لمنزلته . وقام فى نفس
بايزيد ان يولى ولده عبد الله اقليم قرامان ، وامثل الأمير امر

والده السلطان ، ورحل إلى مقر ولايته ، غير أن الوالى لم ينس مؤدبه وصفيه نجاقى الذى لازمه ولم يفارقه حتى جرى القضاء بأن يفرق الموت بينهما ، فمات الأمير عبد الله فى قرامان .

ولنا أن نورد هنا ابياتا رثاه بها نجاقى ، وان كان المتوفى اميرا وليس بسلطان ، الا اننا لانخرج عن صددنا خروجنا بعيدا إذا راعينا ان الأمير سلطان باعتبار ماسيكون أو مايمكن ان يكون . يقول نجاقى فى الامير عبد الله : « أيها القلب ، اح من كتاب المحبة ذكرك واسمك ، ولتكن فى هذه الدنيا من الزاهدين ، تنسك وتكشف لتمدح بذلك مع الممدوحين . اغمض الجفن عن بريق لوجه الدنيا ، فان الدموع لتجرى من عين كل محلق فى قرص الشمس ، الفلك وعاء مقلوب على خوان الحياة ، فما اصاب منه أحد قط ما كفاه وارضاه ، لقد تخرب الملك فلا الملك . ملك قرامان ، واختفى السكندر فلن يبدو للعيان . »

فهذا الشعر فى ذم الزمان ، ودعوة للرغبة عن الدنيا ، وحض على رفضها من أجل ذلك النحاس الذى تدور به أفلاكها والشاعر متطير حزين ، لا يرى بعد موت صاحبه فى الحياة إلا حرمانا وخرابا ، واخفاء لسكنوز كانت على وجه الأرض

فأصبحت في بطنها . وهذا الرثاء قليل الصلاحية لأن يسمى رثاء بالمعنى الصحيح . غير أن نجاتي شديد التعلق بهذا المنحى لا ينبغي عنه حولا ، فقد قال ما يشبهه ويجرى مجراه يوم مات الأمير محمود فبكاه بقوله : « هذى دنيا الخراب والهموم والغموم ، وهى دار شقوة وعناء ، وإن سماها الواهمون دار سعادة وهناء . وانا لمدرجون جميعا فى الاكفان ، وسواء فى ذلك صعلوك ومليك ، ولو كان للقبر لسان وبيان لقال : هراء وبهتان ، كل ما حدثكم به يابنى الانسان ، عن هذا الجبار الذى تسمونه بالحمام ! »

فأين ذكر الميت فى هذا الكلام ؟ الواقع من الامر ان نجاتي يقف من الموت موقفه امام سرهم وطلمس مغلق ، فهو فى حيرة من امره ، عاجز عن التعريف والتعبير ، وقانع بتصوير اثر الموت فى نفسه ، وما يديره فى رأسه من احلام واوهام ، وكأنما اذهله هول الخطب وشغله عن ذكر من يرثيه ، اللهم إلا تليحها لا تصريحاً .

وفى تاريخ الترك مأساة فاجعة ، وذكر الخبر عنها اجمالاً انه كان للسلطان سليمان القانونى ولد يقال له الامير مصطفى ، كما

كانت له زوجة روسية تدعى روكسلانا بعيدة الهمة عظيمة
الدهاء شديدة التسلط على زوجها السلطان ، فأحبت أن يكون
العرش لابنها لا لمصطفى وريث العرش الشرعي ، ورأت أن
رغباها لا تتحقق إلا بموت مصطفى ، فخدعت السلطان عن نفسه
والقت في روعه أن ولده يريد قتله ، وأعارها اذنا واعية فاصدر
الأمر بقتله ، وكان مصطفى البريء محبوبا ، فترددت في البلاد
رنة الاسى لموته ، ورثاه شاعر من رجال الجيش هو يحيى بك
المتوفى سنة ١٥٧٥ م . وتعرف مرثيته بالمرثية المصطفوية ،
وكاد من اجلها يلقي مصرير من بكاء ، فقد استدعاه الصدر الأعظم
رستم باشا ، وخشن عليه في القول مستنكرا منه أن يتوجع لمن
أمر السلطان بموته . فرد يحيى بك بقوله (نحن نلعبه مع السلطان
وان كنا تبكيه مع الرعية) وجهد الصدر الأعظم أن يستصدر
الأمر بقتله ، الا أن السلطان اكتفى بعزله من منصبه . ومن
قوله في رثاء الامير (ويلاه ويلاه ماذا دهاانا ، لقد انهار جانب
من دنيانا ، بعد ما كان من زبانية الردى ، الذين قتلوا الامير
مصطفى ، فكسفت شمس طلعتة ، وهو منقطع عن حماه
وبطانته . ان حقد الحقود واثم السكذوب وغدر الفاجر ،

ما أشعل للفراق نارا ، واستقطر من عيوننا امطارا ، فيا ليت
هذه العيون لم تكن ، ولم تشاهد هول ما كان . ان النجوم
الطوالع خفقات وحرقات ، وبلاد الترك والشام تفيض بالعبرات
هو ذا الثعبان الرهيب يطوق عنقه واحر قلباه . فكأنه الهالة !
وقد ارتضى ماجرى القضاء به كيفما كان ، والله انه برىء الساحة
ما عرف عنه قط من سوء ، ايها الشهيد الطاهر ، لقد منيت بحور
جائر . افسح الله له في رحمته واسكنه جنته . ودامت أيام
مولانا على وجه الدنيا في نعيم مقيم !

والمرثية جيدة لا غبار عليها في كل معنى من معانيها ، غير أن
الشاعر لم يحسن صنعا بالدعاء للسلطان سليمان بعد الترحم على
الأمير مصطفى ، لانه بذلك أفسد روحانية المرثية وضع بعضا
من أثرها في القلوب ، فقد تمنى الخير لأب غليظ الكبد يقتل
ولده . بعد أن رق للقتيل فبكى واستبكى ، وعطف عليه واستعطف
وافهم النفوس كرها لآية ، بقدر ما افعمها الما للفجيعة فيه ،
وهذا ما يسوء وقعه على الحس الأدبي ، لانه لا يوافق مقتضى
الحال

ولدينا شاعر رابع هو باقى المتوفى في نهاية القرن السادس عشر

والذى يعتبر امير الشعر التركى فى العصر القديم ، ونخصه بالذكر
هذا لتلك القصيدة الطويلة التى رثى بها السلطان سليمان
القانونى ، ويذهب بعض مؤرخى الادب التركى إلى أنها أجمل
مرثية قيلت فى سلطان ، وليس فى هذا شىء من الاغراق لأنها
جمعت إلى جزالة لفظها واحكام نسجها كل عناصر المراثى ، فهو
يستهلها بتوجيه الكلام إلى القارىء أو السامع قائلا : « انت
يا من تنشد الصيت البعيد وتطلب المجد التليد ، فأصبحت من
حرصك هذا فى القيود ، إلام بزخرف الدنيا تعلقك ، وحتام
على لذاتها تهاالكك ؟ لا بد للحمرة فى خد زهرات الربيع ، من
صفرة كورقات الخريف ، ولا بد من أن يكون مقرك
الآخر ، كهذه الثمالة التى تلقى ، وذلك التراب الذى ينفض ،
واسوف يصدع الزمان كأسا تدار على الندامى فيتصدع الشمل
الجميع . أما آن لعين أن تسمع عنها نعاس الغفلة ! »

وكان باقى فى قوله هذا يردد اصدااء نجاحى . غير أنه رقيق
الشاعرية مشرق الديباجة ، ينبه بلطف ولا يزجر بعنف . مستعينا
بقريحة خصبة وخيال واسع على تزيين كلامه وتقديمه تقديمًا
جميلًا يلفت الخواطر ويجذب إليه النفوس ، حتى إذا اطمأن

إلى ذلك أتى موضوعه من بابه فمضى يقول : « ليس لك عبرة
في حكم الزمان على سيد الحكام وفتي الفتيان وفارس الميدان ،
راكب المحجل الاغر الذي كانت الدنيا على إتساع رقعتها مسبحا
له فيه يصول ويجول ، ويعدو ملء فروجه شائخا برأسه .
ذلك الذي رفع السيف الحسام الملتمع ، فانخفضت أمامه رؤوس
المجر ، وعرف الفرنجة من خبره ما عرفوا ، لقد جعل وجهه
في التراب كورقة الورد . فتسلم خازن الأرض جوهرة يعتز
كنزه بها . كانت ادنى عطية له تجعل الفقير الوقير غنيا مليا ، هو
كريم الكرام وعظيم الحكام . وعلى اعتابه كان الشعراء والعلماء
يرقبون مناهم . لا تحسبته ضاق ذرعا بحدثان هذا الفلك الخوون
لقد كان خروجه عن ملكه وزهده في عزه ومجده تقربا منه لرب
العالمين واختيارا لجواره . »

فقد وصف باقى سليمان القانوني في كرمه وسماحته ، وصوره
في الهيجاء بطلا صنيديا وفاتحا مغوارا اذل اعناق المجر على
صلابتهم وشدة بأسهم ، واذاق الفرنجة من هول القتال ما تحدثت
به ركبائهم ، وبينما يظهره الشاعر لنا في عظمته وجبروته ،
إذا به ينتقل بنا من نقيض إلى نقيض فيشبه وجهها له اذبله الموت

بورقة الورد الرقيقة اسقطتها زفرة النسيم فى التراب ، ثم يحسن
ان يعلى موته برغبته فى جوار ربه . وهذا مايشهد للشاعر على
ملكة اصيلة وطبع فياض . ثم يعبر عن وجدده به وشدة حزنه
عاليه فيقول : « كأن سحاب الربيع حزنت لموتك مثلى وامتنع
قرارها ، فهامت فى الآفاق تذرى ادمعا لها ، فلتندبك اطياف
السحر ، ولتنح عليك وتملأ الدنيا نواحا ، ولتشق ازهار الروض
جيوبها إلى جانب الهزار ذى الحنين والرنين ، وإذا ماتناوح
الزهر فى مآتمك فليبك ماشاء الله أن يبكى . أما الجبال فلتتحدث
دموعها على سفوحها ، أيها القلب ، انت من يسعدنى وعلى
بلواى يعينى ، تعال نرفع من صوتنا مايرفع الناي من صوته ،
وليسر بثنا فى نفوس المحزونين من امثالنا . »

ولا ريب أن التوفيق خذله فى هذه الآيات بعض الخذلان
لانه يعيد مبتدلا ويقول مكرورا . ويردد تلك المعانى التى يفسدها
التكلف ، ويشوه من حسننها شديد الاغراق ، فلم يبق شاعر
حزين لأمر ما ، الا وقد طلب إلى الطبيعة اسعاده فاستقطر الدمع
من السحاب ، واستبكى البلابل على الاغصان وتصور ان الورد
تشق الجيوب ، والذى بلوح هو ان هذه النعمة القديمة المملولة

إن بدت هنا غير جميلة من (باقى) ، فلأنه كان مبتكرا قبلها ، محسنا
كل الاحسان ، وتخلفه اللاحق ظاهر بالاضافة إلى تقدمه السابق .
وان كان يذكر السلطان الذى مات فى خيمة له بمعسكر ببلاد
المجر فيقول : « لقد تنفس الفجر وانصدع عمود الصبح ، فهل
لسلطان السلاطين يقظة من رقدته ؟ أو خروج كعادته من
خيمته ، تلك الخيمة التى كان يزيناها مايزين قبة السماء ؟ » لقد وقفنا
وطال وقوفنا ، وامتد إلى طريقه بصرنا ، غير أنه ارتد حسيرا
الىنا ، فلم نشاهد له اثرا ولم نسمع عن موكب العظيم خبرا او يلاه
ان هناك مشواه ، وقد يبست شفتاه ، وذبل خداه ! »

فشاعرنا هنا مشبوب اللوعة يقرر الحقيقة ولا يعدوها ،
ويذكرها فى جو شعري جميل ، كما أنه لا يتخيل شيئا وانما
يطلب الى قارئه هذا التخيل الذى تذهب النفوس فيه مذاهب
شتى وان هذه المراثية الرائعة لمثال جيد من شعر باقى أمير
الشعراء .

والفرق واضح بين هؤلاء الشعراء الأربعة ، فكمال باشا
زاده يرثى سليما رثاء هو أشبه شيء بالرثاء الرسمي الذى تفرضه

المناسبة فرضاً . ونجائى يتخذ من موت الأميرين ذريعة
لشكوى الزمان والتعجب من صروفه ويحيى بك يحسن الرثاء
وان كان لا يحسن الدعاء ، أما باقى فتأثر ومؤثر ، لأنه لا يغفل
التحدث عن نفسه والافصاح عن عاطفته بعد أن تحدث عن
السلطان سليمان ، فكانت مرثيته كاملة عامرة .

الفرس في أدب الغرب

عرف الغربيون الفرس منذ طويل زمان ، والخبر اليقين عند التاريخ السياسي الذي ينبثنا بما كان بينهم من حروب ، والتاريخ الأدبي الذي يسجل أثرهم في أدب الأوروبيين ، وبين كيف ذكرهم أهل الأدب في آثارهم ، فالذي نقصد اليه هنا هو تصور الفرس في أدب الفرنجة مذكورين ومؤثرين ، وتحديد ذلك ما وسعنا أن نحدده .

فقد هاجت الحرب بين اليونان وإيران على عهد الملك دارا يوم نار اليونان في آسيا الصغرى واستولوا عنوة على مدينة الملك الملوك ، وأضرموا فيها النار تشفيا وتنكيلا ، فاحفظ ذلك الملك دارا ، حتى أنه أمر غلامه أن يذكره في كل يوم بالنار من البنايين المعتدين ، فقاتلهم وهزمهم وبدد شملهم ثم جهز جيشا

أنفذه الى تراقيا ومقدونيا فكان الفتح مبينا والنصر عظيما. وشاء
أن يحاربهم بحرا كما حاربهم برا ، الا أن الفرس لم يصمدوا
اليونان ، ولم يف أجل دارا باعادة الكرة ومحو عار الهزيمة .
وخلفه ولده خشايارشا الذي أخذ نفسه بأن يسير في الاعداء
سيرة أبيه ، فوجه اليهم جيشا كعوج البحر عبر الدردنيل وزحف
صوب أثينا ، وما ان وصل اليها حتى أحرق معبدها ، واقتل
الفريقان أحر قتال في بوغاز سلاميس فدارت الدائرة على الفرس
بعد أن هبت عاصفة دمرت سفاتهم في البحر تدميرا . وقد اعتر
اليونان بنصرهم هذا ايما اعتزاز ، ومجدوه ايما تمجيد ، ولا غرو
فقد رد عادة الفرس عن أوروبا وحال دون تحول التاريخ
عن مجراه .

وفي عام ٤٧٢ قبل الميلاد أي بعد انتصار اليونان في سلاميس
باهوام ثمانية ، ألف الروائي اليوناني العظيم اسخيلوس تمثيلية
« الفرس » . وهو فيها يصور ما آلت اليه حالهم ماديا ومعنويا
بعد أن كسرهم اليونان أبخس كسرة ، فنشاهد في التمثيلية جمعا من
رجال الدولة الفارسية بمدينة سوس أمام قبر الملك دارا ، وقد
اشتد قلقهم وجزعهم على جيشهم الذي انقطعت عنهم أخباره

ولم يعرفوا شيئا عما نزل به ، فذهبت نفوسهم شعاعا بعد أن
حطم اليأس قلوبهم ورأى ظلاما على أفكارهم . ثم ظهر اتوسا
والدة الملك خشايارشافي عربتها الملكية الضخمة الفخمة ، وتلفت
الى المجتمعين قاصة عليهم رؤيا رأتها فافزعتهما ، مستفسرة عن
معناها ودلالاتها ، ويدخل على القوم رسول ليتلو على مسامعهم
نيا الموقعة وما منى الفرس فيها من هلكة مبيدة وويل ودمار
فيقول : « وارتفعت الجلبة من ناحية اليونان وكأنهم يترنمون
بنشيد من أناشيدهم الدينية ، فرددت الأصدا صخور الجزيرة
وكان ترديدا عاليا داويا . أما البرابرة المستينسين فالتخت قلوبهم
لأن اليونان المغنين لم يفروا ، وإنما شدوا وكروا ، وخاضوا
الغمرات بياس عظيم ، وقد ألهبت حميتهم نفخات في الصور .
وبرز اليونان لنا وصائحهم يقول : « يامعشر اليونان استنقذوا
وطنكم ونساءكم وأطفالكم ومعابد آبائكم وقبور أجدادكم . وغطت
الأسلاء الشواطئ والصخور ، وانطلقت سفائن البرابرة هاربة
في كل وجه تلمس النجاة ، ونزلت ضربات بالفرس ومزقوا
كل ممزق وكأنهم سماك في شباك ، فارتدوا في البحر الاشكوى
الشاكين وبكاء الباكين . ثم رحنا ظلام الليل فحجبنا عن أعدائنا .

الا ما كان أعظم ما لقينا من شدايد وكابدنا من آلام ، لو شئت
تعدادها لما بلغت من ذلك سأربا ولو بعد حين . اعلّموا يقيننا
انه ما هلك قط من الرجال في يوم واحد مثل ما هلك من
رجالنا . ،

وتظهر اوسا اسي وتفجعا ، ويلوح شبح الملك دارا فيبذل
النصح وينطق بالحكمة . ويأمر المحزونين بالرضا والاستكانة ،
ثم يدخل الملك خشايارشا وهو ينتحب مع المنتحبين ويخرج
للعودة إلى قصره ، وتختتم التمثيلية بزفرات الأسف وعبرات الندم
والحزن الذي ليس بعده حزن . ويلحظ على المؤلف انه يكاد
يقتصر على ذكر الفرس ووصف محنتهم ونكبتهم ، وفي أوصافه
مرارة الشماتة وسخرية التشفي ، ونشوة المنتصر الذي مكنته الله
من عدوه بعد يأس وجهد ومعاطب .

وهكذا صور الفرس في أدب اليونان القديم ، أما الانجليز
فالثابت انهم لم يعرفوا الفرس حق المعرفة قبل القرن السادس
عشر ، ومع كل فائنا نجد أقدم شعرائهم وهو تشوسر يشير الى
لون فارسي يميل الى الزرقة وذلك في القرن الرابع عشر ، ثم
يؤلف برستون في عهد الملكة اليبابات قصة يقتبسها من تاريخ

الملك قبيز ، ويتخذ الشاعر القصاص مارلو اسما ومشهد فارسية
في احدى قصصه .

أما شكسبير فيشير الى الثياب الفارسية في «الملك لير» ، والى
أمير فارسي في « تاجر البندقية » ، والى رحلة الى فارس في
« كوميديا الاخطاء » . والشاعر الضير ملتن صاحب الفردوس
المفقود يذكر أسماء لمدن فارسية كهمدان واصفهان ، ويلخص
تاريخ فارس القديم في الجزء الثالث من « الفردوس المستعاد » .
وبستعيد شلي ذكرى الابهاء ذوات العمد في تحت جمشيد ، وقد
ذكر المجوسية وهي الديانة الفارسية القديمة كل من الشعارين
بايرون ولندور . ومن كتاب الانجليز من تأثر بالفردوسي ،
شاعر ايران في القرن الرابع الهجري ، كجوس وارنولد ،
ونظم مور منظومة تسمى « لاله رخ » ، وهو اسم فارسي
بمعنى وردية الخد ، ومنظومته تموج بالحياة الفارسية ومشاهدها .
وجرت عادة المتأدين من الانجليز في القرن الثامن عشر
بمطالعة كتاب من جزئين للكاتب الانجليزي امبروز فيلبس
بعنوان « قصص فارسية » ، وذاع صيت قصة لمورييه تسمى
« حاجي بابا الاصفهاني » ، واذا ما ذكرنا ترجمة فزجر الداشغري

لرباعيات عمر الخيام ، فانما نذكر أكثر الكتب سيورة في اللغة
الانجليزية بعد مؤلفات شكسبير ، وقد أصبح الخيام بذلك
شاعرا للانجليز أكثر من كونه شاعرا للفرس ، انصح هذا
التعبير ، فهو في انجلترا أبعد صيتا وأسمى منزلة منه في ايران .
وما دمتنا في الحديث عن أدباء الانجليزية ، فلنلحق بهم كراوفورد
الكاتب الأمريكي ، لأنه صاحب قصة يجعل المدار فيها على حياة
زردشت نبي الفرس القديم .

أما شعراء الألمان فان منهم من تأثر بشعر الفرس أبلغ التأثير
وفي طلبهم جوته ، الذي قرأ الترجمة الألمانية لشعر حافظ
الشيرازي ، فلك عليه هذا الشعر اعجابه ووقع من نفسه أجمل
موقع ، وراعه ما فيه من سمو العاطفة و قدسية الفكرة وجمال
الرمز ، فامتزجت روح شاعر الألمان بروح شاعر الفرس ،
وأصدر جوته (الديوان الغربي الشرقي) سنة ١٨١٩ وهو مجموعة
من أجمل الشعر الغنائي ، وقد خطا فيه خطو حافظ وردد صده
إلى حد جعل فهم شعره أمرا عسيرا أو مستحيلا من غير شرح
يرد المعاني المهمة والرموز الخفية الى أصولها الصوفية الفارسية .
وفي هذا الديوان قصيدة تسمى (الحنين المقدس) يعتبرها بعض

نقاد الألمان أروغ ما جادت به قريحة جوته لأنه يعبر فيها عن
فهمه للحياة برمز أفلاطوني وطهارة مطهرة ، فيقول في أبياتها
الختامية : « وتأتين خافقة الجناح طريدة ، وتحنين الى النور وفي
النهاية ، تحترقين أيتها الفراشة ، ومادمت لا تملكين لك حياة
ولا مماتا . فانت ضيف حزين على هذه الأرض . »

وللشاعر الألماني الرقيق هاينه قصيدة عنوانها « الفردوسي »
وفيها صور حياة هذا الشاعر فذكر كيف نظم تاريخ الفرس
الطويل في ستين ألف بيت من الشعر ، وتطلع من السلطان الى
أن يحسن صلته على ما كابد من جهد طوال ثلاثين عاما ، فاعطاه
السلطان عطاء قليلا عفت نفسه عن قبوله . وهذه القصيدة قصة
قصيرة يظهر فيها السلطان بكزازته ونكته للعهد والشاعر برغبته
في المال لحاجته اليه ثم يأسه منه ومن كل خير في الدنيا . وانا
لنقع في شعر الألمان على تشبيهات فارسية تدل على أن منهم من
عرفها عن الفرس وأعجب بها فضمنها أشعاره ، ومن ذلك
تشبيه العين باللوز والحاجب بالقوس .

أما نيتشه الفيلسوف فاتخذ من اسم نبي الفرس القديم زمرآة
للحكمة وسمى كتابا له (هكذا قال زردشت)

والشاعر روسى بوشكين ظاهر الاخذ عن الشعر الفارسي
وقد رثاه شاعر ايراني بعد مماته ، وما يقال عنه يقال عن لرمنتوف
الذى عاش في القوقاز فكان للبيئة حكم وللجوار حق وللروس
قصة شعبية تتحدث عن اميرة ايرانية .

وكان للفرنسيين صنيع كصنيع الانجليز والالمان والروس
فعرفوا الفرس في مؤلفاتهم وذكرهم واستلهمهم . ومنهم
الكاتب . وتسكيو صاحب . الرسائل الفارسية ، وهو كتاب
في النقد الاجتماعي والهجاء السياسي يتخيل فيه مؤلفه ايرانيا
يسميه اوزبك عاش في باريس بين سنة ١٧١٣ وسنة ١٧٢٠
وكتب خلاله في ايران ، فيوقفهم على ما يشاهد في المجتمع
الباريسي ويتناول بالنقد اللاذع مسائل الدين وأصول الحكم ،
ساخرا من ظلم الظالمين واستعلاء المستعلين ، ومشيرا الى ممكن
الداء في الجماعة . ولفولتير قصة « هنرياد » وهو يعارض بها
الفردوسى في قصته « رستم وسهراب » ففي كلتا القصتين أب يقاتل
ولده حتى يقتله وهو لا يعلم من يقاتل ومن يقتل ، ثم يقرع سن
الندم ويأخذه شديد الأسى بعد أن تم كشف له الحقيقة . ويقول
النقاد الفرنسي سانت بوف : « من يقرأ قصة فولتير بعد قصة
الفردوسى ، ير الحد الذي انحط اليه الشعر القصصى عند المحدثين

وإشعر كانه قدم من شاطئ نهر الكنج إلى حوض من حياض
فرساي ! ، .

وفي أواخر القرن السابع عشر كان من يدعى البارون
دوفريول سفيراً لفرنسا في استانبول ، واتفق له يوماً أن جاس
خلال سوق النخاسين ، فراعته فتاة لم تستوف الخامسة من عمرها
الغض النضير ، واستوقفه منها جمال تزيينه ملامح شرقية وعينان
سوداوان ، وسأل عن خبرها فقيل له انها من بنات الامراء في
ايران ، وقد قاتل الترك اباها فغلبوه ، وسبوا نساءه ونهبوا نفائس
قصره حتى هذه الدمية الجميلة التي ينالها دافع المال الجزيل في
شراؤها ، فادركت السفير رقة على الفتاة وحملها إلى قصره على
ضفاف البوسفور ، وأصبح لها كآب شفيق . ومرت الاعوام ،
وعاد السفير إلى فرنسا ومعه « هايدة » التي ربت وترعرت ،
وازهرت واثمرت ، فكانت زينة المحافل في باريس اللاهية الماجنة
على عهد لويس الرابع عشر ، غير أن حياة اللهو والفتون لم
تصادف هوى في نفسها ، فزابت العاصمة وآثرت أن تعيش على
مبعدة منها ، وطلب الوصى على العرش يدها فردته . ثم خفق
قلبا لشريف يقال له وايدى .

وكانت اديبة شاعرة فكانت صاحبها ، وقيل ان رسائلها من روائع الادب الفرنسى ، غير أنها لم تسعد بغرامها فقالت شعرا حزينا مدموعا . وقد جعل الشعراء والروائيون من قصة « هايدة » موضوعا طليا شيقا ، فكتب سانت بوف عنها كتابا مفصلا مطولا ، والفت مدام فرودل تاريخا لها شعري الاسلوب بديع العرض والتحليل ، وفي سنة ١٨٠٥ نشر بارانت مؤلفا له عنها ، كما جرى باخبارها قلم الكاتب الفرنسى المعاصر اميل هانريو .

ويروى عن فولتير انه قال (اقرأوا كتاب الفرس المقدس القديم بتدبر وروية) .

أما الف ليلة وليلة ، ذلك الكتاب الفارسي الاصل ، فقد قال عنه انه لم يعالج فن القصص الا بعد أن قرأه اربع عشرة مرة ، وتمنى القصصى الفرنسى ستندال أن يمحو الله من ذاكرته الف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته ويستعيد لذاته .

ولا يفوتنا أن نقول أن المربين فى فرنسا وانجلترا والمانيا يختارون قصصا من هذا الكتاب ، لتهديب ناشئة الادب وصقل اذواقهم ، وافعام اخيلاتهم بما فيه من أطيايف الشرق ، وقد يشد

اعجاب بعضهم بهذا الشرق الجميل ، فيجعل على نفسه في مقبل
الايام أن يدرس لغاته وعلومه وآدابه ، ويصبح عالما يفيد من
عليه اهل الغرب والشرق على السواء .

ومنذ أكثر من مائة عام قال مؤلف فرنسي هو الماركيز
دوفيليت شعرا جاء فيه (صادف برهمي ذات يوم قطعة من
الطين بجوار حمامه ، فسألها قائلا : أنت قطعة من عنبر ! ؟ ان
لك عبيرا يروقي ويخلب لي . فقال الطين : لست من كل ذلك
في شيء بيد اني جاورت الورود حينما هنا)

وقد أخذ هذا المعنى بتمامه عن الشاعر الفارسي سعدى
الشيرازي في أبيات له يعرفها كل من شدا شيثامن ادب الفرس



قيل ان الناس أعداء لما جهلوا ، وهذه قولة كثيرة الدوران
على اللسان ، غير اننا اذا ما فسرناها حق تفسيرها ، ظهر لنا من
معناها البعيد ما يتعارض بعض الشيء مع ما يسبق الى الؤم من
معناها القريب . فنحن في واقع الامر لانعادي الجديد ولانكره
بقدر حبنا للقديم ووفائنا له ، خصوصا إذا كان الشأن فيما يمت
بأصرة الى العادات والتقاليد ، وكأن رغبتنا فيما عرفناه والفناء
ورأينا عليه آباءنا هي أقوى البواعث لنا على رغبتنا عما لم نعرف
ولم نألف ولم نتوارث خلفا عن سلف . فطول إلف الشيء داعية
التعلق به تعلقا يصرف عن غيره ويذهب فيه ، وآراؤنا العامة ما هي
في الحق إلا عادات عقلية تمسكت وتغلغلست وسيطرت على النفس
والفكر ، فصعب تجريحها أو تبديلها ، وخابت فيها حيلة العقل

والمنطق أو كادت . ومن أجل ذلك عانى النبيون ما عانوا ، وتجشم
المصلحون ما تجشموا ، وثق قادة الرأي من شديد العقبات ما القوا .
وليس استطرادا ان نذكر ما يذهب اليه علماء الجمال من ان
من يشاهد الجميل لا يشعر بجماله كل الشعور الا بعد أن يكرر فيه
بصره مدة ما ، على ان النفس يلزمها بعض الوقت حتى تتذوق
تذوقا تاما . ونخرج من كل هذا بأن للعادات أثرا لا ينكر في
تلوين شعورنا وتكوين ادراكنا ، وبالتالي في آرائنا وتقاليدينا
واستحساننا واستهجاننا . وإذا تلبسنا المثال مصداقا لما نذهب
اليه وجدناه فيما كان من سفور المرأة التركية ولبس الأتراك
للقبعة عرضا من الطربوش .

قال اتاتورك : «على النساء الا يقعن في كسر بيوتهن ولا
يحجن وجوههن ، لأن ذلك مجلبة للشر على البلاد . لقد ساهمت
المرأة التركية في الحرب بالحظ الأوفى من حماسها وحميتها
وتكبدت من الأهوال ما تكبد الرجال ، فحقق أن تنعم اليوم
بكامل حريتها . فلتضرب في العلوم بسهم ، ولتشيد دورا للعلم ،
وحقها الذي هو لها ، ان تنال في الدولة من المنزلة مثلما ينال
الرجال . لقد ابصرت في الطريق نساء على وجوههن النقاب

وعلى جيوبهم الخمر ، يشحن كلها اقرب منهم رجل ، بالله ما هذا !
اما آن الاوان لنبد هذه الخرافات والسخافات ، ولمسايرة تلك
الأمم التي تعلقت بأسباب من الحضارة . ،

هذا هو النداء الذى وجهه اتاتورك الى التركيات عام ١٩٢٥
يأمرهن فيه بأن يطرحن النقاب ويتأثرن خطى اخوانهن الغربيات
فى التعلم ومجانبة عزلة البيت ، والبروز للرجال وغشيان مجالسهم ،
على ان ذلك حق لهن لايسوغ أن يبخس ، ومشاركة منهن فى
خدمة وطن يدعمن صرح تقدمه ورقيه ، ويأخذن بيده للخروج
من ظلمة العصور الوسطى الى نور المدنية الحديثة .

ولم يكن توجيه هذا النداء الى النساء عفو الخاطر ، وانما
كان أمرا ليس منه بد ، فقد سبق لبعض العجائز أن كرهن
السفور واشتد عليهن ، فاعتبرنه بدعة ومفسدة للنساء أى مفسدة ،
كما رأين فى البروز للرجال عارا دونه كل عار ، واعملن الرأى
فى إيجاد وسيلة لتقويم العوج ودفع البلاء ، حتى اهتدين إلى
موظف رجعى من رجال الامن العام له اذن تصفى لشكواه
وعقلية تحبذ رأيهن ، فاقنعته بضرورة اصدار منشور يعلق على
الجدران هذا نصه وفصه : « فى هذه الاشهر الاخيرة ، أظهرت

النساء تهرجا شائنا معيبا ، فلزام على كل مسلمة ان تطيل من ثوبها
وتضع نقابا صفيقا على وجهها ، ولتحذر أن تتمنطق بالمشد ،
وان الحكومة لاتمنها اكثر من يومين لاطاعة هذا الامر . ،
وكان لما جاء في هذا المنشور شديد وقع على النساء اللائي
تسخطنه وتذمرن منه وغضبن غضبا ليس بعده غضب ، حتى ان
الحكومة لم نجد لها بدا من تصحيح موقفها معهن بالرجوع عن
قولها ، والانتقاض على حكمها ، فنشرت عليهن مايفيد الغاء
ما اتخذت من اجراء .

وقد كان للدعوة إلى السفور اصداء من السخط والعصيان
في ولاية طرابزون ، فعولت النساء على الفرد كراهة أن يبدان
عادة درجن عليها كما درجت أمهاتهن من قبل ، فما وسع الهيئة
الحاكمة في الولاية الا ان تصدر بيانا تعدد فيه مساوىء الحجاب
وقد ركبت السخط واصطنعت الاغراق في اعتبار ستر الوجه
حيلة كانت المرأة تلجأ اليها للتستر رجاء الا تلحظها العيون وهي
تسمى إلى الريبة !

ثم قر القرار على أن يسوق الشرطة كل امرأة غير سافر
الى المخفر . ومن مستطرف ما يروى ان منهن من كن يسترن

وجوههن العارية بما في أيديهن من مظلة مفتوحة . تنفيذ المشيئة
ومشيئة الحاكم في وقت معا ، غير انه لم يكن لهذه الحال دوام
فكشفت عن وجوههن في البلاد عرضا وطولا .

ولم يكن هذا النقاب خاصا بالمسلات دون غيرهن ، فقد
ذكره الشاعر اليوناني هوميروس في الاودسا ، وكان للفينيقيات
نقب قرمزية اللون ، وعرفته الراهبات في عصور المسيحية
الاولى ، ولم يعرفه عرب الجاهلية ، اما في الاسلام فقد كثر
الجدل حول شرعيته لتضارب اقوال المفسرين في تفسير قوله
تعالى في سورة النور : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن
ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن
بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن
أو آباء بعولتهن أو اخوتهن أو بنى اخوتهن أو بنى اخواتهن
أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير اولى
الاربعة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات
النساء . »

فمنهم من يفسر الزينة بمواضعها كالجيد والمعصم والساق ،
ومنهم من يجعلها نفس التزين كالاكتحال وتخضيب البنان . ومنها

يسكن من امر فتحن لا تريد هنا إلا ان نبين كيف ابت بعض
التركيبات ان يخرجن بالسفور عما ألفن من عادات وتقاليد ،
بقطع النظر عن حكم الشرع ، وعلى المؤرخ حكاية الحوادث كما
وقعت .

اما استبدال القبعة بالطربوش ، فقد اثار من اللغط والهرج
والمرج اكثر مما اثار طرح النقاب على غير ما يسبق إلى الظن ،
وذلك محمول على ان الارك كانوا يعتبرون الطربوش شعارهم
القومي الاسلامي ، وكانت ذولى المشاكل التي ولدها لبس القبعة
في وجهة نظرهم يرمئذ ، هو استحالة الصلاة بها لسببين ، اما اولهما
خفافها البارزة التي تجعل السجود بها امرا متعذرا ، والثاني ان
خلعها دليل على رغبة صاحبها في اظهار الاجلال ، ولما افترى مفتي
استانبول بجواز خلعها أثناء الصلاة ، كان هذا امرا غريبا على
الناس .

وكان السلطان عبد الحميد اول من عرض برأى للباس الطربوش
والقبعة سنة ١٩٠٢ يوم عارض شيخ الاسلام في اتخاذ جنود الترك
للخوذات . فسفه السلطان احلام الشيخ وقرر ان لباس الرأس
لا يمس الدين في كثير ولا قليل . وفي الحرب العالمية الاولى لبس

ضباط الترك قبعات فرنسية طويلة الحافة ، ويقال ان اللورد
بالمرس سأل يوما السفير التركي في بلاد الانجليز قائلا : « ما بال
الترك يتخذون الثياب الاوربية بتمامها ماعدا القبعة ! ، فأجابه
السفير بقوله : « لانهم قوم معاندون لا يريدون لرؤوسهم تبديلا ،
ولما اجتمع مجلس الوزراء في انقره عام ١٩٢٥ تحت رئاسة
اتاتورك ، وقرر ان تكون القبعة غطاء لرأس الترك مع استثناء رجال
الدين منهم ، فتحت احدى جرائد استانبول استفتاء في هذا الشأن
تستطلع فيه الآراء . فكان من صبحى بك وزير المعارف ان قال
ان الدين في القلب لاعلى الرأس ، وصرح رشيد بك مدير التعليم
بأنه رأى بعينى رأسه حجاجا في مكة وعلى رؤوسهم قبعات بيض
وقال آخر ان قواعد الصحة تقضى بإيثار القبعة على الطربوش .
واقبل الناس على لبس القبعة امثالاً لأمر اتاتورك ، وبلغ
من شدة تهافتهم وحماستهم ان تخطفوا القبعات فنفدت من الأسواق
بعد زمن يسير ، ولم يحصل عليها الناس جميعا ، ومن عجيب امر
هؤلاء الذين لم يحصلوا عليها انهم ألوا على انفسهم ان يبقوا من
غير غطاء للرأس ولا يعودوا إلى لبس الطربوش !
غير ان الناس كافة لم يرتضوا تغيير شعارهم هذا التغيير الفجائي

بين عشية وضحاها . وتراعى لهم انهم يكفرون باتخاذ شعار
الأوريين ، وقد ذهلوا عن انهم انما اخذوا الطريق من اليونان
غير المسلمين ، فقامت في بعض المدن التركية كسيواس وارضروم
مظاهرات عظيمة تدل على روح التمرد والثورة ، وارتفعت
العتافات ترمي بالكفر حكومة انقره .

وكان من المعترضين على لبس القبعة نور الدين باشا ذلك
القائد العظيم الذي طرد اليونان من ازمير ، ونائب مدينة بروسه
الذي قدم للجلس الوطني مذكرة ينص فيها على ان الزام الشعب
بلبس القبعة خروج على القانون الدستوري الذي تنص مادته
المائة والثلاثون على الحرية الشخصية ، فرد عليه اسعد بك وزير
العدل بأن لبس القبعة وهي غطاء الرأس عند الشعوب المتحضرة
لا يمكن ان يعتبر خرقا للقانون الدستوري

واجريت تحقيقات دقيقة واسعة المدى ، تكشف عن ايد
خفية اجنبية وشيوعية تحرك الثورة وتدفع الى العصيان . فشمرت
الحكومة عن ساعد الجدة والقت القبض على الجرم الغفير .
ووجهت الى المقبوض عليهم تهمة الثورة على الاصلاحات
الحكومية ، وحكمت احدى المحاكم بالموت على ثلاثة وبالسجن

على ثمانية وأربعين ، وأصدرت محكمة اخرى حكما على خمسة
عشر قتلوا ، وكثيرين سجنوا .

وطرح التركي طربوشه كما نبذت التركية نقابها ، ولا يمكن بعد
وقفه املاها الوفاء للطربوش والنقاب ، وأسف على صحة قديمة
لها ، وأسى لفرقتها .

السفر في إيران القديمة

من المعلوم أن السفارة في سالف الازمان لم تكن ما نعهد اليوم من منصب قائم دائم يتبوؤه عظيم رفيع الشأن على المقام ليرعى مصالح دولته ويدبر امور رعاياها ، وانما كان السفير رسولا تنفذه دولة إلى اخرى ليسفر بين القومين ، حاملا خبرا أو رأيا ، وساعيا إلى اصلاح ذات البين ، وربط ما انبت من صلوات ، تبعا لما يستوجب ذلك من امور تطورت واحوال تبدلت . وغنى عن البيان ان القوم لا يصطنعون متحدثا بلسانهم وعنوانا عليهم مالم يكن صالحا لذلك اتم الصلاحية ، حريصا أشد الحرص على اداء واجب يناط به أن يؤديه ، وامينا كل الامانة على وديعة في عنقه ، فهو صاحب العقل والبديهة والقول الفصل والمتقدحمة ووطنية ، وكانت ملوك الاعاجم ، إذا آثرت أن تختار من رعيتهما من تجعله رسولا إلى بعض ملوك الأمم ، تمتحنه

اولا بأن توجهه رسولا إلى بعض خاصة الملك ، ثم تقدم عينا عليه يحضر رسالته ويكتب كلامه فإذا رجع الرسول بالرسالة ، جاء العين بما كتب من الفاظه واجوبته ، فقابل الملك الفاظ الرسول فإن اتفقت أو اتفقت معانيها ، عرف الملك صحة عقله وصدق لهجته ، ثم جمعه رسولا إلى عدوه ، وجعل عليه عينا يحفظ الفاظه ويكتبها ثم يرفعها إلى الملك فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك وعلم أن رسوله قد صدقه عن عدوه ، جمعه رسوله إلى ملوك الامم ، ووثق به ، ثم كان بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجة .

وان ما يتحلى به من صفات المدح ، ليحرك هممتنا إلى الوقوف على طرف من اخبار هؤلاء السفراء في ايران القديمة ، خصوصا إذا شئنا ان نتعرف بعض الفروق وواجه الشبه بين الغابر والحاضر .

فلما صح عزم الملك دارا على غزو بلاد اليونان ، زين له الدهاء ان يركن إلى قذف الرعب في قلب العداء ، ويعتبر الدعاية سلاحا يشبهه في الفتك سيوفه المسلولة ورماحه المشرعة فاشخص رجلين من بطانته إلى ارض اليونان ، فطافا بالبلاد

وتحدثنا مع اهلها مظهرين لهم صولة الفرس وجبروتهم ، وبسالتهم
وشديد بأسهم ، ونصحنا لهم بالترحيب بمقدمهم والتسليم عن رضا
وطواعية ، كما اوضحنا لهم سوء مغبتهم إذا حاولوا صدهم ووقوفنا
بالسلاح امامهم ، فالضعيف إذا نهض لقتال ، القوي إنما يسعى إلى
حتفه بظلفه ، ويقضى بحماقته على نفسه بيده ، فانطلى رونق هذا
الكلام على اليونان ورأوا ان يؤثروا العافية ويكفوا يدهم عن
محارب لا يد لهم به ، وخارت نفوسهم وذهبت شعاعا ، ووجد
الفرس يوم اقتحموا عليهم ما يكرههم قوما مستسلمين مستضعفين .
ولما بلغ السفيران من اليونان الارب ، شدا الرحال إلى
اسبرطة ، وكان اهل اسبرطة غلاظا شدادا لا جانب فيهم لرحمة
او ملاينة ، فلم يرعوا للسفيرين حرمة ولم تأخذهم بها رحمة ،
فأوقعوهم في الاسر ، ونكسوهما في برحتى ماتا ميتة سوء . ونمى
إلى دارا خبر السفيرين فاتقد غضبا وعول على التشكيل بمن جرح
كبريائه في شخص رجلين من اتباعه يصدعان بما يؤمران وما
عليهما إلا البلاغ ، غير ان العمر لم يمتد به حتى يشفي غيظه ويدرك
نأره . وخلفه ولده اكرسيديس الذي احفظه قتل السفيرين من
اهل اسبرطة ، فأرسل عليهم جيشا لجبا ، ويقال ان الندم

ادرك الاسبرطيين على مافرط منهم ، وادركوا ان القتل في غير
جريرة معرة وخسة . وازادوا ان يغتفروا لزلاتهم ويقدموا
المعاذير إلى ملك الفرس فتطوع فتيان منهم لأن يكونا سفيرين ،
يرحلان إلى فارس ويسألان اكرسيس الصفح . ورحل
السفيران لطيفتهما ، وبعد سفر طويل بلغا بلاد الفرس وتوجها
إلى قصر الملك ، واستفتحا بابه ففتح لهما ، ولما مثلا في حضرته
قالا : « يا ملك الفرس ، لا يخفى علينا أن للسفراء ارواحا عزيزة
مقدسة ، تستوجب الحماية من كل شر واذى ، وانا على ما كان
منا لنادمون ، أما انت فقد وجهت جيوشا إلى ارضنا ، طلبا
لثأرك عندنا . انش عن هزلك ولا تغز بلادنا ، فنحن على اتم
اهبة لان نفدى روح سفيرك بروحيننا . نحن طوع بديك فاقض
ما انت قاض واصنع بنا ما انت صانع . »

ووقع كلام الفتيين من نفس الملك اجمل موقع ، وراقه
منهما ان تبلغ الشهامة والوطنية بهما هذا المبالغ ، فقد طاب لهما
ان يموتا في سبيل دفع البلاء عن وطنها ، ولم يشتد عليهما أن
يكونا ذلك البريء الذى يؤخذ بذنب المسيء ، مادام سعيهما إلى
غاية ، وفداؤهما عن مبدأ . وكان الظن ان الملك لاعمالة قاتلتهما

كما صنع بسفيريه قومهما ، غير أنه كظم غيظه ولم يخرج عن
طوره وشاء أن يكون ذا معدلة فأجزل صلتها وأفاض عليهما
الخير من كل جانب وردهما إلى وطنهما وهو يقول : « كلا إن
أمسكا بأذى ، فانا من أهل اسبرطة اكثر عدلا وأعظم مروءة ،
وقد اختص ملوك الفرس الأقدمون بعبادات ومراسم
لاستقبال رسل الدول وسفرائها ، ولا ريب أنهم كانوا يحرصون
الحرص كله على الظهور أمامهم بمظاهر العظمة ، فكانوا يستقبلونهم
في ابهاء تحار العين فيها حسنا وبهاء ، وقد لبسوا الحرير تجرى
فيه خيوط الذهب ، وتحلوا من نفيس الجوهر ، كما كانوا
يفتنون في اكرامهم غاية الافتنان ، فيكرمون وفادتهم ويغدقون
عليهم من هداياهم وعطاياهم ، ولا يأخذونهم بعقاب لخبر يحملونه
بالغا ما بلغ من الشؤم والسوء . وان دل ذلك على شيء فهو يدل
على كياسة وحسن سياسة .

وفي عهد الدولة الاشكانية وهى الدولة التى حكمت بعد فتح
الاسكندر المقدونى لفارس ، قويت الروابط بين الفرس والروم ،
وكثر تبادل السفراء بين الدولتين ، وبما ينهض دليلا على اعتبار
السفارة عملا عظيما لا يضطلع به إلا عظيم ، ان الملك فرهاد

أرسل أبناؤه إلى قيصر الروم لتبادل الآراء وتناقل الأخبار .
وفي عصر الساسانيين كانت مهمة السفراء في الأناضول هي
فض المنازعات وحل المشكلات ، فقد حدث أن قائدا من قواد
الروم أراد أن يغزو فارس ، فوجه إليه ملك الفرس سفيراً
يقنعه بالعدول عن خطته فكان من السفير الفارسي أن قال
للقائد الرومي :

« أيها القائد ، إذا شئت أن تعلن علينا حرباً شعواء فنحن
من أخذ للحرب أهبتها ، ولكننا مع ذلك نرحم شيخوختك ،
إن هامت نفسك في ذلك الوهم الذي لا يجديك فتيلاً ، ونحن
نأذن لك بأن تنقلب إلى بلدك وعشيرتك تحت جناح من رعايتنا
ومسالتنا ، »

فساء هذا القول قائد الروم وأغضبه لما فيه من تهزؤ وتهكم
فنادى بالشبور والويل . وقال أنه سيحاسب ملك الفرس عسير
الحساب على سخريته منه يوم يفتح بلاده ، وما سمع السفير
الفارسي ذلك حتى استضحك باسطاً يده وقال : « انظر إلى كني ،
إن تشاهد بلاد الفرس حتى تشاهد شعرة في كني ! ،
وصحت فكرة السفير فانكسرت جيوش الروم وقتل

فاندها مع ولده بين رحي القتال .

وكان من عادة الساسانيين أن يختاروا سفراءهم المبعوثين إلى الروم من القساوسة ، والعلّة في هذا راجعة إلى اتساع مداركهم واتصالهم الوثيق بملوك الفرس ، وإطلاعهم على بواطن الأمور في البلاد والبيلاط ، كما كان من أمبراطور الروم أن جعل السفارة لرئيس كبير من رؤساء المسيحية ، وأرسله مرتين إلى يزدجرد ، فارتبط العاهلان بالصالح المشترك والود الأكيد ، وكان ذلك نصرا مؤزرا للمسيحية في بلاد الفرس ، ومرجع الفضل إلى ما للسفير من لباقة وحصافة .

وفي زمان الدولة الصفوية التي حكمت إيران الإسلامية من أواخر القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر ، كان الاحتفاء بسفراء الدول الأجنبية يشبه ما نعهده اليوم ، فإذا تسلم السفير مهام منصبه في إيران وأراد أن يحظى بلمقاء الشاه للمرة الأولى ، أرسلت إليه قافلة من الجمال البيض أعدت لركوب السفراء يوم تقديم أوراق اعتمادهم ، وكانت العناية عظيمة بتزيينها ، فرحلتها من الحرير الأحمر ، ورقبتها بحلّة بالأزاهير ومقاودها من الذهب الابريز ، أما قادتها فعليهم

أبى حلة ولهم أحسن هيئة . فتزاييل القافلة قصر الشاه إلى دار
السفير ، وهناك تناخ الأبل لركوب السفير وحواشيه ، ويسير
الركب بين مظاهر الإجلال والإكرام ، حتى إذا ما وصلوا إلى
القصر الملكي ، وفرغوا من أداء المهمة التي قدموا لأجلها ،
أعيدوا إلى دارهم كما جاءوا . وقيل إن بعض السفراء كرهوا
ركوب الأبل لما فيه من جهد ومشقة وهزة لا عهد للأوروبي بها ،
فاعتذروا من قبولها مظهرين الأسف على الخروج بذلك عن
مجرى العادة ، وطلبوا الخيل عوضا منها .

ومن سفراء إيران في تركيا ، سفير يدعى مرتضى قليخان ،
وكان أدبيا شاعرا لسن اللسان . فلما رحل إلى استانبول ،
وكان ذلك في القرن الثامن عشر ، التقى هناك بالصدر الأعظم
ابراهيم باشا . ورحب الباشا بمقدمه ، وسأله عن بعد الشقة
ووعشاء السفر ورأيه في استانبول الجميلة ، فأجابه السفير بقوله
(لقد وجدت منها روضة كروضة ابراهيم لكرمكم وظرفكم)
وفي هذا الكلام إشارة إلى النار التي اوقدت لابراهيم عليه
السلام فكانت بردا وسلاما وروضة ذات زهر . وكان في
المجلس نخبة من أدباء الترك وعلمائهم كالشاعرين نديم ووهبي ،

والمؤرخ رشيد، والخطاط وحيد الدين ، فتحدث الصدر الأعظم
عن الأدب التركي وغيره من الفنون كالموسيقى وتحسين الخط ،
ثم استطرد إلى ذكر شعراء الفرس ، وأظهر الإعجاب بجمال
الورد في أصفهان ، وهكذا تجاذب السفير والصدر الأعظم
حديثاً لا يديره إلا حضيف سمح البديهة . ولهذا السفير قصة
يتفكك بذكرها ، فقد اتفق له أن زار اسطول الترك في الميناء ،
وأعجب الإعجاب كله بسفينة حربية قيل له ان مدافعها تدك
الحصون دكا وتدمر السفائن تدميراً ، ورأى أن تكون هذه
المدافع أول ما يحدث عنه دولته بعد عودته إلى بلاده ، فأكثر
السؤال وأراد أن يحيط بكل شيء علماً ، وكان الشاعر المزاح
وهي بين الحاضرين فقال له (يحسن بك ياسيدى أن تدخل
هذا المدفع من فوهته ليكون رأيك فيما بعد عن علم وتجربة)
وبلغت بالسفير سلامة الطوية أن يحسب الشاعر الهازل جادا
فيما قال . فهم بدخول المدفع ، ولم يوقفه إلا ضحك الملتفين
حوله ، ولما سألهم ماذا يضحكهم قيل له ان وهي أراد أن يجعل
منك قذيفة لهذا المدفع تنطلق إلى أصفهان ، فإذا بك بين قومك
في لمح البصر تحدثهم عن عجيب ما رأيت من عظمة الأسطول

التركي ! ووجدها الصدر الأعظم دعاية خشنة ، وكره أن
يستسخر من السفير الايراني ، وأمر الموسيقيين بالعزف حتى
تمحو بهجة الطرب ما قد يثور في النفوس من غضب .

والذي نلاحظه هو أن السفارة في ذلك الزمان كانت ذلك
المنصب الذي نعرفه اليوم ، فلم يكن السفير رسولا يوفد ثم لا
يلبث أن يعود ، وعودته رهن بانجاز مهمته كما كانت الحال في
الزمان الأول .

ثورة الجوع

ان كان للجوع ثورة تقوم ، فانما الصراع بين البقاء والبقاء
وهما المتغالبان اللذان لا يكفان عن المغالبة أبداً الأبدية والنزاع
الشديد على حياة هي أعز ما يملكه الحي ويطلب له الدوم بدافع
غريزي لا حيلة له في صدده ، وهذا ملحوظ في ظواهر عدة ، منها
ما يذهب اليه البعض من ان الشيخ أشد حرصا على حياته من
الشباب ، وأصدق رغبة في وصل عمر قارب أن ينقطع ، ومن
حكمة الطبيعة انها تزود حتى من لا قوة له ، بقوة يستطيع بها أن
يغالب الموت في الأعم الأغلب ، وان هذا الملاحظ ليدير في
خلدنا احداثا من مآثور التاريخ تنهض عليه دلائل وتصلح له تفسيرا
ففي ايران ، ومنذ اربعين عاما أو ما يقرب ، احتبس المطر في
الشمال خصوصا ، نخاب الزرع وعم الجذب وشمع القوت ، ولقي

القوم من ذلك أشد الجهد والعنت ، وما زاد كربا على كرب
وأضاف بلاء الى بلاء ، حال سياسية في البلاد مضطربة ، وثورة
داخلية رفع لواءها شعب غصب على حريته ، فقام مطالب بالحكم
النيابي ، وأعان رفضه انسلط الأجنبي وقوامته .

وكانت الغلال ترد الى بلدان ايران من حقول تناخمها ،
فانقطعت السبل بحاملها ومرسلها ، ونهب الشطار واللصوص
غنائمها الممثلة بعد الفتك بكل من زجرهم ومنعهم ، فما كان
يتوصل منها الى حيث يراد ارسالها الا النزر اليسير وفي الفلوات .
كما كان من التجار ان احتجزوها عن الناس ليغلو السعر ويعظم
الربح . اما الخبازون فلما رأوا اقبال دواتهم ورواج بضاعتهم ،
تنمروا واستعلوا ، وطاب لهم أن يشاهدوا الحشود والوفود
وقوفا بابوابهم مستعطفين مستصرخين ، وبلغ من جبروت رئيس
الخبازين في طهران وغلاته أن زج أحد رجاله في التنور ، وقد
زين له شيطان الغضب أن يعاود هذه الفعلة الشذواء غير مرة ،
ووجد هذا الظلوم الغشوم قتيلا في دكانه ذات يوم ، فكان
الجزاء من جنس العمل .

وتطاولت هذه الحال وأصبح الرغيف أعز منالا من

بدر السماء ، ولم يجد الناس ما يسد الجوعة ويقيم الأود ويمسك الحياة على الحى ، فاحترقت الأكباد جوعا ، وشوهدت فى الطرقات جثث أكلها السغب غير مبق منها الا عظاما رقت تحت جلود بليت . ولما تفاقم هذا الشر على مر الايام واقفرت المتاجر ، لم لم يجد اصحابها محيصا عن اغلاقها لعدم تحقق الرغبة من فتحها . وأصبحت الاسواق قاعا صفصفا ، مخافة أن تحدث الجياع نفوسهم بنهبها على زعم وجود قوت مخفى فيها ، بعد أن فسد الامن وأصبح السلب أمرا مألوفاً لتعدد حوادثه حتى فى النهار المبصر ، فكان السالبون يسلبون كل ما وصلت اليه يدهم واستطاعوا اليه سبيلا ، لا يفرقون بين عظيم وحقيق مما يغنمون ، فهم ينزعون الوعاء الصغير فيه بعض السمن من فتاة تغدو به على أمها العجوز ، كما يقتحمون على صاحب القصر قصره باحثين فى السرايب عن القمح أو الدقيق أو خبز الشعير ، متوعدين بالقتل من حاول ان يصدىهم .

وقد صور شاعر هذه الحال فقال (مادام للمحتكر يد تحتبس خبزنا ، فهذا هو الخراب والفساد فى أرضنا . وبه تدخل العدالة فى محاقها ، أما المساواة فتختفى طلعها . ايها الطفل الجوعان ،

حذار من البكاء وشكوى الحرمان . وإلا عاجلك المحتكرون
بالصفعات والضربات وأنت أيتها الأم . اودعى الثرى ولدك
الذى تضمينه إلى صدرك . فقد أصبح ابن آدم أقل ثمنا من
لقمة !)

وكانت مدينة اصفهان اوفى بلدان ايران نصيبا من بلاء هذا
اللقحط المبير الذى عصف بها عصفاء وعذب اهلها وجيع العذاب .
غير أن هؤلاء الذين اتلفتهم المجاوع والمخامص لم يستسلموا للأمر
الواقع ويتركوا المنية تنشب اظفارها فى بطونهم دون ان
يذودوها عن انفسهم ، فتحركت فيهم تلك الرغبة الجاححة فى الحياة
التي يستمد الضعيف منها قوة ، والعاجز المتخلف قدرة وحيلة ،
واوفدوا رجالا منهم إلى حاكم المدينة ، ليعملوا عنده فى فك
الكربة ورفع البلوى ، ويشرحوا له سوء الحال وما سوف
يتكشف عنه الغد القريب ما لم تدركهم رحمة الله ، ويسعفهم ولى
الأمر بحاجتهم بعد ان بلغت الارواح التراقى ، فوعدهم الحاكم
خييرا وطيب نفوسهم ، وقال لهم توكيدا ان القمح سيغمر
مدينتهم ويسد جوعتهم . ولم يحشمهم الا صبر يوم واحد .
وانقلبوا إلى اهلهم فيكبين ، وتنادى الناس وصبر بعضهم

بعضا بأن لذة الشبع على قدر ألم الجوع ، وتصور كل من كان
خميص البطن في أمسه ، أنه سيصبح بطينا في غده ، ثم مضى يوم
تبعه يوم ، فوجد الناس أن الحاكم خاس بالعهد واخلفهم
ما وعدهم ، وخدعهم بسراب ملتصع وراحة ضائعة ، فتبدلوا من
عظيم الأمل بعظيم اليأس ، وأصبح فرحهم ترحاور ضاهم سخطا ،
واشتد عليهم أن ينتقلوا فجأة من الضد إلى الضد فغضبوا بكل
مالديهم من عواطف الكراهية والحقد ، وثارت خواطرهم
ما وسعها أن تشور ، وهدتهم طبيعتهم إلى ما في التجمع والتكاتف
من قوة يعدمها الآحاد ، فتزاحمت جموعهم في ميدان من ميادين
اصفهان يقال له ميدان الشاه حتى تعددوا على خمسة آلاف
رجل ، قر في افهامهم أن الحكومة حبست الخير عنهم وارادتهم
بالسوء ، وما ذاك إلا لاهواء تلاعبت برجالها ، فسففت
احلامهم ، وما اصابوا للصواب شاكلة في كل ما يقولون ويفعلون ،
واعيتهم حيلة يجعل الله لهم بها مخرجا .

ومن عجب أن ينضم إلى الثائرين جمع كبير من ربات
الخدور أناف على ألف وخمسمائة ، فهتكن البراقع واللفاع ، بعد
أن ازعجهن الجوع عن ديار كن في عقرها قابعات ، ومزجن

من اصواتهن نبرة ناعمة بتلك النبرة الحشنة التي ارتفعت من
حلق الرجال بينما كان الجميع يصيحون صيحة صائح واحد
والجوع الجوع ! ، .

وإلى النساء مرجع الفضل في الهاب قلوب الرجال حمية
وحماسة ، فقد وقفت منهن من تدعى أغايبكم ، على أكف
صواحب لها ، وخطبت الجمل الغفير من النساء والرجال موجهة
اليهم كلاما جهرائهن الأعماق ، بعد أن أقامت الذكر على الرجال
ونعتهم بالجن والاستخذاء ، ثم صرحت بأن النساء سيدتوجهن
إلى حاكم المدينة ، فما لهذا الأمر إلا هن ، وسيطالبن بالخبز ،
ولن ينشين عن ذلك أو يهلكن دونه .

وسارت الجموع الساخطة الهاتفة أمواجا ترغى وتزبد وقد
شق أجواز الفضاء لغناها وصخبها ، أما النساء فكان في الطليعة ،
معهن عصي يلوحن بها وأحجار للشدخ والتحطيم ، وما وقف
موظفو الحكومة على جليلة الأمر وسمعوا الصخب حتى غلقوا
الأبواب وأوقفوا الحجاب ، وانكمشوا في زوايا الحجرات
واجفى القلوب ووقف الثوار أمام أبواب محكمة وأسوار
منبعة ، أما التأثيرات فاطلقن من أخش السباب كل سهم مسدوم

سدّنه إلى عليه القوم وأذلّ الحل والعقد ، فما كان من الحاكم
إلا أن برز للثائرين ، فاسترسلت النساء في السب والثاب ، غير
غير أنه رفع عقيرته بكلمة بين فيها أن سبب هذا القحط معزو
إلى المحتكرين في أصفهان فالذنب ذنبهم والحكومة بريئة الساحة
من كل ما نسب ظلما إليها ، وستبذل الوسع في امداد أصفهان
بحاجتها من القمح .

بيد أن هذا الكلام لم يصادف من الحاضرين آذانا مصغية
لاعتقادهم بأنه زور لا ينطلى عليهم فكانوا يقاطعون به باستخفافهم
وسخريتهم وتكذيبهم ، حتى اجتمع الحاكم غضبا وخرج عن
صبره وشاتمهم . وكان من النساء غير بعيد ، فما كان إلا أن حملن
عليه حملة شديدة أفزعته وأجأته إلى الفرار من وجوههن ،
وزادهن ذلك جرأة ورغبة في التشقى ، ولا عجب فهو في رأيهن
من نزع اللقمة من يد أطفالهن ، وأهلك جوعا عائلتهن ، ثم
هو فوق ذلك يتكذب ويخدع ويسب . فلحقن به ورفعن أيديهن
بما فيها من غليظ العصي وصلب الحجارة ، وهوين بها على رأس
له تهشم تحت أقسى الضربات وأعنف الصدمات وأوجع الركلات
فمات الرجل تحت اقدامهن ميتة سوء .

ثم وقفت « اغاييكم ، بين القاتلات فاتحة عينيها بنظر شديد فيه فرحة النصر . ومرارة الشماتة ، وأشارت بسحب القتل على وجهه الى ميدان الشاء ليعرض على من يثلج صدورهم أن يروا قاتلهم مقتولا وعدوهم منكسرا ، وسحب الحاكم إلى الميدان وهناك علقت جثته في شجرة .

وقد أشاع ذلك الفوضى والشغب في المدينة ، وانضم الى الثارين كثير من النصوص والدهماء ليرتعوا معهم في المرعى الخصب ، فاندفعوا صوب دار الحكومة ، وتمكنوا من النفاذ الى داخلها ، ولما لم يجاؤوا احدا فيها ، شفوا غيظهم من الأثاث والرياش ، فخطموا ومزقوا وافسدوا ، كما نهبوا وحملوا ثم مضوا . وأصبحت نقامتهم من الحكومة أمرا خاصا لاستخطا عاما عليها ، فاثبتوا بذلك أن نفسية الجماهير تغاير نفسية الافراد كل المغايرة . وانطلقوا الى السجن ولم يثبت بابه على عنفهم وشدتهم ، فانفتح لهم عنوة ، وخلوا سبيل من في السجن من سجناء . وما بلغت الحال من السوء هذا المبلغ حتى رأت الحكومة ان تصطنع الشدة وتأخذ على يد المشاغبين ، وكان الرأي أن تطرد هذه الذئاب الجائعة ببطش السلاح ، فلما تجمهروا امام المحكمة

كان في انتظارهم شر ذمة من الجنود على سطحها ، فاطلقوا نارهم
عليهم ، فتهافت منهم على الارض امثال السناجب إذا عمل فيها
الحاصد منجله . وفلح الحديد بالحديد ، ولم يجد الثائرون والثائرات
بدا من النكوص على الاعقاب والتفرق في كل وجه .
واودع الحاكم القليل الثرى ، وظهر أنه كان صادقا في قوله
بارا بوعدده ، فقد اثمر جهده ونجح مسعاه ، وما أصبح صباح
الغد حتى كانت غرائر القمح تدخل اصفهان لتعيد إلى الحياة
اهلها الذين كاد الجوع يلحق احياءهم بموتاهم ، ووفرت الخيرات
شيئا بعد شيء .

الوطن

من تمثيلية للكاتب التركي نامق كمال بك
المقوفى سنة ١٨٨٧ ، ولهذه التمثيلية عند الترك
منزلة لا تسامى ، فقد حركت حماسهم ،
واشعرتهم معنى الوطنية والحرية فى عهد تحول
واستشراف لعصر جديد سعيد من تاريخهم
القومى . ولما ظهرت سنة ١٨٧٢ ، ثم عرضت
على المسرح المرة الاولى فى استانبول ، كان
الطرب لها شديدا . ودويها فى النفوس عظيم
فمنع عرضها ونقى صاحبها الى قبرس ، ولم يتفك
الناس عن ذكرها والاعجاب بها حتى بعد
ظفرهم بالدستور عام ١٩٠٨ . وتعرف كذلك
بسلسلته ، وهى مدينة على الدانوب ، زاد الترك
ذيات الأبطال عن قلعتها فى حرب لهم مع الروس .

الفصل الأول

يذشق الستار عن حجرة على الطريق مطلة . وزكية هانم في حلة
البانية متكئة على حشية ، بين يديها كتاب وأمامها شمعة متقدة
واسلام بك في الطريق يقطعه جيئة وذهابا .

زكية « تضع الكتاب على صندوق بجانبها ، — اماه يا اماه
لم افعمت قلبي رقة وضعفا ، واني تجعلين لعقلي كل هذه الحصافة
والرجاحة ، لو رأيت ابنتك اليوم لأدركك مر الندم على هذا
الصنيع ! كيف يقوى هذا القلب على احتمال حياة ينوء بحملها ،
فهى ثقيلة ثقيلة ، وكيف لا يضيق هذا العقل عن كل تلك الاخيلة
وهى وسيعة وسيعة . آه ما اشد وجيب قلبي ، لكأنه يريد قد
صدرى والخروج من بين أضالعي ، أما عقلي فهو في اضطرابه
وفورته يريد تحطيا لما ينطبق عليه ويمسكه في مستقره !

(تستر وجهها براحتها) اماه يا اماه ، ان الفكر الذى
هيا — آته لكى يتجه دائما الى ابى ، قد انحرف عنه الى غيره ،
والروح التى هذبتها وسموت بها رجاء أن تتعلق بك ، أصبحت
اليوم ملكا لآخر . لقد عليك ابى وتأدبت بأدبه ومت من أجله
وآدبتى فأحسنيت تأديبى غير أن الموت من اجلك لا يدور

بخلدى . وليس فى الحسابان أن يستقطر موتك دمة من عيني .
آه منه ، انه امامى لا يريم كأنما تمثلى بكل سبيل ، هو
فى عيني صورة وفى خيالى طيف وفى عقلى خاطرة ، هو من
اخذه بصرى ببعض الطريق مرة ، ياليت تلك النار التى مس
حرها فوادى وأنا ارنو الى وجهه ، كانت صهرته فذاب ذوبا !
لقد جهدت أن احول عنه ناظرى بكل ما اوتيت من عزم فما
بلغت من ذلك مأربا ، ويلاه ، خذلتنى قوتى وامتنعت على
عيناى . لكأنما اجتمع كل حسن فى الوجود رأيت به وسمعت به
فى وجه هذا الرجل الذى أمامى .

(بعد تفكير) لله هذى الحياة ما اعجبها ، لقد كنت بالامس
القريب اذا رأيت باكيا الى جانبي حسبت دمه دمع الفرح ،
اما اليوم فشهقات الضحك عندى هى شهقات النحيب ، والندى
فى الزهرة المطولة دمة فى العين المحزونة . انا من كانت تبسم
فكأن كل شىء يبسم حولى ، واليوم ابكى فكل شىء باك . هو
ذا الليل قد ادبر والصبح قد اسفر وما اكتحلت عيني بغمض .
(تطفىء الشمعة) — ايتها الشمعة ما احسبني الا مثلك فى
نزعك البطلى وفنائك الوشيك . آه لو انطبق جفناى برهة ولو

كحسوة الطير . يا لله أى شيء تلك الرسالة ، لو كانت حروفها من نار لما كان لها على هذا الوقع المحرق ، لقد قرأتها فوجدت لهبها على وجهي وبين جوانحي ، وقدمتها الى ظري فامتلكتنى خجلة وددت معها ان تسوخ الارض بي ، ان الفرحة لا تقتل غير انهم اتذهب العقل ، لقد عرفت خبر مقدمه من سطور رسالته ، انا اهواه وهو يهواني ... هذا حق ، هذا مقطوع به ، يا الهى ان صدرا له هذا الحسن لا يمكن ان ينطوى على قلب خؤون .

(بعد روية) من يدري ؟ ان الافعى قد تسمى فى شجرات الازاهير الجميلة !

اسلام بك - زكية هانم

(اسلام بك يدخل من النافذة)

زكية (تراه داخلا فتجد شديد الرغبة فى الاتجاه الى غير انها تملك نفسها ، وبعد سكون تتحدث فى سريرتها ولا تكن بصوت مسموع) الم اكن محقة فى تمنى الموت كل يوم ، بالله ماذا يحدث لى اذا لحظتنا عين الرقيب ؟

اسلام بك - لا تخشى عاذلا ولا رقبيا ، كأى من يوم

وليلة تحركت على الأرض زحفا حتى لا ترائى العيون ، الصبح
يتنفس ، والسكرى مازال يرتق فى العيون فنحن فى آخر لحظات
الليل ، لقد اجتزت بدارك كل ليلة ، فثقى بما افعل .

زكية (تخفى فرحتها بفتور) — من هذا الذى دعاك الى
المجى . ؟

اسلام بك — بالله لا تسترى وجهك بيديك ، لقد رأيت
الدنيا مرة واحدة فانت دنيائى ، فهل اراها ثانية ؟ الله يعلم .
وكنت استمع الى كلامك ونجواك كأنى عين عليك (يظهر
الحزن والطرب فى وجه زكية) .

انا اعلم شناعة خطئى ، ولو ان واحدا صنع معى ما صنعت
معك لاستحققرته وسخطت عليه الى يوم يبعثون (وتبدو زكية
أشد حزنا) لقد دخلت عليك الدار من النافذة كاللص ، ولو
دخل على احد دارى كما دخلت عليك دارك ، لكان حقا على
أن استحل دمه واقتله ، ولكن ما حيلتى ، وقد عجزت عن
السيطرة على عزيمنى ؟ انا احبك وسأفارقك ، وسمعت اليوم من
فيك انك تحبيننى .

اليوم استودعك الله . انظرى كلما اردت الابطعاد عنى ،

قربتك قدماك منى ولو كان لى سيطرة على نفسى لسلس زمامها فى
كفى ، وتحاشيت ان اسىء اليك . بالله مريحة ، ان هذا القلب الذى
قد من صخر ، لا يليق بهذا الجسم الذى كأنما افرغ من نور !
زكية (تنازع نفسها مهتاجة مترددة) - ما اطول ماتحمالت
من عذاب الموت (تشير إلى اسلام بك) ماذا تريد ؟ أنا اجاهد
نفسى ، لقد انتزعتنى من نفسى ، انت فى احلامى إذا رقدت ،
وفى افكارى إذا صحوت ، وامامى فى وحدتى ، انت على الدوام .
فمالك روحى وجسدى ، وارحنى مما اكابد من لواجى وبرحائى .
اسلام بك - لما ابصرتنى اردت ان تحولى عنى بصرك ، اليس
كذلك يا قاسية الفؤاد . ولما ابصرتك اتعلمين ماذا كنت احس
فى قلبى لو كنت اغمضت الجفن برهة لظننت انى فقدت العمر كله ،
الحمد لله حق حمده ، انك تحبين على غير عمد مثلى ولا تملكين
قلبك ، لقد رأيتك مرة ورأيتنى مرة ، لقد خاق قلمانا صنوين
وجعلك الله لى كما جعلنى لك ، ولو فرقنا الايام هنا فسوف
تجمعنا هناك ، وإذا افترقنا اليوم فلقيانا فى الغد ، وقد نلوح
مفترقين ، ولـكن كلانا سيلقى صاحبه ، وإذا تصدع شملنا فنيح
ملتقيان .

تعالى ! تعالى إلى جانبي . اقسى لى بأنك ستبتقين على
عهدي ولا تحبين سواى ان فرق الدهر بيننا .

زكية - (عاجزة عن حكم نفسها) - بالله ... (خجلة) لا افهم
ما تريد ان تقول ، لقد قلت لنفسى ... لقد ظهرت فلم اقل شيئا ..
ماذا حساى اقول ؟ ..

ولكن ان كنت تحبى فكيف تفارقتى !
اسلام بك - سأذهب لطيتى ...

زكية (تقاطعه بعنف) لقد ذدت عنى حباى وانى ، وكان
قبر اخى فى قلبى ، لقد انسيتنى كل شيء ، واليوم طيفه كجسده
دفين فى ظلمة الارض ، لانوم لى ولا عزم ولا همة تتحرك إلى
شيء ، لم تبق فى الفؤاد شيئا سواك وتريد ان تهجرنى وتزف إلى
هذه البشرى !

(تخطو فى الحجرة نائرة مدمدمة) وماذا يحدث فى النهاية ،
ستزایل هذه البلاد وسأفارق هذه الدنيا ، وما اهن الموت على
فان هذا العيش لا يهنا لى .

اسلام بك - (كأنه لم يسمع) لا بد من الذهاب ، الست
رجلا ، اليس على واجب ، الست لوطنى محبا ، كيف تتوقعين

صدق رجل في عاطفته إن كان لا يحب وطنه !
زكية - ان كان حديثك عن الوطن فماذا عسيت ان اقول ؟
اذهب اذهب ! الم تستحلفنى ! ويمين الله بجميع اسمائه الحسنى ،
الذى خلق هذه الدنيا وجعل هذا الحب لا كون لك فى الدنيا
والآخرة .

اسلام بك - وانا ايضا اقسم بربى .
زكية (مقاطعة) صه ، لا اريد ان تقسم ، فانا ان توقعت
كلمة كاذبة تغوه بها جننت جنونا .
زكية بالحجرة - اسلام بك - الجنود المتطوعون فى الخارج .
اسلام بك - (فى الطريق) نحن هنا ايها الرفاق .
(تسمع زكية صوته فتعدو إلى النافذة مستطاعه وتختفى فى
جانب منها) .

متطوع - نحن هنا جميعا .
اسلام بك - ايها الرفاق ، لقد التفقتم حول لوائى . وانى
بذلك لمزهو بفخوري ، وان كنت لا ادرى هل احوز رضاكم أم
لا ؟ انا ذاهب إلى القتال ، وقد عقدت العزم على ان اموت ،
انا لا انا على ذلك أجرا ، وعلى الراغب فى الاجر ان يخرج

من زمرتنا ، ولا امل لى فى غنيمة وعلى الراغب فيها ان ينسحب
وقد وطدت عزمى على الاين واللغوب ، فعلى طالب الراحة الا
يتبعنى . ولا خشية لى من السيوف المجردة والسهام المسددة ،
فاولى بمن يخشاها ان يقبح مع اهل بيته . أتفهمون كلامى ،
وتملكون ان تطردوا خشية الموت من قلوبكم ؟ افى مكنتكم ان
تعتبروا صدوركم قلاعاً تحمى بلادكم ، اتذهبون لملاقاة
الردى ؟ سنبدل انفسنا عن وطننا والله حافظنا ، اما إذا لم نحفظنا
فتلك حكمته وله الأمر من قبل ومن بعد ، ألكم فى انفسكم عظيم
الثقة ؟

ايها الرفاق انا إلى شاطئ نهر الدانوب متجهون .
الدانوب حياتنا وإذا فقدناه فقدنا الوطن ، فما استطاع احدان
يحيا فيه ، وقد يستطيع البعض ان يعيش فيه ، كلا كلا ! قد يستطيع
احد ان يعيش واسكنه ان يكون رجلاً . فلا يمكن لرجل ان
يعيش وهو يرى امه تحت الاقدام ، والرجل ان يعيش وهو
يرى ولى نعمته تحت اقدام المهانة دون ان يحرك ساكناً إلا
ان يكون احقر من كلب ، ايها الاخوان ، ليس الانسان باحقر
من كلب .

ان الله يأمرنا بمحبة الوطن ، الدانوب معناه الوطن فاذا
ذهب احدهما لحق به الآخر . وستجدون عظام آبائكم واجدادكم
اينما سرتم وتوجهتم على شاطئه . وإذا رأيتم الكدرة في مائه
فهذا الغرين ذوب اجساد من ناخروا عنه من ابطال اماجد .

لقد عبر الترك الدانوب يوم عرفوا برنين اسمهم ،
لقد عبروه دفعات ، إلا انهم لم يستولوا عليه ، وما دام لهم
وجود في هذا الوجود فلن يغلبوا عليه . أنتم على اتم الالهية
للدوت من اجله ؟ اتقسمون بربكم على انكم ستتبعونني ؟
المتطوعون — يميننا لانحنث فيها .

اسلام بك — من احبني تبعني .

الفصل الثاني

(يرفع الستار عن فريق من المتطوعين ، وهم جلوس في
جانب من قلعة سلستره ، وزكية في ثياب الرجال)

متطوع -- الزموا الصمت الزموا الصمت .

متطوع آخر -- ما الخبر ؟

المتطوع الاول -- اما تسمع الموسيقى .

المتطوع الثانى -- علام هذه الجلبة ، الجيش قادم .

المتطوع الاول -- كأنها نغمات حربية .

زكية -- مادامت النغمات حربية فلنترنم بنشيد حربى .

المتطوع الثانى -- تأمل هذه الطفولية .

عبد الله -- اين هذه الطفولية ؟ !

المتطوع الاول -- صه يارقيق .

(الجماعة) لنترنم بأنشودة

و الوطن شاغلنا عن أنفسنا ، واقباله مناط آمالنا . ولنا
من اشلائتنا حصن يحمى حدودنا . نحن العثمانيين زينتنا كفن
ملطخ بالدماء ، والموت فى الهيجاء اعز مالنا من رجاء ، نحن
العثمانيين رايتنا حسام دام ، ولا خوف من الموت فى سهلنا ولا
جبلنا ، فالاسد رابضة فى كل ركن من بلادنا . الموت فى الهيجاء
أعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل الارواح والاجساد
لننال اعظم الاجداد . ان للعثمانيين اسما يلقى الرعب فى كل القلوب
ولا جدادنا مهابة تعرفها الدنيا بأسرها ، لا تحسب دماءنا قد تغيرت
فدماؤنا هى دماؤنا ، والموت فى الهيجاء أعز مالنا من رجاء ،
نحن العثمانيين نبذل الارواح والاجساد لننال اعظم الاجداد .

ولهذه المدافع ان تقصف وتبعث بالنيران في كل الانحاء ، ولتفتح
الجنان ابوابها للشهداء . ماذا اصبنا من دنيانا لنهرب من منيتنا ا
الموت في الهيجاء اعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل
الارواح والاجساد لننال اعظم الامجاد .

صدق بك - على الراغب في البقاء بالقاعة أن يقف ناحية .
متطوع - انما قدمنا للبقاء هنا جميعا ، فما معنى أن يفارق
بعضنا البعض .

صدق بك (لا يلتفت الى كلام احد) - يارفاقى لقد عبر العدو
النهر . والحكومة قادرة على حماية قلعتها بجنودها ، واتم في حل
من البقاء هنا كما اذن لنا الباشا .

متطوع - العدو كثير ، فهل تريدوننا ان نكون اقل عددا
على قلتنا ا

عبد الله - ان كنا فئة قليلة فأى بأس في ذلك ، مادمنا قلة ،
فالموتى عديد قليل . اما اذا كنا كثرة فالموتى فئة كبيرة .

صدق بك - صه ، دعهم في كلامهم .

عبد الله - بالله .

صدق بك - ايها الرفاق ان المحاصرين يلاقون من الجوع

اهوال الـ تلك الـهوال الـى يلاقونها من بطش سلاح العدو
انجوا بأنفسكم .

متطوع - سيدى : لقد جئنا طوعا لا كرها ، وكان مجيئنا من
أجل شىء ، اتشير الى العدو باحدى يديك ، وتشير الينا أن نهرب
بيدك الاخرى ! لقد عشت ما كفى من هاهو ذا كفى معى ، وانا
على اهبة الموت ، لقد قدمت من بغداد على هذه النية .
صدقى بك (مشيحا) لست اعنيك بقولى يارفيق .

متطوع - اذن ايننا تعنى ؟
متطوع آخر - ايننا بلغ من الجبن والنذالة ان يولى الادبار
قبل بدء المعركة !

صدقى بك - حسنا ، انت مثلنا تريد الموت من أجل الوطن
ستثاب وتؤجر عند ربك ، واذا ذهبت نفسك ببق اسمك ، والرجل
بحق هو من يؤثر اسمه على نفسه . كونوا اشجع الشجعان ، لا
تهابوا الموت ، فانه لاشك مدرككم فى يوم من الايام ولا منجاة
منه فى سلم ولا فى حرب .

(يشير الى زكية) يا غلام .

زكية - سيدى

صدق بك - من تكون ؟

زكية (حيرى) - انا رجل من الرجال .

صدق بك - ما اسمك ؟

زكية (تمالك نفسها) - رجل ياسيدى .

صدق بك (فى نفسه) - ماهذه القحة ! (مشيرا اليها) لك أن

تغادر القلعة .

زكية - انا ابذل حياتى ، اتحدثنى لحداثة سنى ، ان كنت جئت

الى هنا لقتل الرجال فاقتلى معهم ، اما ان كان مقدبك الموت فاعلم

بأنى سأكون بالموت اطيب منك نفسا .

اسلام بك (يعدو وفى صدره جراح)

سيدى سيدى .

زكية - آه .

صدق بك - لقد عبروا النهر وهم عشرة آلاف رجل ،

فصمدنا لهم ونحن ثلثمائة وقاتلناهم ثلاث ساعات ، نعم ثلاث

ساعات قضيناها فى الجهاد والجلاد فسقط رجالنا جميعا . لقد

لحق كل منهم برحمة ربه ، ولكن بعد ان اهلك اثنين من الاعداء

وهاهى ذى الاجساد على اديم الارض ، لقد واجهنا عشرة آلاف

سنان مشرع الينا وتواثبنا بين القنابل ، وانهمر على رموسنا من
الرصاص مثل الواابل ، ثم التحمنا واظهرنا عثمانيتنا . لقد متنا
عن آخرنا ، آه ولم يبق هنا الا سبعة ، ولقد وددت أن ألحق بهم
والله على ما أقول شهيد ! وكنت في الطليعة ، فنفدت مؤوتى
وتحطم سيفى .

(وتقترب زكية هانم رويدا رويدا من اسلام بك وهوية قص
قصته حتى يسقط بين ذراعيها ، ويلتف الحاضرون حولهما) .
اسلام بك - تعال يا عبد الله ، سر بها توالى حجرتى ، ووافها
بكل ما تطلب ، ادع طبييا ، لا تتركها حتى اعود .

عائشة التيمورية في شعرها الفارسي والتركي

العربية والفارسية والتركية ، هي اللغات الاسلامية الثلاث باعتبار الاهم وتقديمه على المهم . وقد اتى على المتأدين من ابنائها حين من الدهر كانوا معنيين بها يتعلمونها ويتفهمونها ، على ان ذلك ضرورة ثقافية لاغنية لهم عنها ، ووحدة كاملة لاسبيل الى التفرقة بين عناصرها ، لأن الادب الاسلامي الرفيع يتألف منها ويتفرع عنها في ثلاث شعب تتكامل وتتجاوب وتحتفظ كل منها للآخرى بظلال واضحة وأصداء مترددة .

وقد ظل هذا دأب المتأدين الى نهاية القرن الماضي ، وانه ليفسر لنا أن ينظم شعراء من الفرس بالعربية والفارسية ، ومن الترك بالتركية والفارسية . غير اننا اذا اردنا تحديدا ودقة ، قررنا ان ابناء التركية كانوا اكثر عناية باللغات الثلاث ، وما

ذلك الا لحدائثة عهدهم بالادب ، فان ادبهم ترجع نشأته الى ما قبل
سته قرون ، على حين كان الادب الفارسي مزدهرا منذ الف سنة
والادب العربي منذ الف وخمسمائة او ما يقرب . ومن ثم وجد
الترك مس الحاجة الى النظر في آثار من سبقوهم ، لتأثر خطاهم
واحتذاء امثلتهم . وهذا ظاهر الوضوح عند بعض من رجالات
الادب في مصر المنحدرين من أصل تركي ، أو الذين عاشوا في
بيئة تركية الثقافة ، كحمود سامي البارودي باشا الذي كان يحذق
الفارسية والتركية ، ويتزود من آدابهما لأدبه ، ونسوق لذلك
مثلا قوله في ذم الدنيا :

إذا احسنت يوما اساءت ضحى غد
فاحسانها سيف على الناس جائر
ترب الفتى حتى اذا تم أمره
دهته كما رب البهيمة جازر

فهو متأثر بقول الشاعر الفارسي سعدى : داخى ، هي الدنيا
لا تبقى لسكائن من كان ، فكافيك منها أن تسكون موصول القلب
بالرحمن . لا يغرنك ملكها ، ولا تسكن في امن منها ومن
محدثاتها ، فكم من امثالك ربت ثم قتلت . واذا ما حان انقضاء

عمر ك ، فسواء ان تموت وانت على عرش ، ام ان يكون لك
من التراب فرش .

وكان من يدعى اسماعيل تيمور باشا من أمائل الكتاب
ومذكورهم على عهد محمد على الكبير الذى اصطفاه واتخذ
كاتبه الخاص لاتساع باعه وعلو كعبه ، فقد كان عليه بالتركية فى
وزن عليه بالفارسية والعربية . وله ابنته عائشة التيمورية التى
نظمت الشعر شيئاً عجيباً ، فكان من حقها علينا وقفة عندها
ونظرة فى ديوانها . فنحن لانعرف من الشعراء والشواعر من
نظم جدياً فى اللغات الثلاث بهذه القدرة وتلك الوفرة . ومن
اسف ان يسكت عنها مؤرخو الأدب التركى سكوتاً تاماً ، مع
ان لها شعراً تركياً يروق ، وشاعرية ليست لشواعرهم ، وهذا
السكوت معزو الى جنسيتها المصرية ، وانه ليزكرنا بأدباء الترك
الذين طووا ذكر السلطان سليم الاول كشاعر ، لانه لم ينظم
إلا بالفارسية كما أهمله أدباء الفرس لجنسيته التركية . واذا ما قرأنا
هذه الشاعرة المصرية التى ضاع جانب من آثارها بين العرب
والترك والفرس تهاً لنا ادراك الفرق بين دواوينها الثلاثة ان
كان هناك من فرق .

وديوانها الفارسي التركي مطبوع بالقاهرة عام ١٣١٥ هجرية ،
وقد قدمت له بمقدمة تركية بليغة في شرح حالها ، واطهرتنا على
الكثير من دقائق حياتها ، فروت لنا قصة جميلة بها من الاحداث
والملايسات مالا يكون الا في قصة شاعرة كمثلها . فذكرت كيف
بلغت ضحوة العمر ، وارادت بها امها ان تعالج فنون التطريز
والحياكة على غير رغبة منها ، فانما كانت همتها الى الادب متجهة ،
ومتعتها ان تنصرف انصرفا تاما الى شعر تكلف به اشد
الكلف . وما احس ابوها وهو الاديب الاريب بذلك من امرها
حتى احزنه ان يجد البلبل حبيسا في القفص ، واحب له ان
يكون طليقا مغردا بين الاعناب والنخيل ، فاستدعى لها من
يؤدبها ويلقنها العربية والفارسية والتركية . فبرعت في الفارسية
والتركية كل البراعة وانكبت عليهما تدرسهما حتى استأدبت .
واتفق لها يوما حدث تفتحت له شاعريتها ، وذلك ان الخصى
الذي كان يقوم على تربيتها ، دخل غرفتها وبين يديه طاقة زهر
قدمها اليها ليطرفها هدية تعجبها ، فتنازلتها وجعلتها في اناء الزهر .
وكان الوقت ليلا والليلة مقمرة ، فدخل القمر الغرفة وغمر
الزهر بنوره الاؤلوى الحالم ، وكان مشهدا شعريا جميلا ، فكأنما

قطعة من الفجر تبسم للزهر المطلول والليل مرخي السدول
ووقفت الفتاة تتملى هذا الحسن بروح سكرى ، وعين ترنو فترى مالا
تراه العيون ، وبيننا هي في وقفها اذ نادتها امها فى حاجة لها ، فانطلقت
اليها ووافتها بما طلبت ثم عادت إلى زهراتها ، فاذا بها منتثرة
كأنها شمل احباب كان جميعا فنصدع . وحزنت لذلك حزنا
مرا حرك اعماق نفسها الشاعرة ، فنظرت إلى البدر مليا ثم جادت
قريحتها بهذين البيتين من الشعر الفارسي وهما : « يا بدر ا فى السماء
منيرا ، هو ذا زهرى اراه نثيرا ، بالله إلا قلت لى من اذ بك
ولك عندى ما تتمنى ، أى حزن هذا الذى له وقد الجمر فى نفسى
وانا اشاهد زهراتى فى ذبولها ،

وفوجئت عائشة بأبيها يسألها عما تصنع ، فأنشدته البيتين ،
فطرب كثيرا لهما ، وطابت نفسه بابنته وبهما ، واحتضنها
داعيا لها ماسحا على رأسها ، ثم اوصاها باللغات الثلاث ، قائلا
ان الشعر لا يحسن إلا فيها جميعا .

وهذان البيتان نخصهما بالذكر لانهما با كورة شاعريتها ،
ويا لها شاعرية اصيلة تدرك الجمال فى صفه لم تبتذل ، ولم تدر
على ألسنة الشعراء دورانا يفقد الجديد جدته والمليح ملاحته ،

كما يشهد لها هذا الوصف للزهر والحديث عن البدر بأنها تصدر
عن شاعرية أصيلة وملكمة عواتية ، فلا تتكلف ولا تتعسف متبعة
مقلدة لما رده الاولون فاطالوا ترديده ، والنزموه فما كادوا
يتخلون عنه . وانها لصورة ساذجة رسمتها لنا غير واضحة المعالم
بريشة رقيقة تتردد بين انامل يعوزها الثبات وتنقصها الدربة ،
وان كان لا يسعنا امامها الا ان نتخيلها في غد مشرق مزهر
بعد استتمام الاداة ونضج التجربة والتطور المأمول بعد مرور
الزمن .

ودارت الايام ، وحان لعائشة ان تتزوج ، فتزوجت
ورزقت (توحيدة) ، فانست بها وحدث عليها ، واورثتها علمها
وادبها وما لبثت الصغيرة ان تمت قواما واستوت خلقا ، غير ان
الداء دب في شبيبته كدبيب الذبول في كم لما يتفتح ، وبلغ من
رقة حس العليلة ونبل عاطفتها ان تكتم عن امها ما تشتكى ،
وشديد ما تجدد من ألم في جسدها الضاوي ، واسف في نفسها
الحزينة على عمر لم تبق منه بقية . فكانت إذا سئلت عما اصارها
إلى المشاهد من حالها ، قالت انها بخير حال ، وان اعجزها ان
تغير ما ينطق عنها من ضنى وشحوب . وحدث يوما بين الام

وابتتها ما يوقفنا على تلك العلاقة التي كانت بينهما في هذا الصدد
وذلك ان توحيدة آوت إلى مضجعها ذات مساء مبكرة على غير
عادتها وفي عينيها اثر الدمع ، بعد ان اطبقت يدها المنخضبة بالحناء
على قرطاس وقلم ، ثم لبثت بعض اللبث في هدوء وسكون ،
وفطنت الام إلى ما كان من ابتتها ، و ارادت ان تستكشفها عن
مرها ، وتسالت إلى حجرتها ، فما شاهدها توحيدة حتى ارتعد
هيكلها الواهي ، وكانت اسرع شيء إلى دس القرطاس بين
الوسائد ، ولما طلب اليها ابرازه حزنت والحت في رجاء حار
ان تترك وشأنها ، وقالت انها لا تحب اطلاع احد على القرطاس .
ثم دفعته إلى جارية لها ، ورغبت اليها ان تقدمه طعمة للنار ،
إلا ان الام كانت اشد شوقا إلى الوقوف على جليلة الامر من
ان ترضخ لمشيئة ابتتها ، فتعقبت الجارية وانتزعت القرطاس من
يدها وبسطته ، فإذا فيه ابيات من الشعر نظمها توحيدة في البكاء
على نفسها بعد ان شعرت بالموت يخطو حثيثا نحوها ، وهي :

اسمع مقالى يا اريب	وقصتي شرح مريب
قد كنت فى دوح الصبا	اهتز كالغصن الرطيب
اصبحت حالى عبدة	يبكى على مثلى الغريب

كلا ولا لى منهل اروي به الا النجيب
فالدمع منى ساجم والرمس اضحى لى قريب
يارب عجل رحلتى واغفر ذنوبى بالحبيب

فأخذ الأسي من عائشة كل مأخذ ، ووجدت فى الفؤاد
حرقات الشكك ولذعات الفجيرة ، فطال ليها سهدا ، وسرى الوهن
فى جوارحها والخور فى نفسها إذ تذكر انها ستقف من توحيدة
وقفة الوداع . وصدق شعور البنت وحسبان الأم ، فمضت
توحيدة انضرماتكون عودا وكان ليلة ماتمها كانت ليلة عرسها .
وكان موت توحيدة شديدا لاثرى فى حياة عائشة التيمورية عامة ،
والادبية خاصة ، لأنه الستار الاسود الذى انسدل ليفصل اتم
الفصل بين امسها ويومها . فقد كفت عن قول الشعر بعد مدة ،
ولم يبق فيها جانب لتلك الدنيا التى انصرفت عنها بشاشتها بموت
ابنتها ، وزهدت فيها زهادة حببت اليها ان تنطلق منها بعقلها وقلبها ،
فاتجهت بنفسها الى الآخرة ملتزمة موثلا من آلامها ، وريا
لصدائها ، وعكفت على القرآن تتلوه وكتب الاحاديث تستوعبها
رجاء السلوة والعزاء ، مستعينة بكل ذلك على تناسى المصاب
وصبر المؤمن المحتسب . ثم عمدت الى شعرها العربى والتركى

لحرقته اكثره، ولم يبق إلا اقله ، اما شعرها الفارسي فأكله اللهب
برمته واذرته الريح رمادا ، وكل ما يحتوى عليه ديوانها من ابيات
نقشتها على قبر ابنتها وهي : « ولما تناهى إلى سمع العروس نداء
الخور العين ، قائلات ان المراسط منتظرات لمقدمها في قصر
عليين ، قالت اني اليكن قادمة ، ولكن لي اما تزفر النار من كبدي
- حري ! اماه لا تلتحي وكفي عن البكاء ، وعليك بجرعة من ماء ،
لقد انقضى الاجل ، ودعيت للرحيل عن الدنيا لاستيفاء النصيب
منها ، فأى جدوى من طب لقمان ؟ ايها الزائر ، ان قبري يستهديك
ان تقرأ الفاتحة لروحي ، وتطلب الرحمت من رب السموات ،
وليس في مكنتنا ان نحكم حكما عادلا على هذا القدر الضئيل من
شعرها الفارسي وان بدا اقل طلاوة من شعرها التركي والعربي
في الرأي الاغلب . اما اختيارها الفارسية لشعر القبر فمردده إلى
ان الترك جرت عادتهم بالشندق بالفارسية تفصحا وتظاهرا
بسعة العلم على انها لغة البلغاء وصيارفة الكلام . وان احراقها لشعرها
لما يجعلنا نميل الى الظن بأنه من وحي ذكرى حزينة ، هي ذكرى
توحيدية يوم طلبت احراق الابيات التي نعت فيها نفسها .

وديوانها التركي يحتوى على قدر صالح من الشعر الجيد إذا

وزناه بميزان عصره ، وهو يضم معظم الفنون الشعرية التي عالجها شعراء الترك ، فافتتحته بقصيدة في المناجاة منها : « لقد قدمت ياملك المملك بعد ان اثقلني حمل ثقيل من جرم وعصيان . فأنا كاسفة البال من وحدة واسرو فقر ، انا الحقيرة يارب الاحسان . انا من اذنبت فذلت وقصرت فكلت ، وما اشد خجلتي من عجزى وخيبتى ، غير انى سأجد السلامة يوم القيامة إذا ما شفّع لروح عدنان . ولفظ « الا » يحلو لى قلبى فحاشا وكلا ، لن يمسنى حر النيران » .

فهذه المعانى المحدودة المعروفة قلما نعدمها فى دواوين الشعر التركى القديم ، والشعراء يظهرون بها اتباعهم للتقاليد الشعرية ، ويشبعون نزعة دينية صوفية .

وعائشة التيمورية تميل الى الفخر كل الميل وتبدو فيه تياهة معتدة بنفسها الى ابعد الحدود ، كما تجنح كثيرا الى المبالغة فى التشبيه ونصاعة الديباجة ، ولها ولوع بتصيد الالفاظ البراقة حسنة الجرس . فهى التى تقول : « ان لنور افكارى اشعة هى شفاف الياقوت ، ورأى الذى هوزينة عفتى مشكاة ترسل الضوء من وراء حجاب . وإذا ما قرؤا لفطنت ولىلى بالسبق والبراعة ،

فانا من يسأل الرأى والحكم ، وتقرىظى فى الختام احسن عنوان .
وان ولادة والخنساء لتقسيمان على كمالى وتبريزى ، وهما لاريب
تعترفان بالعجز عن بلوغ شأوى . وقصيدى تاج على شعر الشعراء
من ترك ومن عرب . .

فقد ذكرت الشاعرتين التركيتين فطنت هانم ولىلى هانم
والعربيتين ولادة والخنساء على انها اشعر الشواعر جميعا ، والبون
بعيد بين هذه الفخرية التركية وفخرتها العربية لانها فى قصيدتها
العربية انهم نبرة وارق معنى واقل تكلفا .

ولها قصيدة طويلة بعنوان «قصيدة خيالية» وهى فيها تتحرر
من قيود التقليد وتبدو شاعرة واسعة الافق تولد المعانى الكثيرة
من المعنى الواحد ، وتضفى عليها من روحانيتها رونقا وبهاء .
والقصيدة من الشعر الرصين العالى الذى يتعاضى على كثير من
الافهام ، واجمل ما فيه هذان البيتان : « وقع طائر الامل فى روض
الوفاء ولم يجد له مكانا يعتش فيه ، فدار ببصره بين الاشجار وهو
ينوح ، فهل عمد القدر الى قوادمه فقصها ، حتى تنقل كالغريب
التائه ، ورغائبه من فوقه اغصان واغصان . .

وقد نظمت فى اغراض اخرى منها الرثاء : فرثت عليه القوم

كالخديو توفيق ، وبسكت امها واباها ، ومن عجب ان يخلو ديوانها من مرثية لابنتها ، اللهم إلا بضعة ابيات تعتبر وسطا بين الجودة والرداءة اوصت بنقشها على صفحة قبر توحيدة . ونحن لانجد ما يمنعنا من الظن بأنها رثتها بالتركية فضاع الرثاء في جملة ماضع من شعرها .

ومن شعرها في الغز ايات قولها : وانا السمكرى فهل من الصهباء نشوتى ، انا النائحة فهل نواحى نواح الناي ، ايها الحظ العاثر الغادر ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبي . انتحان كنتحان البلبيل بين الأغصان ، واحتراقى كاحتراق الفراشة فى النيران ، والله ما ادرى ما الذى يبكىنى ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبي . اظل حيرى طول ليلى ونهارى ، فهل من بأس إذا سألتك ؟ بالله ما اصارنى الى تلك الحال ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبي ، الناس فى فرحهم ومرحهم ، والاحبة فى هناة باسمة ، وانا من يصعد زفرات الأسى ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبي . ،

فهذا الشعر الصوفى الجميل بما يشتمل عليه من رمز وإيماء ومعنى روحانى ، هو الكنز الذى خلفه شعراء الترك والفرس

للإنسانية ، والربيع الذى تهم فيه روح من تأدب بأدبهم ، لأنه
يغمر النفوس بنشوة حاملة تطرب الصوفى الواصل وتعجب المتيم
الوطنان ، فكل منهما يبكى على ليلاه ويفهم بوحى من ذات نفسه ،
فلكل لفظ فى هذا الشعر معنيان قريب غير مقصود وبعيد مقصود
واللقارئ ان يفسر كما يشتهي وعلى الوجه الذى يرتضى ، وهذا
لانعهده الا عند بعض من شعراء العرب ، فعلينا بعد ذلك ان
نخفف من عجبنا ونحن نرى الناشر لديو أنها العربى يقول فى باب
الغزل : « وقالت متغزلة فى غير انسان ، والقصد تمرين اللسان » ،
ولم تدع الحاجة الى مثل هذا التنبيه فى ديو أنها التركى اعتمادا على
معنى الغزل فى فهم الترك . وان ذلك لفارق بين الشعر العربى
والتركى .



جلس ملك الملوك على حشية حرير في حديقة قصره المتراحة
الارجاء ، وكان المجلس مجلس أنس وطرب ، فأدار الكأس على
السمار ساق مشرق الجبين ، وسطعت شموع العنبر نورا وعبرا
وقد خفقت اوتار الرباب فسرت خفقاتها في القلوب ، وهزت
من أعطاف راقصة ما هزت النسيمات من شجرات السرو
والحور ، وامتدت نقوش البسط امام الجالسين ازهارا واطيارا ،
فكدان في البستان بستانا طاب الوانا والحنانا .

وعب ملك الملوك من الصهباء كأسا تلو كأس ، فقال رأسه
وثقل جفنه ، وهام في الأوهام والرؤى ، وكان هذا الملك وهو
المسمى خشايارشا ، كثير الزهو معجبا بصولته وسلطانه ، وبذلك
الاقاليم المائة والعشرين التي تستظل بعرشه وتنضوى تحت لوائه .
وساقته كبرياؤه إلى حب الظهور بكل ما يدا ، على عظمته ويشير

إلى انفراده بالملك والسيادة ، فزينت له نشوته ان يأمر الغلام
بدعوة احدى حظاياها إلى حضور مجلسه ، وشرط ان تأخذ
احسن زينة وتبدو في ابهى الحلل لتبهر الحاضرين بالجمال والجلال
وما كان يرمى من ذلك إلا ان يطلع الندماء على عظمتهم مضافة
إلى عظمة ما يمتلك .

وامثل الغلام لأمر مولاه ، وانطلق الى مولاته واخبرها
الخبر ، فلما عرفت جليلة نفرت نفارا وابت ان تطيع ، وقالت
في نفسها ان هذا الاكلام مخمور والخمر تذهب بعقل شاربها .
وانهى الى ملك الملوك ما كان من اباء حظيته فاستشاط غضبا ،
وعدم الحيلة ، فما وسعه الا ان يستشير اهل مشورته . فقال
قائلهم ان حظية الملك سيدة النساء ، وللنساء أسوة فيها ، واذا
مر بسمعهم انها خرجت عن الطاعة . كن اسرع شىء الى تقليدها
فعصين الازواج ونشزن منهم ، وهذا شر عظيم وفساد فى
الأرض . فالرأى ان يسلو عنها ويطردها من قلبه . قيل واشير
عليه بأن يقتلها فأمر بقتلها ، وتقوض مجلس الانس ، وران
على قلب ملك الملوك هم وغم .

ومرت ايام بعد ايام ، فشابت اليه نفسه ، وانجلت عنه

غمرات اساء ، فوجد مس الحاجة الى عوض من تلك الخفية
التي ذهب بها النشوز والعصيان ، وبثر رجالا من بطانته يطلبون
له ذات حسن تصلح للوك و يصلح الملوك بها . وجاسوا خلال
البلاد ، فما اصابوا جوهرة غالية جدوا في نشدانها ، فرأوا
لليأس ظلمات تغشى نفوسهم ، غير ان بارقة لمعت فجاءة لتبديد
تلك الظلمات ، فقد اعترض سبيلهم رجل يهودى بمدينة شوش
يدعى مردخاى ، وجاءهم بذبا هز القلوب منهم فرحا . لان هذا
الرجل كان يكفل ابنة اخ له بارعة الحسن يقال لها هدى . فاجلس
الفتاة بحيث يرونها ولا تراهم ، وما وقعت عليها عيونهم حتى
راقهم جمالها ، وايقنوا انهم امام كنز تبنى لهم من بعد طول
احتجاب . فحملوها الى القصر ومعها عمها الذى اوصاها بانكار
يهوديتها وإخفاء نسبها ، حتى لا يرتاب احد فى امرها ، او يكره
منها جنسها .

وفى القصر وكلت سبع جوار بخدمتها ، فزينت وعطرت
واكرمت ونعمت ، ثم اتخذت سبيلها الى حضرة ملك الملوك
الذى تعلقها ، وتهاقت عليها روحه تهاقت الفراشة على النور ،
فأثرها ولم يؤثر عليها ، وسماها داستر ، بمعنى نجم فى الفارسية ،

ولا غرو فأن كانت نجما في حسنها ، لقد أصبحت نجما في رفعتها
وعلو شأنها .

اما عمها مردخاي ، فما كان أبعد البون بين يومه وامسه ،
لانه أصبح من اهل السيادة ، فعضم جاهه وسمت رتبته ،
واتخذ من ابنة اخيه وسيلة لكل ما يريد ، فكانت تأتمر بأمره وتصدر
عن رأيه ، وذلك من طرف خفي . وقد تنسم الاخبار ذات يوم
فتناهى اليه ان ملك الملوك مقصود بالسوء ، وعرف ان رجلين
من رجاله يضمران نيتهما على قتله ، فوجدها فرصة مواتية
لمكافأته ان دل عليهما ، وسرعان ما اسر ذلك إلى استر ، وامرها
ان تنقله بدورها إلى مولاهما ، فتنبه الملك إلى ما كان عنه غافلا ،
ورأى ان يرد السهم إلى نحر راميهِ ، وكفى نفسه شر الرجلين
بقتلهما ، ومد عمره من عمرهما . وتطلع مردخاي من الملك
خشيا رشا إلى ان يكافئ حسن صنيعه ويرد جميله فطال انتظاره
ثم طال !

وكان للملك وزير يدعى هامان ، وكانت له الرتبة على
الناس ، فأمرُوا جميعا بتعظيمه وإكباره وطاعته ، وحز في
نفس مردخاي وكبر عليه ان يستأثر هذا الوزير دونه بالمنزلة

التي لا تسامى ، فلم يظهر له اجلالا ولا اكترائا ، كما نقم منه الوزير
دسه ومشيه بالنميم ، وان يصير إلى بسطة في الدنيا وسعة من
المال ، وهو الذي كان بالأمس مستحقرا ضعيف الشأن ، فهاج
العداء والشر بين مردخاي وهامان ، وتمنى كل منهما لو تمكن من
خصمه فأورده موارد الهلكة . واراد الوزير ان يوغر عليه
صدر الملك متربصا به الدوائر ، ومؤملا القضاء عليه وعلى ابناء
قومه قضاء مبيرا ، فقال للملك : ان في البلاد قوما لا يدينون
له بالطاعة ، ويجمعون على عداوة الايرانيين الذين يخالفونهم في
الجنس والعقيدة ، كما ينقبضون عن غيرهم ، فلهم عاداتهم وعرفهم
وشرائعهم ، فمن الخير ان يقتلوا عن آخرهم فنستأصل شأفتهم
وتكسر شررتهم ، وما كان الملك ليراجع وزيره في امر من الامور ،
لانه تعود ان يستشيريه لا ان يشير عليه ، فصاح كلام الوزير في
فهم الملك ، وفوض اليه امر قتل اليهود في ايران .

وما ظن هامان انه ادرك بغيته حتى سر سرورا لا مزيد
عليه ، وعقد العزم على ان يشفي غيظه من مردخاي وابناء جنسه
الذين عاداهم من اجله . واحاط اليهود بذلك علما فجزعوا جزعا
شديدا ، ورأوا انفسهم مسوقين إلى هوة للعدم تحت اقدامهم ،

ولم يجدوا مخلصا لهم من ذلك الهول إلا مردخاى فسعوا اليه
زرافات زرافات ، وطلبوا الشفاعة عند ابنة اخيه لتثنى الملك
عما نواه . فمزق مردخاى ما عليه من ثوب وعفر فى التراب رأسه
ولحيته ، ودخل على استر با كيا منتحبا يدق صدره ، فقالت له
فى ذلك ، واوقفها على الأمر ، فبدأت من روعه وطببت نفسه
واوصت ان يصلى اليهود فى ايران ويصوموا ويدعوا ربهم ان
يلهمها المقدرة على تنفيس الكرب ودفع الشر ورد كيد
الكائدين .

ودخلت على ملك الملوك الذى عودها ان يسألها حاجتها
متحيبا اليها بقضائها ، فطلبت اليه امرا ما كان ايسره ، وهو ان
تجمعها به وبالوزير مأذبة ، فكان لها ماطلبت ، وجمعت المأذبة
بينهم ، وعلت الملك ثم علتة اقداحا لم تبق فى رأسه مسكة
من عقل يميز بها بين الحق والباطل فى اقاويلها وارا جيفها ، وهى
ترمق الوزير بعين غضبي تنبئه بأن شرا سوف يدركه . ومضى
هزيع من الليل ، واوى الملك إلى مضجعة ، إلا ان عينه لم تكتحل
بغمض ، فاستعان على السهاد بمن يقرأ تاريخ حكمه وما حدث
فيه من احداث ، ولما وصل القارىء إلى المؤتمرين به وما كان

من فضل مردخاى فى التنبيه اليهما ، ذكر الملك ماقد كان له ناسيا ، فسأل عن مردخاى وما نال من جزاء كفء ماصنع ، فقيل له انه لم ينل بعد شيئا ، فاستدعى وزيره هامان وسأله عما ينبغى عمله إذا ما اريد اعلاء شأن وتعظيم قدر ، فأخطأ الوزير الفهم وظن نفسه المقصود بهذا الاعزاز والاكرام فقال للملك : « إذا اردت بأحد ذلك ، فأخلع عليه ، وزين رأسه بتاجك ، واركبه فاره جيادك ، فقال الملك : « حسنا ، ليكن ذلك من نصيب مردخاى ، وعليك تنفيذ مشيئتي فورا . »

وما وسع الوزير إلا الاذعان ، فأكرم خصمه متكرها مضطرا ذلك الاكرام الذى لم يكن له فى حسابان ، بعد ان ظن بأن الله اظفـره به ونصره عليه . وفى اليوم التالى رأت استر هامان مجتمعا بالملك ، فاقتحمت عليهما بحاسهما ، وصارحت بطلبتهما ، وهو ان يأمن اليهود فى ايران على انفسهم من اعدائهم ، ثم اشارت إلى هامان قائلة انه اعدى اعداء اليهود ، فأنخلع منه القلب رعبا ، وعلم ان الملك غاضب عليه وقاتله لما رأى الشر فى وجهه ، وغادر الملك الحجرة ثائرا مزجرا لبعض حاجته ، فارتمى الوزير على قدمى استر ضارعا فى العفو عنه ، وتعلق بشو بها فأشاحت عنه

وصارت إلى مخدعها وهو مازال متعلقا به ، ودخل عليها الملك
بغداة فوجدهما على هذه الحال ، وظن السوء بهما ، فسلمه إلى
الجلاد الذى شنقه على اعراد كان قد هياها لمردخاى من قبل .
واطلعت استر الملك على كل امر كانت عنه تخفيه فعرف ان
مردخاى عمها ، وانها من يهود ، ثم بكت احرا بكاء وهى تمنى
منه ان يتجاوز عن قتل اليهود ، ويكتب بذلك إلى عماله فى ارجاء
البلاد ، فكتب يستوصى بهم خيرا وينهى عن مسهم بالاذى ،
وما علم اليهود بذلك حتى تحركت نفوسهم للتشفى ، ففكوا بشانئهم
نكلة قبيحة وطفخوا وبغوا .

ومات الملك خشايارشا عام ٤٦٦ قبل الميلاد ، وموت على
موته وموت استر ومردخاى اعوام متطابقة ، بيد ان اليهود
فى ايران ذكروا لاستر ومردخاى فضل استنقاذهم ، فأقاموا لهما
مقبرة بمدينة همذان . وبعد اكثر من الفى عام ، أى فى القرن
الثالث عشر الميلادى . امر وزير يهودى يقال له سعد الدولة
بتجديد بناء المقبرة وتزيينها ، واليوم يتبرك يهود ايران بزيارة هذه
المقبرة ، ولا يفوتهم فى كل عام ان يقيموا عندها عيدا من اعظم
اعيادهم ، وهناك يفرحون ويمرحون ويشكرون لله ان نجاهم من
البلاء والفناء .

الهند في الشعر الفارسي

بين الهند والفرس اسباب متصلة وواشجة نسب ، فهم جميعا من الآريين ، والآريون اقوام عرفت منذ الزمان الأطول واتخذت من ايران مستقرا لها ، فاكتملت ايران اسمها القديم من ساكنيها وهو اريانا ، بمعنى بلاد الآريين . ولم يخرج الآريون عن عادة الشعوب البدائية في المهاجرة ، فانشعبوا ، وولى بعضهم وجهه قبل الشمال ، فجازوا جبال اورال لينساحوا في القارة الاوربية . اما الفريق الثاني ، فاتجه جنوبا بعد ان اجتذبه اليها ارض الهند المعشوشبة المخصبة . وان هذا ليفسر لنا وفرة الالفاظ المشتركة التي نشاهدها في لغات الهند والفرس ، وفي الألمانية والانجليزية من اللغات الاوربية ، فيؤخذ من هذا ان شعوب الفرس والهند غصنا دوحه واخوان لأب واحد ، ولم تنقطع ، الروابط قط بين الهند وايران على مر الزمان ، فلما فتح العرب

فارس ، كره بعض الفرس ان يرددوا عن دين آبائهم ويعتقدوا
الاسلام ، كما اشتد عليهم ان يرضخوا للعرب لانهم في رأيهم
اهل جاهلية يرعون الابل وياكلون الضباب ، فرأوا ان يفروا
من وجوههم بقوميتهم العزيزة عليهم ، ومجوسيتهم التي لا يرضون
بها بديلا ، فشدوا الرحال الى وطنهم الثاني الا وهو الهند ، وهناك
طاب لهم المقام ، وما زالت بومباي مركزا لجاليتهم الى يومنا
هذا . واشتدت الخلطة بين القومين بعد ان فتح السلطان محمود
الغزنوى اقليم البنجاب في اوائل القرن الخامس الهجرى ، واحتل
عسكره مدينة لاهور ، فاحتك الفرس بأهل البلاد واقاموا بين
ظاهر انهم ، وكان من اثر ذلك ان تسربت اللغة الفارسية الى لغة
الهند ، وامتزجت اللغتان امتزاجا تاما تولدت منه لغة هندية
جديدة تسمى « اوردو » ومعنى اوردو الجيش او المعسكر فى
التركية . ولا يخفى ان هذا الجيش هو جيش الفرس الفاتحين
الذين دخلوا هذه البلاد بلغتهم ثم خرجوا منها بعد ان خلفوا فيها
لغة تنسب اليهم ، وهى لغة الهند الاسلامية ولها ادب ، اسلامى
رفيع .

وقد عم انتشار الفارسية من بعد بين مسلمى الهند فخذوها

الحذق كله . دنهلوا من آدابها حتى ارتتوا ، واتخذوها لغة رسمية ،
واعتبروها ضرورة ثقافية لاتكمل اداة المتأدب الا بمعرفتها .
وكان الأمراء يبصرون الشعر الفارسي ويكرمون اهله
فمدحهم شعراء من الفرس استوطنوا الهند ، املا في سني الصلات
وجزيل العطايا ، كسعود سعد سلمان الذي كان من بطانة سيف
الدولة الغزنوي ، فمدحه يوم ارتقى العرش بقوله : ولما اسفر
الصبح وبدا وجه للفلك على صحيفة من فضة ، هب النسيم على ،
ومن القصر حمل البشرى الى ، فان الدولة قد سمت رتبها ، وزادت
عظمة على عظمتها ، يوم سللت الهند بأسرها له مقاليد حكمها ،
ودعى له على المنابر في كل الارحاء ، وتحلى رأسه بتاج ذي لآلام .
وقد وجهت الدعوة من الهند الى شاعرين فارسيين ، احدهما
قديم والآخر من العصر الحديث . ففي القرن الثامن الهجري ،
ارسل حاكم من حكام الهند الى حافظ الشيرازي يطلب قدومه
عليه ، بعد ان زوده بنفقة السفر فقبل الشاعر الدعوة وتها الرحلة
ولما ركب السفينة هاج البحر بها وماج ، فوقع الرعب في قلب
حافظ ، وعاد الى الساحل ، ثم رغب عن رحلته ، وآثر العافية
في شيراز بلدته . ومنذ نحو من عشرين عاما كان في ايران شاعر

وطنى يقال له عارف القزوينى ، وقد اوفد اليه الفرس المقيمون
فى الهند مبعوثا يزين له الرحيل اليهم للاقامة عندهم على الرحب
والسعة ، غير ان الشاعر كره ذلك وزهد فيه .

وفى اوائل القرن السادس عشر الميلادى ، حكمت ايران
الدولة الصفوية ، واتخذت من التشيع مذهبها رسميا لها ، وعرف
ملوكها بصلابتهم فى مذهبهم وشدة التعصب له ، فجر ذلك الى
خلاف ظهر جليا بينهم وبين الصوفية وتنحصر مظاهره فى ان
بعض الصوفية كانوا اهل تسنن لا اهل تشيع ، فساءهم من ملوك
الدولة الصفوية ان يفسروا الناس على مذهبهم ، ويرفضوا غيره
من المذاهب ، كما كان هناك تعارض بين طائفة من عقائد
الصوفية وعقائد الشيعة الامامية ، ولما رأى علماء الشيعة قدرهم
يرتفع ومنزلتهم تسمو ، رغبوا الى الملوك ان يقضوا على الصوفية
لحاجة من دفع شرهم . واذا ذكرنا ان الشعر فى هذا العهد كان ،
معظمه صوفيا ، وان الشعر الصوفى جماع فنون الشعر الفارسى ،
ادركنا ان فى اسكات المتصوفة عن الترنم بالغناء ، اسكاتا للبلابل
فى روض الادب ليغشاه سكون كسكون المقابر . وهذا ما كان
فمعصر الصفويين احط عصور الادب الفارسى ، ولا تملك فيه

ايران من الشعراء الا نفر اكادوا يقصرون شعرهم على رثاء آل البيت وبكائهم . فأين يذهب الشعراء المتصوفون وفي اى مضطرب من الارض يضطربون ؟ لم يجدوا امامهم سوى الهند ، وفيها من سلاطين المغول من يقرب الشعراء ويخاللهم ويجود عليهم بالعطاء الغمر ، فرحلوا اليهم ولجأوا منهم الى ظل ظليل وكنف كريم . وقد احصى احد مؤرخى الادب عدد شعراء الفرس الذين استهوتهم الهند فبلغوا مائة وسبعين شاعرا ، وذكر غيره ان خمسين من الشعراء قدموا على السلطان اكبر ، فأنرم وفادتهم . وقد تحدث عن الهند الشاعر صائب التبريزى فقال : « يالك امنية تحتاج القلوب بها ، وما من قلب يخلو منها ، فما اشبهك بالرحلة الى الهند ، فانها منى الى كل قلب . »

وهو هنا يشبه الشوق الى الحبيب بالشوق الى الهند ، وهذا واضح الدلالة على انها كانت مهوى الافة ، فان الشاعر لم يجد مشبها به غير الهند ، وكان الظن ان الشوق الى المحبوب ليس كمثله شوق فى القلوب .

ويقول ابو طالب كليم : « الهند انا اسيرها ، يا اسفى على العودة منها . ليت شعرى اين تبلغ بالطائر الذبيح خفقات جناحه ! »

هو ذا كلیم يعود الى ايران ، وما دفعه الا حنين الركبان ، فان له
انينا من قلب حزين ، انه ناقوس تمضى به قوائم الابل ونسیر ،
وهو لا یدری این تريد ، واتوقاه الى الهند ، ان عینی اليها راقعة
لا تملك التحول عنها ، فاذا نظرت امامی ، لم اتبین موقعا لا قدامی ،
فکلیم يظهر شديد الحرقه على فراق الهند في صورة شعریة
خلابة ، فتراه ملتفت العین والقلب اليها ، ولا يمضى به عنها الا
رقعة من المسافرين يتزعونه منها للعودة معهم الى بلادهم وهو
كاره لذلك كل الکرادیة ، آسف عليه جدا لاسف ، وما اجل ان
يجعل من نفسه طائرا جناحه دائم الخفقان ولكنه لا يقوى على
الطيران .

ويقول على قلی ساهیم مدحا للهند وذلما لايران : وليست ايران
بلدا طيبا . تنال فيه اربا ، وان يكون للحناء حمرة لونها . مالم
الى الهند تبعث بها .

قال شاعر هتا يتحدث عن بلاده واعراض ما وكها عن الشعراء
إلا اولئك الذين يضربون على الوتر الذى يحبونه ، ويصور بأسه
من العیش فيها . محبذا ان يزايها ويطلب الدنيا فى الهند ، تلك
البلاد التى يزكو فيها كل شيء ويربو حتى الحناء وهى الحراء اينما

كانت ، لن تبلغ تمام حررتها الا في الهند . وما يحرى هذا المحرى
قول جامى : د ان شعرك يا جامى نسيج وحده فى رونقه وعذوبته .
اللفظ الفاخر لحته والمعنى العامر سداه ، فهلا جعلته فى تلك
القافلة التى يمضى به الى الهند ، لينال هناك حسن القبول عند
ملك تجارها

وهذا دليل على كساد سوق الادب فى ايران ورواجها فى
الهند ، وان جامى ليعز عليه ان يعرض بضاعته الغالية على من
لا يعرف لها قدرها ، ويؤثر ان يبعث بها الى البلد النازح حيث
يفهمها العظماء والامائل الذين يعرفون فى النفيس نفاسته وفى
الغث غثائه .

وفى عام ١٩٤٤ ارسلت ايران بعثة ثقافية الى الهند ، وكان
من اعضائها الشاعر الايرانى المعاصر رشيد ياسمى وله فى هذه
المناسبة قصيدة بعنوان : فى طريق الهند ، وقد الم الماسما
تاريخيا حسنا بكل ما بين البلدين من مصلات ، ومن قوله : « ما أعذبها
بشرى تلك التى سمعتها البارحة ، وقد زفتها الى بيعاء قصباء الهند
انها حلوة وحلاوتها من لسان الهند المعسول . قالت اليوم يوم
الرحيل عن روضة الرى الى بستان الهند ، يالها قولة جعلت

للقلب جناحا يطير به شوقا إلى عش له في الهند ، وهو مالاريش له ولا جناح . ان للهند قصة رويت لنا ، وعن التاريخ وعيناها ، نعم ، لقد تساهمت الهند وايران سراء الحياة وضراءها ، انها موطن لعشيرة واحدة ، وشاهدنا على ذلك كتب الهند القديمة . وكانت الهند وايران على دين واحد ولا اختلاف بينهما في علم ولا حضارة ، لقد فتح دارا اقليم السند ، غير انه لم يفرق بين بلاده وبلاد الهند . واعجب انوشيروان بحكمة بيدبا ، وخفق قلب بهرام كور لحسان الهند . وزكت لغة الفرس في كل الارحاء من بلاد الهند بهمة الأمراء وكرم قريحة الشعراء ، وامتزجت حلاوة الفارسية بالأسن الهندية كامتزاج السكر بالدر ، والماء بالخنر . فسعود سعد وابو الفرج وخسرو وحسن ، كانوا للهند تراجمة فأحسنوا . لقد أصبحت دهلي واجره ، الرى واصفهان ، فما أكثر من رحل الى الهند من شعراء ايران .

وفي القرن الثامن عشر من الهجرة ، اغزى نادرشاه جيشه العظيم بلاد الهند ، فغلب به على كشمير ولاهور حتى دخل دهلي ، وغنم من نفائس الهند وجواهرها ما لا يدخل تحت حصر ولا يقاوم بثمن . وللشاعر الايراني المعاصر بهار ، قصيدة طويلة

تسمى فتح دهلي وهى ملحمة يؤرخ بها هذا الفتح ، ويذكر نصر
ايران المبين مفاخره فيقول (انه نادرشاه ، واهب الملوك تيجانها
وصاحب اللواء وقاهر الاعداء . طار صيته بجلائل اعماله ،
وارتفع ذكره بحروب خاض غمارها . لقد اشخص رسولا إلى
دهلي ، ثم تحدث عن قوم صعب مراسهم وانخلع عنانهم ،
فسفكوا الدماء وسلبوا حق الضعفاء فهان امرهم وضعف
شأنهم . وكان من قوله لهم : صالحوني على منجى دهلي ، وحذار
ثم حذار من غضبي وبطشي اما ملك الهند فلم يرد عليه واساء
الظنون به ، وسار نادر إلى دهلي اعنف سير ، مستمدار به كل
عون ، وتحركت جيحافل الهند كأنها جراد أو نمل ، وارتفعت
الاصوات كنعيق الغربان ، غير انه اسكت نأمتهم فبكأنهم
مصباح اشتدت به الريح ، واصبح للأرض من دماهم حمرة
العقيق !)

وقد كان لشعراء الفارسية في الهند مدرسة ادبية . فطريقتهم
في الشعر تسمى الطريقة الهندية ، ولاصحابها عناية باشراف
اللفظ وحسن جرسه ، وافراط في تزيين الكلام بزخرف
الصناعة وقد يشوهون المعنى الجيد بالالوان والاصباغ . كما

مخنفون صوت الشاعر بالالفاظ المجلجلة الموسوسة وليس
كذلك طريقة شعراء خراسان الذين يلتفتون إلى الجزالة
والاصالة ، ويؤثرون جودة المعنى على زينة العبارة ، وليس اهل
الهند في يومنا هذا اقل ولوعا بالآداب الفارسية من اسلافهم
في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فكثير منهم يقرض
الشعر بالفارسية ، وكل ايراني يقرأ شعر حافظ الشيرازي يقابله
خمسة من اهل الهند ، وإذا قرأ سعدى احمد الايرانيين ،
قرأه ثلاثة من الهنود ، اما ديوان قافاني فقراءته ودراسته حتم
على طلبة الجامعات الاسلامية الذين يحفظون جميعا قصيدة له
تسمى قصيدة الالهية .



هو شاعر من شعراء ايران في العهد السابق ، ورجل من رجالاتها الذين سمت بهم همتهم الى رفيع المناصب . لم يقصر شعره وفكره على معان رددتها ابناء قومه ، ولكنه خاطب الانسانية جمعاء فاستفاضت له الشهرة في الغرب كما استفاضت في الشرق . واذا ما احطنا بقصة حياته ، فقد عرفنا العصامية ما هي والنجاح كيف يكون ، وشاهدنا سعي الانسان الى الحول والطول لينعم بالسيادة والمجد ، كما اتيح لنا بعد هذا كله ان نصادف ظاهرة قد لا نعيرها الكثير من التفاتنا . وهي ان الجاه والسلطان ينسبان الى صاحبهما من الافضال اكثر مما له ، ويضيفان الى الصفة الواحدة من صفات الحسن كثير من الصفات .

اما شاعرنا هذا ، فهو من يدعى رضا خان ارفع الدولة ،

مضت طفولته في تبريز مسقط رأسه ، ولما شب عن الطوق
حصل من العلوم ما يحصل لداته واهل زمانه ، وكان ابوه تاجرا
يتجر تجارة رابحة ، الا ان السيل اجتاح مدينة تبريز عام ١٢٨٨
هجريه ، فعطبت امواله وخلت وقاضه واصبح مفلسا من
المفاليس . ولما وجد رضا خان جهد الفاقة وضرورة السكد
طلبا للعيش ، اتفق مع احد التجار على العمل في متجره لقاء
راتب يستعين به على امره . وارتحل التاجر الى استانبول فصحبه
رضا خان ليكون له كاتباً وحاسباً .

وكانت هذه الرحلة تحولا في حياته ، وانتقالا به من حال الى
حال . لانه أحس في نفسه شيئا من السكينة ، كما وجد الدافع الى
التزود من علم له به شغف وكلف ، واحسن استخدام الفرصة
والتوفيق بين حاجته المادية الى التكسب ، وحاجته الروحية الى
التعلم ، فتردد هناك على مدرسة يقضى فيها سحابة نهاره ، ومتجره
الذى كان يمضى فيه زلفا من ليله ، وما انفق يتعلم التركية
والفرنسية واليونانية ويقتلها درسا حتى حذقها الخدق كله .

غير ان صحته ساءت على الايام ، وشعر بالعدة تثقل وطأتها
على صدره ، اما الطبيب فوقع على معرفة الداء وقال ان المقام

في استانبول لا يوافقها ، لأن هواءها الرطب اذى بمرضه ويضنيه ، فكان حتما عليه ان يزابلها ، ومضى رضا خان الى تفليس ليعيش في كنف قاضيهما ، وكانت هذه السفرة بشير خير و فاتحة عهد جديد سعيد ، فقد داوم على التحصيل حتى ظفر باجازة علمية عالية وتأتى له ان يتقن الروسية والالمانية والانجليزية ، وبسم السعد له ، فاتفق ان مر الشاه ناصر الدين بمدينة تفليس في رحلة له الى اوربا ، وطلب مترجما فتقدم اليه رضا خان ، واعجب الشاه به ورضى عنه ، وبلغ من اعجابه ورضاه ان يمنحه وساما رفيعا . وبذلك دخل في خدمه الدولة ، واقبلت عليه الدنيا بعد طول انصرافها عنه .

ولبت ثلاثين عاما يتقلب في اعلى المناصب ، فسفر لبلاده في روسيا وتركيا ، كما استندت اليه وزارة العدل في ايران ، وكان لطول اقامته في اوربا ، وثيق الصلات بملوكها وحكامها واهل الرأي والفضل فيها ، كما كان لرفعة منصبه مرموق المسكنة جليل المنزلة ، ولم تجرد ايران من يفضله لينوب عنها في مؤتمر الصلح ببلدها ، فأوفدته عام ١٨٩٩ م . وظل في منصبه هذا سبع سنين ، كما نال لقب دامير .

وعرف الرجل بنبيله الى السلام والمناذاة بالاخوة الانسانية .
وعما رفع ذكره واطار اسمه في الخافقين ، منظومة له بالفارسية
سماها وصدى السلام ، وقال فيها ان ارض الله وطن الناس جميعا
فعلينهم ان يعيشوا فيها كما يعيش الاخوة المنحايين المتواصلين .
وقد ترجمت هذه المنظومة الى خمس عشرة لغة وقدمت الى الملوك
والحكام ورجال الدين في ارجاء الدنيا ، غير ان تقديمها الى
الامير البير الاول حاكم موناكو ، اعقب مالم يعقبه تقديمها الى
غيره ، وما ذلك الا لان هذا الامير لما اطلع على المنظومة ،
اراد التعبير لصاحبها عن شكره وتقديره ، فاختره عضوا في
جماعة عالمية للسلام جعل مقرها في موناكو .

ومنذئذ اتصلت الاسباب بين الامير والشاعر ، واصكن
كل منهما لصاحبه وداخلا يصوم على اتفاق الرأي ووحدة
المشرب ، كما نالت المكتبات بين رضا خان واصفيائه من
أعضاء الجماعة ، فحببوا اليه ان يزور بلدتهم بعد ان افاضوا في
وصف جاهلها وخلافة جوها . وكان الرجل مريضا بداء الملوك
فقسام في نفسه ان يقتجع العافية ويسكن بلدا هو أشبه شيء
بالروضة الباسمة في هذه الدنيا العبرس ، بيد انه قلب رأيه وخاطب

نفسه : وذكر الغربية الطويلة التي لالتلوها اوبة ، وذلك الحنين الذي يهفو بقلبه الى ايران ، واحس الشوق وهو يلج به الى الامل والخللان ، فزهد في هذه الجنة ورغب عنها ، ونازعته نفسه الى داره الحبيبة .

وكان رضا خان عنيفا في وطنيته فخورا بايرانيته ، فذكر ان موناكو كانت في سالف الدهر من ممتلكات ايران ، واستفسر التاريخ فعرف ان ملك الفرس قورش اقتطع موناكو وادخلها في حوزته ، فاصبحت جزءا من ممتلكات الدولة الفارسية ، وقد تم له ذلك بعد ان غلب على فينيقيا سنة ٥٣٨ قبل الميلاد ، كما ان الملك دارا حارب اليونان وعبر البوسفور ثم غزا تراقيا واوغل فيها ، وفي عودته من اوربا الى وطنه ايران شاهد السفن اليونانية والفينيقية التي عبر البحر عليها ، واصدر الامر الى بعضها فاقلعت جاعلة وجهتها تلك البلاد التي ضمها قورش من قبل الى مملكته ، وانما كان ارب دارا من ذلك ان يعلن على الملأ نصره ويباهى بمجده . وما ذكر رضا خان هذه الحقائق حتى شعر بالفرحة تملأ قلبه ، وصح منه العزم على الإقامة في بلد كان ملكا له في سوايف الايام قلن يكون غريبا ولا دخيلا .

هكذا تمثلت موناكو في خيال رضا خان ، فكتب الى من
ابتاع له ارضا في اجمل موقع ، وابتنى قصرا على طراز داره في
تبريز . وقد جرى بذلك على عادة الفرس الذين كانوا مولعين
برفع البنیان في كل ارض حلوا بها تخليدا لذكراهم . وابقاء لاسمهم
على وجه الزمان .

ومضى الى موناكو لسكنى ذلك القصر الذى كأنما انبثق على
الشاطئ الاوربي من حلم شاعر فارسي .

وكان القصر آية من آيات الفن الشرقى ، جميل الزخارف
بديع النقوش ، يعرج عليه الجوابون وقد استوقفهم بمنظره الذى
لا عهد لهم بمثله الا فى اساطير الشرق واخيلة الشعراء . وقد جمع
فيه صائبه من الرياش والتحف كل نادر وجميل ، فمن طنافس
ايرانية ، واوعية خزفية ، الى دمي من مرمر وريات لها بهاء نجوم
السماء ، وفى القصر كان رضا خان يستزير عليه القوم وفى طليعتهم
امير موناكو ، فيدور الحديث على النفائس والتحف ، وايران
ومن انجبت من ادباء وشعراء . ويسأل رضا خان فيجيب اجابة
الحجة الثبت والوطنى الغيور . ولم يفته ان يقيم على سطح القصر
تمثالين احدهما لقورش والاخر لدارا ، احياء لذكرى هذين

المملكين اللذين ملسا هذه الناحية في الماضي السحيق .

تلك هي حياة الرجل العامة والخاصة ، اما حياته الأدبية ،
فانه عالم وشاعر ، والذي نراه منصفين لامفترين ، هو ان شعره
ينحط كثيرا عن رتبة المجيدين ، فنظومته (صدي السلام) طريفة
في موضوعها وهذا سر شهرتها وسيرورتها ، غير انها قليلة القيمة
الفنية او عديمتها ، فلا تكاد تقف منها على بيت يعجبك أو معنى
يطربك ، ومن احسن ما فيها قوله : « مثل ابناء آدم في الدنيا
كمثل الازهار في الروضة والاغصان في الدوحة . فبالله ما علة
هذا القتال والنزال . وما تلك الاغارات وقتل النفس اليوم
وبالأمس ، انه لدماء غيام حرى بنا ان نعرفه ، ونبحث عن طبابه
لنبرأ منه . الجهالة والاثرة منذ القديم ، هي السبب لسفك الدماء
والشر العظيم . وما دام لهذه الصفات وجود ، فالسلام بيننا ان
يعود . الافريقى والاوربى والصينى ابناء وطن ، وهذه الارض
لهم سكن . لقد خلقنا الرحمن من العدم ، فجعل العقل هاديا
للأمم . كلنا لأب واحد ومن أم واحدة ، وان الاخوة لتجتمع
بين الرومى منا والصينى ا »

فهذه الدعوة الانسانية لا يمكن ان تعاب ، غير ان ضعف

صياغتها قد افسد كثيرا من جمالها . وله منظومة اخرى من مائتي
بيت بعنوان (عمر الانسان الطبيعي) وقد نظمها ايام كونه سفيرا
باستانبول ، ويقول فيها حمله على نظمها انه كان يستقبل اعضاء
الجمالية الايرانية في تركيا فيشاهد ان معظمهم شيوخ رقق عظمهم
ووهت منهم ، يشكون المشيب ويترحمون على الشباب ، والذي
يراه هو ان عمر الانسان لا ينبغي ان يقل عن مائة وخمسة
وعشرين عاما ، ولذلك فقد قرض هذه المنظومة لذكر السبب
في طول العمر وقصره . ومن قوله : « اجعل الاعتدال رائدك
وشعارا لمسلكك ، وان بجانبه في كل حال ، تجر على بدنك
الضنى والوبال ، اصنع ما بدا لك في نهارك ، اما الليل فليكن
لنومك واستجمامك ، لا ترهق البدن في شبابك . فتعدم بذلك
عافيتك ، واعلم ان عمرك ينقص بشيئين ، هما الغم وسوء الطبع
واذا ما كنت حميد الطباع عف اللسان ، فحذا انت من سعيد
وحذا شبابك من شباب ا ،

فهذا كلام يخلو من الشاعرية خلوا تاما ، وهو نظم لا ماء
فيه ولا رواء ، ومن اعجب العجب ان يقدم رضا خان هذه
المنظومة الى الشاه ناصر الدين فيوقع الشاه بقوله : « ان اشعار

الامير ارفع الدولة غاية في الجودة ، ولقد لقي العناء في
نظمها . ، وهي على ما اسلفنا من وصفها مشهورة في تركيا ويران
وقد ترجمت الى التركية والفرنسية ، كما اتخذت موضوعا لمسابقة
ادبية في ايران .

والذي نراه تعليلا لاستحسان هذا الشعر الخالي من الحسن
هو شخصية صاحبه وسمو رتبته ، فقد كان الرجل سفيرا ووزيرا
واميرا ، ويا طالما قال الفرس والترك (كلام المملوك ملوك
الكلام) .

مولد النبى في الشعر التركى

الادب التركى القديم ادب اسلامى بكل ما يؤديه هذا اللفظ من معنى ، فهو فى معظمه شعر روحانى فاضت به قلوب الصوفية فكان مرآة مجلوة للنفس الانسانية إذا سمت وصفت وامتزجت فيها التقوى بالعاطفة ، فتولد من هذا الامتزاج ذلك الحب الالهى الذى جرت مدامعه بحرا . وترددت زفراته وخفقاته وزنا وقافية . وكأن منشد شعره صيدح يش فى قفصه الارضى ويحن الى وكره العلوى . والنبى الكريم عند الصوفية بأعظم منزلة وارفعها ، لانه فضلا عن كونه نبى الاسلام ، فهو صلى الله عليه وسلم أول من تصوف فوصل ، وعشق الذات الالهية العلية فكان اكرم عشاقها . ولا يعزبن عن البال ان الترك اهل تسنن فحب النبى عندهم فوق كل حب ومقامه فوق كل مقام . وإذا ما نظرنا فى دواوين الشعر التركى فقلنا نجد احدها غفلا من

ديباجة شعرية يمدح النبي بها مدحا عاطفيا صوفيا جميلا تهتز منه
القلوب المؤمنة وتطرب له النفوس الشاعرة . غير أن الشعر
التركي متميز كذلك بما يعرف بمولد النبي ، وهو نوع من المدائح
النبوية التي ابتدعها الصوفية . وقد عرفت كلمة (مولد) منذ عهد
بعيد واطلقت بمعنى تاريخ ، وللواقدي كتاب بعنوان مولد
الحسن والحسين . وقد زعموا انه صلى الله عليه وسلم اوصى في
حياته بأن يحتفل المسلمون بمولده بعد مماته .

ونحن هنا انما نريد لنعرض للمولد بالمعنى الذي جرى به
على لسان شعراء الترك ، وما أكثر من نظم الموالد منهم ، غير
ان اولهم واشهرهم هو سليمان شلبي الذي عاش في القرن الرابع
عشر الميلادي على عهد السلطان اورخان ، ثاني سلاطين آل عثمان
ولا يعرف من سيرة هذا الشاعر الا النزر اليسير ، فقد سكنت
المؤرخون عن ذكر عام مولده ووفاته ، وكل ما يؤثر عنه انه
من اهل مدينة بروسه تلك المدينة التي جعلها السلطان اورخان
عاصمة ملكه ، وظلت عاصمة للترك حتى فتح القسطنطينية سنة
١٤٥٣ ميلادية . وكان من مشايخ الصوفية واماما في أحد المساجد
واشهر من سيرته منظومته التي تعرف عند الترك بوسيلة النجاة

او مولد سليمان شلبي ، وهي طويلة في نحو من ستمائة بيت . اما
 الباعث له على نظمها ، فيقال عنه ان الشاعر كان يستمع لأحد
 الواعظ ذات يوم فكان من كلام الواعظ ان قال انه لا يفضل
 محمداً على غيره من الرسل ، وهو على حجة من قوله تعالى في سورة
 البقرة : « لا نفرق بين أحد من رسله » ، واتفق ان كان بين
 الحضور عربي من اهل الشام فساءه ذلك كثيرا واثار حفيظته ،
 فردده وصاح على الواعظ وهو يقول : « ايها الجاهل ، لا علم
 لك بالتفسير ، وقد ذهلت عن المتشابه والناسخ والمنسوخ ، فان
 المعنى المقصود انما هو عدم التفرقة بين الرسل في امر الرسالة
 والنبوة لا في مراتب الفضل . واذا ما صح هذا التفسير فكيف
 تفسر قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ،
 ورجع العربي الى بلده مغضبا ، وهناك استفتى في قتل هذا الواعظ
 ثم رحل اليه وقتله . فتأثر لذلك سليمان شلبي ابلغ التأثر واهتزت
 نفسه في اعماقها فما وسعه إلا الترنم بهذا المولد ، لما في ذلك
 من شفاء لما احس به من لوعة الوجد ، وتنفيس عن شدة الاسى
 ويلوح ان قصة الواعظ مع العربي من نسج الخيال . وايا ما كان
 فقد تبوأ سليمان شلبي بهذا المولد منزلة موقفة في تاريخ الشعر

التركي ، فهو يعتبر اول شاعر عثماني اطلق نفسه على سجيتهما
وقال شعرا فيض الخاطر ، ولم يردد من المعاني ما اطلال ترديده
اسلافه الشعراء . ومن قوله في مولده : « هذا القادم للعلوم
اللدنية سلطان ، هذا القادم كنز توحيد وعرفان ، هذا القادم
تدور الافلاك بمحبته ، ويشتااق الملائكة والانام الى طلعتة ،
وتقول آمنة لما حان الوقت لمقدم خير البرية الى هذا الوجود ،
لقد مسنى حر الظمأ ، فاسقوني قدحا مترعا يبرود يفوق الثلج
في نصاعة البياض ، والسكر في حلاوة المذاق ، فالوداع ياروح
الروح الوداع ، الوداع يا بلبل روض الجمال ، الوداع يا حبيب
ذى الجلال ، مهما امتد عمر الانسان فالموت لا شك مدركه ،
آه من الموت آه من الموت . الامير والحقير عنده بمنزلة سواء .
لقد رحبت بمقدمك ذرات هذا العالم وهي تقول : مرحبا بك
ايتها الشمس المشرقة مرحبا ، مرحبا بك ياروح الارواح مرحبا
مرحبا بك يا شمس العاشقين مرحبا . مرحبا بك يا بدر الصادقين
مرحبا ، مرحبا بك ايها انجب الصافي مرحبا . مرحبا بك يا رحمة
للعالمين مرحبا ، مرحبا بك يا شفيع المذنبين مرحبا ، مرحبا بك
يا دليل الانبياء مرحبا ، مرحبا بك يا سيد الاصفياء مرحبا ،

انت الدواء لدام القلوب ، والآخذ بيد كل عاجز مكروب ،
 واذا ما نظرنا فيه نظرة اهل عصره ، راعتنا منه جمل
 مستوية النسق ، وكلمات متراصفة ، وسهولة مجراه على اللسان ،
 الى ما فيه من رقة نسج واتقاء عاطفة ، اما تكرار المقاطع فانه
 لا شك يكسبه الصلاحية للترنم والتغنى ، وان النزعة الصوفية
 لا تظهر فيه الا بعض الظهور لتضفى على حب المصطفى روحانية
 ونورا فوق نور ، وما ابعد البون بين هذا الشعر ، والشعر
 التركي المعاصر له في ذلك العهد القديم ، فقد كان تعليميا جافا ،
 وصوفيا رمزيا مبهما ، تضل الافهام في وعورة الفاظه ومتاهات
 معانيه . فلا جرم كانت لهذا المولد عند الترك سيرة عظيمة ،
 ولا ادل على ذلك من ان المتقين منهم قد جرت عاداتهم بالاجتماع
 بالمساجد والمنازل في شهرى ربيع الاول والثانى للاستماع الى
 من ينشده بصوت العندليب ، فيقع الخشوع في الارواح ،
 وتسرى هزة الطرب في الابدان ، ثم يترحمون على سليمان شلى
 قارئ الفاتحة اروحه في عليين ، وهم على عاداتهم هذه منذ ستائة
 سنة . وقد قلده هذا المولد كثير من الشعراء ، وفي ذلك يقول
 مؤرخ تركى قديم من مؤرخى الادب ياعى لطيفى افندى

« لقد رأيت من هذه الموالد مائة مولد ، واجلت نظري في كل
منها ، فلم اجد ما وجدت في مولد سليمان شابي من جمال اللفظ
ورقة المعنى واضطرام العاطفة ، فمولده اعلى المولد رتبة واوسعها
شهرة . . »

وهذا دليل على ان الشعراء جهودوا ان يأتوا بمثله فكلت عن
ذلك قرائحهم ، و ارادوا ليدركوا شأو الشاعر فلم يشقوا غباره .
غير أنه من خطال الرأي في نظرنا ، ان نعتبر المجيد مجيدا
والمبرز مبرزاً دون ذكر لمن يتلوه في رتبته ، لعقد الموازنة بين
الفاضل والمفضول ، وإثبات ما يمكن ان يكون من تخالف
وتقارب واتفاق ، ولن يعرف الحسن من الرديء إلا بالاضافة
والمقايسة .

فترى حتما من الحتم ان نذكر الشاعر حمدي ومولده ، لان
اجماع المؤرخين منعقد على ان مولد حمدي هو المولد الوحيد
الذي يتلو في الجودة مولد سليمان شابي . وحمدي شاعر صوفي
عاش في عهد السلطان بايزيد الثاني ومات سنة ١٥٠٨ ميلادية .

وليس هذا الشاعر مدينا بشهرته الادبية لهذا المولد ، فقد
اشتهر بمنظومة له تسمى يوسف وزليخا ترجمها عن الفارسية إلى
التركية ، واختارها بالذات لانه كان مجفوا من اخوته كما كان
يوسف الصديق ، فاجاد الترجمة و اضاف اليها من عندياته ،
وصدق في شعوره وهو يتجرع من تلك الكأس المريرة التي تجرع
منها يوسف في الزمان الاول ، كما ان لحمدى منظومة اخرى هي
قصة ليلى والمجنون التي ترجمها كذلك نظما عن الفارسية فكان
لذلك محسنا متقنا . اما مولده فلا يعادل في شهرته منظومتيه
المذكورتين ، وانا لنجد فارقا واضحا بين مولد حمدى ومولد
سليمان شلبي ، فحمدى يضمن منظومته غزليات ، وهذا ما لم
تجربه عادة الشعراء على عهد سليمان شلبي ، ومن قوله : « وانطلق
يوما رحمة العالمين إلى حراء للتعبد والتجبد ، وهناك بغته ان
يظهر الحق له ، لانه رأى روح القدس عيانا ، فقال للحبيب
بعد ان حيا ، انا جبريل بانبي الدنيا ، فقومك يأمرؤن بالمعرف
وعن المنكر ينهون ، ويحفظون القرآن عن ظهر قلوبهم ، وتلك
نعمة لا يشركهم فيها غيرهم . »

والفرق جلى بين المولدين ، فحمدى فطر العاطفة يسرد

الحقائق مجردة من وشى الصناعة وزخرف الفن ، والمستمع
اليه تدركه سامة ونعسة بعد اذ عدم مايشوقه ويروقه ، وكلامه
مجرد قول مفيد ، وقد تتطلع النفوس من الشعراء إلى
قول لا يفيد ، ولكنه يفعمها بالانغام والاحلام كما كان من
صنيع سليمان شابي في مولده ، احسن الله جزاءه عليه



من قصيدة للشاعر الفارسي فرهنك ، قالها وصفا
لباريس عام ١٣٠٤ هجرية ، وهي متميزة بالجدة
والطرافة اذا اعتبرنا زمانها الذي قيلت فيه . كما انها
تعبير شرقي عن مشاهداته للغرب منذ اكثر من نصف
قرن ، ورأى ايراني في نظم الحكم وتقاليد المجتمع
عند الفرنسيين .

هلم ، وشاهد بعين تكشف الاسرار ، فيباريس انوار
على انوار . ولتفتح ناظريك لترى من حولك ما قد خفي عليك .
لقد اظهر الحق تعالى القوم على سر الحر ومعنى الحرية ، فكلامهم

سادة نجب تعدم فيهم نضو الذل والعبودية ، شبابهم وشبابهم ،
 نساؤهم ورجالهم ، كأنهم ملوك زمانهم ، فكل منهم له سورة وصوله ،
 عريض الثراء رفيع السناء . لا يأخذ البصر فيهم متعطلا ولا متبطلا
 فانهم جميعا اهل جدو عمل ، ومنهم ذو الرياسة وصاحب السيادة ،
 والمتوفر على اداء مهمته ، والمشغول بما يشغله . انها مدينة لها
 من جنة الخلد زينتها وبهاؤها ، وروضة لها من رياض الربيع
 بهجتها ورواؤها . ليلها اشبه شئ بنهارها ، لكثرة المشاعل وتوهج
 نورها ، انظر الى الحسان يخطرن سربا بعد سرب ، والوجوه
 صباح كأنها اقمار ، والحدود ملاح كأنها ازهار . يا لطرفاتها ،
 كأنى بها حديقة إرم افقد تناوح الدوح فى جنباتها ، وصفف
 الكثير من المقاعد فى ارجائها . هذه العربات تحمل الخرد الغيد ،
 وتلك بهائم اهل الصبابة والهوى ، لله ما أجمل مشيتها ، وما
 اشبه من فيها بالخوراء فى حجبتها ، يا كثر ما تمضى مركبات الترام
 بها ، وتصل بين البعيد من اطرافها ، كأنها مقاصير فى قصور
 الجنة ، ينقلها الناقلون من يسرة الى يمنة . الورد والنسرين اينما
 توجهت ، والروض والياسمين حيثما نظرت . انها باريس ، نفع
 فيها طيب الازهار ، فكأنها وعاء عطر العطار . لا تصدق ما وصف

لك واقص عليك ، حتى تقدم وتشاهد بعينيك . لا تقوم شعار
هو الصدق ، فهم صادقون في الاقوال ، مخلصون في الاعمال ،
وهم لذلك ملتزمون في اسواقهم وبيعتهم وشرائهم ، ان تسمع هجرا
ولا هرام ، اللطف والظرف من شيم النفوس عندهم ، وان
احدكم ليؤثر اخاه ولا يؤثر عليه ، الناس هناك طرا على دين
عيسى ، وفي ارجاء البلاد آثار على ذلك تدل وتشهد ، كلهم
روحانيون ومسيحيون ولهم بدينهم دراية وسعة احاطة . ففي
الكنيسة رأيت القس يرتل ويقتل . وهذا يجعل الطليسان
دثاره ، وذلك يجعل في وسطه زناره .

وفي (نوتردام) شاهدت معتكفا للتعبد ، وقد نقش صورة
على لوحة ، ورسم لعيسى رسما امامه . فهناك ركعته وسجدته ،
وهذا الجدار قبلته ، انهم من دينهم في نعمة مجبرون ، وصادقون
مخلصون . في نفوسهم طهر وفي طباعهم صفاء ، ولهم من حميد
الخصال ما كان لنبيهم ، انهم لعمالهم متقنون ، وهم مختارون له
لا مجبرون عليه ، رأيهم واحد في المشورة ، وبعضهم لبعض
يبدل المعونة ، لهم عقل وتفكير ، وعلم وحكمة وتدير . وليكني
اريد ان اسر اليك شيئا فصدقه ، على الرغم من سعة علمهم ودقة

فهمهم ، فالطب عندهم اضاليل واكاذيب ، فلا شفاه عندهم من
الادواء ! وهم جميعا ملوك وسلاطين ، فليس لديهم ملك ولا
سلطان . بلادهم لا يحكمها حاكم ، وجيشهم لا يقوده قائد ، غير
ان جمعا من الحكماء والعقلاء يجتمعون في قصر من القصور ،
وهناك ينعقد المجلس للناطقين بلسان واحد مبين ، فتتفرق بهم
شجون الكلام ، ويتشاورون فيما حزب من الأمور والمهام .
ولهم مجلس من سبعائة . كلهم عالم كبير الفطنة ، وهم متفقون في
الاقوال والاعمال ، واسم هذا الجمع وذاك المجلس الجمهورية ،
فدار الحكم في فرنسا على الجمهور ، ولم يقر فيها أحد بحكم السلطان ،
بعد لويس فيليب و نابليون . فمن كل فرد سلطان على الدولة
يسوسها ويدبر شؤونها ، ولا خوف عليه ولا بأس ، فقد حل
العلم له كل مشكلة ، وذال امامه كل عقبة ، وإذا قال احدهم
قولا فلن يجد مكذبا ولا مفندا ، ولا مكابرا ولا معاندا .

خيال الظل عند الترك

إذا قلنا إن ما يعرف بخيال الظل أو خيال الستارة هو في واقع الأمر مسرح الترك القديم ، فقد جلونا الفكرة وقربنا الصورة ، وإذا ذكرنا ما كان من شديد ولوعهم به وانصرافهم اليه على تباين طبقاتهم ، حق لنا أن نسرد قصته عندهم ، ونحن بذلك انمسا نؤرخ الفن التمثيلي لديهم ولدى كثير من الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية التي اخذته عنهم ، كما نصور جانباً من حياتهم ونتفهم روح المجتمع في لهوه البريء وهو يتخذ من الرسوم والتصاوير أداة رمز وتعبير .

ومن الحقائق التاريخية التي انعقد الاجماع على قبولها ، ان الترك في آسيا الشرقية عرفوا خيال الظل عن الصين . والصين كما هو معلوم اهل حذق وصناعة ، وما يعزى اليهم انهم اول من اتخذ الورق وابدع في الرسم والنقش . فكانوا يرسمون على قماش

او ورق او ما اشبه ذلك . كهيئة الانسان والحيوان ، فاذا اتموا
الرسم حصلوا بذلك على ستار يزدان بعجيب الصور ، فاثبتوه فيما
يشبه مصباحا كبيرا ، وحرصوا ان يحيط به من كل ناحية في شكل
مستدير ، ثم يضعون في وسط المصباح من الداخل شموعا كثيرة
فاذا اوقدت وسطع نورها في الظلام بدا امامها كل ما في الستار
من نقوش وتهاويل ، كأنها أشباح واضحة الحدود والشكل .
ويدار المصباح حول نفسه فيدور الستار امام الرائي وتتعاقب
صوره . وقد ضرب الترك المثل بدورانه فقالوا : يدور كما يدور
مصباح الخيال .

وكان الفرس اول من اخذ خيال الظل عن الترك وقد جرى
ذكره كثيرا على السنة شعرا ثم فيقول عمر الخيام في احدي
رباعياته : يا لهذا الفلك الدوار الذي يدور بنا ا كأنى به فانوس
الخيال ، فالشمس مبعث الضوء وهذا الكون مصباح ، اما نحن
فصور واشباح في غدو ورواح . ، كما قال فريد الدين العطار
وهو من شعراء الصوفية عند الفرس : « كان رجل زكى صاحب
ستارة ، وكان عظيما في علمه منقطع القرين في فنه ، يحسن النقش
على الستار ، ويجد الرزق اينما سار ، وهو على الدوام يلعب ،

ويخاق من الالوان صورا تعجب ، فكان اذا ابلى الزمان نقشا
له ، اسرع فاستبدل به غيره . وصوره يختلف بعضها عن بعضها
شكلا ولونا ، اما العابد فيعرضها في سبع ستائر ، برقشها وزينها ،
ويؤخذ من هذا الشعر ان اللعب بخيال الظل كان صناعة
لغجر الترك يستدرون بها الرزق ضارين في الآفاق ، فمضوا
بحرفتهم هذه الى مصر . وفي القرن الثالث عشر الميلادي تغزل
شاعر مصري في حسناء تلعب بالخيال فقال :

ارتنا خيال الظل والستر دونها
فأبدت خيال الشمس خلف غمام
تلاعب للاشخاص من خلف سترها

كما لعبت افعالها بأنام
ويقول ابن اياس ان السلطان جقمق امر باحراق شخص
خيال الظل ، وان السلطان الملك الناصر كان يطيب له استدعاء
من يدعى أبا الخير ليشاهد منه العابد خيال الظل . وفي عام ١٥١٧
فتح السلطان سليم الاول مصر ، غير ان الامور لم تستقم له إلا
بعد قتل طومان باي آخر المماليك الشراكسة ، فلما قتله وبات
آمن السرب ناعم البال في قصره بالروضة ، شاقه ان يذكر نصره

المبين ، فوجد مقتل طومان باى احسن ما يذكرك به ، وما كان منه الا ان استحضر احد اللاعبين المهرة بخيال الظل ، وماتل في حضرته حتى طلب أن يشاهد على ستارته كيف شفق طومان باى على باب زويلة ثم صلب بعد ان انقطع الحبل به مرتين ، قيل وتال السلطان اربه ، وشاهد ما أحب أن يشاهد ، فسر كثيرا وأعجب باللاعب اعجابا لا مزيد عليه ، ووصله بمال جزيل وخلعة ، ثم شرط ان يكون هذا اللاعب معه في عودته الى استانبول ، ليطلع منه الامير سليمان على ما يهجه ويهجه . وقفل السلطان الى وطنه فصحب معه ستمائة من اللاعبين بخيال الظل فيما يقال ، وقد خير هؤلاء اللاعبين بين البقاء والعودة في عهد السلطان سليمان القانونى .

وهذا واضح الدلالة على ان الاتراك العثمانيين عرفوا خيال الظل عن المصريين الذين كانوا قد تلقنوا فنونه من الاتراك الشرقيين غير العثمانيين . وقد اقبل الترك على خيال الظل اقبالا عظيما ، وراقهم كثيرا ان يشاهدوه ، فكانت تعرض عليهم ألعابه في المنتديات والمشارب ، كما جرت العادة باستعراضه في ليالى رمضان خاصة ، تلك الليالى التى يتبسط الناس فيها ويطلبون

مايسرهم بعد يوم جوعان عطشان ، فكان ذلك دأبهم في المدن والقرى ، ولم تكن مشاهدته مقصورة على الصغار دون الكبار ولا على سواد الناس وحدهم دون اوساطهم وصفوتهم ، فقلبا كانت تغلو منه قصور العظماء في حفلات الزواج والختان ، وقد قدم على كل الملامى في قصور السلاطين ، فيروى عن السلطان مراد الثالث انه اقام حفلة عظيمة يوم ختان ولده ، وكان خيال الظل فيها موضع اعجاب الحضور ومجلبة لهجة النفوس ، وقد حظى أصحاب الخيال عند السلاطين واكرموا اعظم اكرام ، فقد ذكر الرحالة التركي اوليا شلبي لاعبا بالخيال يدعى حسن زاده ، فقال انه كان يلعب بالخيال مرتين في كل اسبوع ليدخل المسرة على السلطان مراد الرابع الذى كان يصطنفيه ويرفع منزلته ، لحذقه العربية والفارسية ولطف نظره في فن الموسيقى . وما يروى عن السلطان ابراهيم انه كان متهاكاً على اللذات وماحباً لحو وطرب ، يقرب الندماء ويتسخى على كل من همز نفسه اعجاباً واطراباً . وقد أراد مرة ان يكافئ احد اللاعبين بالخيال ، فاستداليه منصبا رفيعا يغبطه عليه عظماء الدولة . وفي عام ١٦٥٢ زار تركيا سائح فرنسي ، وكان العهد عهد السلطان محمد الرابع ، فقال ان معظم

من يلعبون بالخيال من اليهود . ووصف سائح آخر العاب
الخيال عند الترك وهو يتحدث عن الاحتفال بختان ولى العهد
الامير مصطفى ، فكان من حديثه ان قال : « ولما اقبل الليل ،
عرض خيال الظل ، فشاهده السلطان ومعه وزراءه من
سرا دقهم . »

وكان هؤلاء اللاعبين عند الناس قدر ومنزلة ، وقد كتب
على قبر احدهم هذا البيت الذى يتضمن معنى صوفيا جميلا
وهو : « ان الستار حبة وهبها الله للفنان ، ليظهر عليه مخلوقات
الرحمن . ويجعل المظهر وسيلة الى معرفة المخبر . »

اما المعانى التى طرقها اللاعبون بخيال الظل ، ورمزوا اليها
باخيلتهم وصورهم ، فانها تشبه كثيرا ما طرقة شعراء الترك على
توالى عصور الادب التركى ، فقد كان الشعر صوفيا وقصصيا
فى بدايه تأسيس الدولة العثمانية ، ثم ظهرت فيه الذاتية بعد فتح
القسطنطينية وثبات دعائم الدولة واتساع رقعتها ، وكذلك كانت
الاعيب الخيال تدور على المعانى الصوفية . وتمثل قصص العشاق
كقصة خسرو وشيرين وطاهر وزهرة ، ثم تقدم الزمن فكان
خيال الظل نقدا للمجتمع وتبصيرا بالمحاسن والمساوى .

وفي القرن السابع عشر تطور عن خيال الظل ما يعرف
بقره كوز ، وهو يفترق عن الخيال بأن الشخوص فيه دمي تحرك
من خلف ستار ، ويقال ان اول من ابتدعه درويش قدم من
إيران في عهد السلطان اورخان المتوفى سنة ١٣٥٩ ميلادية ،
واسمه الشيخ كشتري المدفون في مدينة بروسه . ومعنى قره كوز
في التركية (اسود العين) وتلك صفة العجور ، واليه تنسب اللعبة
لأنه الشخصية الرئيسية فيها التي تتلوها شخصية حاجي واد . ومن
مألوف العادة ان تبدأ التمثيلية على النحو الآتي : يلتقي القره كوز
وحاجي واد ، يأخذان باطراف الحديث بينهما ويتم اتفاقهما
على القيام بعمل رابح ، فيبدو القره كوز شديد الجهل بعيد الفهم
ولا غرو فهو عجري اسود العينين لاحظ له من معرفة ولا
عهد له بحياة العمل في المدينة ، ويظهر معهما أشخاص من جميع
الاجناس كاليهود والارمن واليونان ، وهم يتكلمون التركية بلهجة
تثير ضحك المشاهدين والمستمعين . وقد يدور التمثيل على قصة
من قصص القره كوز كقصة البيارستان والزورق والكاتب .
اما لغة القره كوز فقد تسمو وتبلغ في سموها لغة الحريري
والبديع ورموز الصوفية ، وقد تسف فتنحط الى عبارة السوق

وهراء العجائز . ومن المستطرف ان يغنى حاجي واد قبل بدء
التمثيل ، وغناؤه بالعربية والفارسية ، اى بلغتين اسلاميتين كانتا
عند الترك قديما مصدر العلم ورفيع الثقافة . فيتغنى بقول القائل
احسن شوقا الى ديار

لقيت فيها جمال سلى

يا لا يالا آه ، يللى واى

لقيت فيها جمال سلى

ثم يقول بالفارسية : « منذا فى هذه الارض البعيدة ، يزف
الى البشرى بوصل حبيبي يالا يالا آه ، يللى واى ، يزف الى
البشرى بوصل حبيبي . »

وكان تمثيل القره كوز عند الترك اداة طيبة للتعبير يتخذونها فى
بعض الاحايين ، فإذا ارادوا ان يوقفوا السلطان على أمر من الأمور
ولم يجدوا فى انفسهم جسارة للتصريح به ، أو كان لهم حاجة عند
عظيم من العظماء ، وشاءوا ان يلطفوا فى المسألة ، وكلاوا الى
القره كوز ان يتحدث بلسانهم ويعرض مطالبهم بدقيق التلميح ،
ومليح الكناية والاشارة . ومنذ مائة عام أو اقل ، استزارت كريمة
محمد على باشا الكبير عقيلة الصدر الأعظم فى تركيا ، وشاهدت

الواثقة التركية تمثيلات القره كوز في قصر الاميرة المصرية ، فعرفت
كثيرا من عاداتها ، لأن التمثيل كان مصورا لبيئتها ، وكان
القره كوز متحدثا عنها وعن حاشيتها .

وقد عرف اليونان واهل رومانيا خيال الظل والقره كوز
عن الترك ، فراجت هذه الالاعيب عندهم في طبقات الشعب على
الخصوص ، وانها لمصدر من مصادر الادب الشعبي ، في دراسته
المستفيضة خير كثير .

طيور في شعر الفرس

إذا تصورنا الطير مذكورة في الشعر ، فالسابق إلى الفهم انها لسان الطبيعة ينطق عنها ، وصوتها المترنم ، تموج نبراته في نفوس الشعراء نجوى لها يهتزون ومنها يطربون . وما دام هذا شأنها معهم ساغ لنا ان نقول ان ذكرها يجرى على لسان الشاعر كلما تملى حسن الطبيعة فانتشى وغنى . غير ان شعراء من الفرس يخرجون عن هذا المألوف ، لان ذكرهم لها ليس قاصرا على شعر الطبيعة ، وانما يتعداه إلى فنون اخرى واغراض على حدة كان تناولهم اياها غير مأنهه عند العرب مثلا .

وإذا ما تتبعنا صنيعهم هذا منذ اقدم العصور ، وجدنا في تاريخ الفرس الخرافي بطلا يقال له دسام بن زيمان ، كان يبتهل

إلى ربه سائلا ان يرزقه ولدا يشد ازره وتقر به عينه ، واشتملت
منه جاريتها على حمل ، ففرح واستبشر ، بيد ان الهموم عصفت
بقلبه يوم ولد له ، لأن الوليد كان ابيض الشعر ، كأنه شيخ
علته الكبيرة ، فلما رآه على هذه الهيئة استقبحة واقتحمته عينه ،
وامر به فاخرج إلى الجبل ، واصعد به حيث ترك وحيدا .

وقد ذكر الفردوسي هذه القصة في شاهنامه ، ومن قوله :
وكان على رأس الجبل معشش العنقاء ، وكانت تطير في طلب
الرزق لأفراخها ، ورأت الصبي في مثل ذلك الموضع ، فألقى
الله محبة منه في قلبها ، وررفت عليه بجناحيها ثم حملته وحلقت
به ووضعت بين أفراخها ، فكانت تربيته مع اولادها حتى طالت
عليه المدة ، وترعرع بين اولاد العنقاء . وكانت القوافل تعبر
تحت ذلك الجبل فوقعت ابصارهم على مولود انسى بين أفراخ
العنقاء ، فقضوا العجب من ذلك وتحدثوا به .

وفي اساطير الفرس كذلك طائر يقال له «هما» ، إذا وقع
ظله على رأس انسان صار ملكا ، فاشتقت من اسمه كلمة «همايون»
وهي في الفارسية بمعنى ملائكة او مسعود ، وقد جرى لهذا الطائر
ذكر في الشعر ، ونسب اليه السعد واليمن كما في قول هذا الشاعر

المдах : « هو ذا المالك المظفر المنصور ، والسيد الاريب ذو
الرأى المصيب ، لقد اولى الوليمة العظيمة فى قصره الجديد العتيد ،
وكان اليوم يوم السعد الاكبر والظالع الميمون ، الحظ موات
والنجوم فى اسعد بروجها ، أما الفأل فمنسوب إلى هما . »

والئن اكثر شعراء العرب من مناجاة الحمام ومناغاته ، بعد
ان هاج هديله احزانهم واشواقهم ، فشعراء الفرس لا يذكرونه
إلا فى النادرة ، ولا يعلق بحفظنا من شعر تضمن ذكره إلا هذه
الرباعية من رباعيات عمر الخيام وهى : « ذلك القصر المنيف
الذى يسمو إلى الجوزاء ارتفاعا ويسجد الملوك على اعتابه تذلا
وانكسارا ، لقد ابصرنا على طنقه فاختة ، وحكاية صوتها ،
ابن اهل الديار ... ابن اهل الديار ، »

وقول من قال « الحمام مع الحمام والصقور مع الصقور ،
وعلى اشكالها تقع الطيور ، »

اما البلابل فقد طرب شعراء الفرس لها ورددوا ذكرها
وسموها احسن اسمائها ، فالبلبل صاحب الف قصة والف
صوت ، وطار السحر ومرتل كتابهم المقدس القديم ، وهو
العاشق الوهان ذو القلب العميد ، الذى يعشق الورد فى حوم

حولها ليبتها شكوى الهوى ، وينفس عن فؤاده تباريح الجوى ،
والبلبل هو ذلك المحب الوامق الذى لا يتحول عن عهد ، لأنه
لا يشاهد إلا على غصنه المياد إلى جانب وردته الساهمة الحاملة ،
التي قد تتوجع لنواحه ونحيبه ، فتشق قميصا اخضر من اكمامها
الرقاق . وقد صور الشاعر ذلك بقوله : **دانه بلبل الروض ،**
يطيل من وقفته عند وردته للشدو والتطريب ، فياله عاشقا
غداؤه النجوى ، بينه وبين من بهوى ،

وإذا تلازمت الورود والبلابل في البستان فإنها متجاورة في
الشعر الفارسى ، وقد جرت عادة للشعراء بمراعاة ذلك ، فقلبا
ذكرت وردة من غير بلبلها ، ولا بلبل من غير وردته ،
ونسوق مثالا على ذلك تلك الغزلية الجميلة لحافظ الشيرازى وهى :
وانطلقت إلى الروض سحرا ، ورغبتى ان اقطف منه زهرا ،
وهناك سمعت ترنما للعندليب ، وارحمته له ! انه عاشق مثلى ، ولقد
منى بعشق وردة فارتجت المروج من نواحه بالحنين والرنين ،
ونقلت في الروض خطاى ، واطلت التأمل في ذلك البلبل
وتلك الوردة ، انها ذات الجمال ، وهو المشتاق الى الوصال ،
فلا تفضل منها لتسكين بلباله ، ولا تبدل في الهوى لحاله .

شد ما احزننى انين البلبيل فعزنى تجلدى وصبرى . ما اكثر
الورود المفتحة فى هذا الروض البهيج ، غير ان احدا لا يقطف
واحدة ، الا اصيب من شوكتها بوخزة . لا تأمل الخير يا حافظ
من هذا الزمان ، فليس فيه إلا الضر والشر والخرمان .

والحجل من الطيور التى اورد الشعراء اسماءها فى اشعارهم ،
وما ذاك الا لفرط اعجابهم بمشيته ، فضر بوا المثل بها ، وشبهوا
تبختر الحسناء بتأطر الحجلة فى سيرها . يقول حافظ « رأيت
هذه الحجلان مقهقهة متبخترتا يا حافظ ؟ لقد ذهبت عن شاهين
القضاء ، ولسوف ينقض عليها ويفتك بها ! »

ولفريد الدين العطار المتوفى فى سنة ٦٢٧ هجرية منظومة
بعنوان « منطق الطير » ، وهى طويلة تتألف من اربعة آلاف
وستائة بيت ، والمنظومة برمتها فى التصوف ، وقوامها قصة
فخوها ان الطيور اجتمعت ذات يوم ، فقال قائلها مامن مدينة
إلا ولما حاكمها ، فلا بد لنا من حاكم ندين بطاعته وننضوى تحت
لوائه ، وقام الهدهد فقال ان العنقاء حاكمنا ، وعرض على الطير
ان يهديها إلى مقرها ثم اشترط الصبر على وعشاء السفر ، غير ان
كثيرا من هذه الأطياف تريثت عن هذه السفرة ، وادركتها

المخاوف من المشاق والاهوال ، وبسط كل طائر عذره الذى يبرر به عدم رغبته فى ان يسافر مع السفر . فكان من البلبل ان قال انه لا يطيق فراق الوردة ، وقالت البيغاء انها لا تستطيع خروجا من قفصها الذى حبست فيه لحسنها ، واظهر الطاوس استحياء من هوان شأنه على الطيور ، لانه كان سيبيا فى خروج آدم من الجنة ، ثم قال البط انه لا يصبر عن المياه كما لا يصبر الحجل عن الجبال ، أما البومة فذكرت انها لا تعيش الا بين الخرائب والاطلال . ثم قال طائرهما انه يؤثر الحضر على السفر ليهب الملك للسعداء ، كما قال الصقر انه لا يجسر على ان يبرح اكف الملوك فى صيدهم ، ثم اشتكت الصعوة ضعفها وضآلة حجمها . وبذلك كان من يرغب فى الرحيل إلى العنقاء ثلاثين طائرا وحسب . ورحلت الطير وامامها الهدهد دليلها الهادى ، فلقيت من سفرها هذا نصبا ، وعبرت سبعة اودية هى وادى الطلب والعشق والمعرفة والاستغناء والتوحيد والحيرة والفناء حتى انتهى بها المطاف إلى العنقاء ، وهناك نظرت اليها فكأنها نظرت إلى امرأة ترى فيه صورتها . فكلمة (سيمرغ) فى الفارسية يمكن ان تكون بمعنى عنقاء او ثلاثين طائرا ، فكأن الطيور رأت فى نفسها

ماطلبته خارجا عنها ، وهذا معنى صوفي واضح ، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وبذلك تظهر المعاني الصوفية العامة التي ضمنها الشاعر منظومته . ومن قول العطار تصويرا لما يعرف عند الصوفية بالفناء في الذات الالهية : « واشكل الأمر على الطيور ، فما عرفت اهي العنقاء ام ثلاثون طائرا ؛ واخذ العجب منها كل مأخذ ، وفكرت ولاكن من غير عقل ، ولما حارت في امرها ولم تهتد إلى حقيقة حالها سألت الحضرة امامها من غير ان تفتح بالكلام فيها وارادت كشف السر المكتمن ، والتمييز بين نحن وانت . فالتقى في نفوسها ان هذه الحضرة كالمرآة ، من نظر اليها رأى نفسه فيها روحا وجسدا . فلما جئتم واتتم ثلاثون طائرا رأيتم انفسكم ثلاثين . ولو كنتم اربعين لوجدتم انكم اربعون ،

ومن شعراء الصوفية في ايران من يدعى جلال الدين الرومي ، وهو شيخهم وسيدهم غير مدافع : وقد توفي عام ٦٧٢ هجرية بعد ان نظم كتابه المثنوى الذي يعتبر عمدة اكل صوفي ودارس المذهب للصوفي ، وفي الكتاب قصص منظومة يعيننا منها في هذا المقام قصة البقال والبيغاء التي دفقت الزيت في الدكان ومنها : « كان لبقال بيغاء فتيقة اللسان عذبة الالحان .

وكانت تحرس الدكان وتبادل المتجرين غرر الكلام . واتفق يوما
ان وثبت هرة تبغى اللحاق بفأر فرعب ذلك البيغاء رعبا ،
وطلبت في احد الاركان مهربا ، فاندفعت زجاجات الزيت .
وجاء صاحبها من داره ، وجلس جلسة السادة على دكانه ، ثم
رأى الزيت المدفوق فضرب رأسها حتى تساقطت ريشاته ،
وانقطعت البيغاء عن كلامها اياما ، فعرض الرجل بنانه ندما ،
وجعل يذنف عشونه حزنا وهو يقول : لقد غابت شمس نعمتي ،
فياليتني قبل ضربها كنت قد كسرت يدي ، وبعد ثلاثة ايام
بلياليها ، جلس الرجل على دكانه مكروبا كاسف البال . ومر به
درويش حاسر ، وقد بدا رأسه الاقرع كأنه ظهر الاناء ، فانطق
منظره البيغاء فورا ، ونادت الدرويش باسمه وهي تقول له :
ما الذي اذهب شعرك ؟ لعلك دفقت الزيت ! وضحك الناس
كثيرا من قياسها . فقد حسبت الدرويش نظيرا لها . فلا تتصدوا
للقياس على صنيع اهل الفضل ، فان لفظين قد يتفقان في رسمها
ويختلفان في معناهما . لقد اضل ذلك خلق الله اجمعين ، فما اقل
هؤلاء الذين يعرفون لاهل الحق حقهم .

فهذه القصّة على بساطتها وسذاجتها واضحة المعنى عميقة
المغزى تتجلى فيها براعة شعراء الفرس في سرد القصص ،
وانطاق الاطيار بالحكم الغوالى .

مذهبَيانِ هَدَامَانِ فِي تَرْكِيا وَإِيرَانِ

المذهب الهدام قلب اللاوضاع وعكس الآيات وفساد في
الأرض وضلالة لاضلالة بعدها ، فلا يأخذه إلا ثائر طياش
ذهب عقله وعزب صوابه ، وخبط خبط العشواء في الليلة الظلماء ،
أو صاحب دوى ضل وغوى وافترى الأكاذيب والاضاليل
متخذاً من الباطل وسيلة إلى غاية ينشدها . وإن يكون أمره إلا
وبيل العاقبة مخوف العقبي ، لأن الشجرة المرة لا تثمر إلا مرة
ولو سقيتها شهداً ، كما قال شاعر فارسي ، وإنك لا تنجني من الشوك
العنب كما يقول المثل العربي . وفي تاريخ الفرس والترك لذلك
مثالان نسوقهما تبصرة وعبرة وتذكرة .

ففي القرن الخامس للميلاد ظهر مزدك الفارسي ، وكان يطلب
النجوم ويستدل بها على ما قدر للناس من سعد ونحس ، ولما عرف
منها أن نبياً سوف يظهر أمره ، أحب لنفسه أن يكون هذا

النبي . فابتغى الوسيلة الى النبوة ، وهدته الحيلة إلى ان يهيء خطة له مرسومة يسير على هديها ، فأعلن في الناس انه قد جاءهم يبين لهم على فترة من الرسل ، بعد ان رق ايمانهم وفسدت عقائدهم ، و طرحوا تعاليم المجوسية التي تعلموها من نبيهم زردشت ، ثم قال لهم انه إنما جاء هاديا لهم مصلحا لدينهم ودنياهم ، وتشبهه بنبي من انبياء بني اسرائيل بعثه الله الى قومه بعد ان نسوا تعاليم موسى وماورد في التوراة . فدعا مزدك الى مذهب ثنوى وقال بالنور والظلمة واله الخير واله الشر . وقد جاء عنه في تاريخ الطبري : قال مزدك واصحابه ان الله إنما جعل الارزاق في الارض ليقسمها العباد بينهم بالتأسي ، ولكن الناس تظالموا فيها وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الاغنياء ، ويردون من المسكئين على المقلين ، وان من كان عنده فضل من الأموال والنساء والامتنعة فليس هو بأولى به من غيره . فافترص السفلة ذلك واغتشموه ، وكاتفوا مزدك واصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى امرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وامواله ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود اباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به

ودعا إلى مذهبه الملك قباذ والد انوشروان فأجابه ، وسأله
عن معجزته ، فقال مزدك انه قد ير على انطاق النار باذن ربه ،
لتشهد بصدق دعوته وصحة نبوته ، ولما طلب الملك اليه ان يجي
بالبينة فاستتمله يوما . ثم توجه الى بيت نار المجوس وامر عبده
بحفر سرب ينتهي إلى موقدها ، على ان يكون في سقف السرب ،
ثقب صغير لاتراه العيون ، فاذا كمن فيه انسان وتكلم ظهر صوته
ولم يبد شخصه ، ولما كان من الغد دعا الملك ليطلعه على معجزته ،
فاقبل الملك في بطانته واهل مشورته ، واوقدت نار عظيمة ،
وهمهم مزدك وزمزم ، فرد عليه رجل من اتباعه كان في السرب ،
وانبعث صوته من الثقب بجانب النار وهو يقول ان صلاح الدنيا
والآخرة في اعتناق المزدكية . وتمت الحيلة على قباذ واتباعه
وترجع عندهم ان النار تنطق ومزدك نبي بصدق ، فأمن به ايماناً
لا يتزعزع ، واكرمه كأعظم ما يسكون الاكرام ، واجلسه على
عرش من ذهب وجوهر ودخل الناس في دينه افواجا من غير
تفكير ولا تدبر ، إلا رجال الدين فقد تحرزوا منه ورووا عليه
الكذب ، وهدتهم حكمتهم الى ما في مذهبه الهدام من شر وفساد .
وكان انوشروان كاشحا له بالعداوة بعد ان اطلع على خزيه

وافترائه ، فاشخص الرسل خفية الى رجال الدين ، وناط بهم ان يقولوا لهم : « ما الذى الزمكم الصمت ، وما هذا الفضل الذى تبدونه ازاء مزدك ؟ اليس فيكم ناصح لآبى ، يسأله ماذا دهاه حتى انطلى الزور عليه ، واختدعه كلام هذا الماكر ، لقد بدد الكلب الاموال ، وهتك اعراض المحصنات ، وجعل امر البلاد الى الغرغاء والدغماء ؟ سلوه على اى اساس ارسى مذهبه ، والى اى نظام نسب مسلكه واعلموا انكم اذا اطلتم صمتكم ، فستذهب اموالكم وستختطف منكم نساؤكم . وان يدوم الملك فى اسرتنا . فمن الحتم ان تنطلقوا الى آبى ، وتبذلوا النصيح له ليرشد امره ، ولزام عليكم ان تقارعوا مزدك حجة بحجة وتأتوه بسلطان مبین . »

وانهى انوشروان مثل هذا الكلام الى رجال الدولة ، حتى اتاهم بالمقنع والبهيم جميعا عليه . وعلم مزدك برأى انوشروان فيه ، واسر ذلك الى ابيه قباد ، فاستدعى الملك ولده وقال له فى ذلك ، فصارحه انوشروان بقوله : « ان دين المجوس لا يأمر بالمساواة فى المال والنساء وإلا انعدم الفرق بين الناس وبين تلك السوائم التى تشترك فى انائها ومراعيها . » وكبر على الملك ان يسمع

ذلك من ولده ، وتعجب ان يخالفه في الرأي ، فرد عليه انوشروان
ردا منيفا بقوله : « لقد علمتني ذلك ، لأنك خالفت اباك وتحولت
عن مذهبه ، فخير من مسلكك اغير من مسلكي ! »

ثم ارتضى قباد من انوشروان أن يهيئ من البراهين والحجج
ما يسهفه به رأى مزدك ، ويظهر فساد مذهبه ، وامهله اربعين
يوما يقتله بعدها ان اخفق في مسعاه . وقبل انوشروان ذلك ،
وارسل الى موبذ في الجنوب يستقدمه على جناح السرعة ، ولما
قدم عليه قبل انقضاء مهلة بيوم او بعض يوم ، اوقفه على جلية
الامر ، وذكره بأنه هالك ان ائخمه مزدك ، فطالب اليه ان ينافح
عنه ويتحدث بلسانه واوصاه خيرا . وانهقد مجلس حضره الملك
وولده والموبذ ومزدك . فقال الموبذ ان مزدك هذا على علم
بالنجوم ، وقد تردى في الخطأ ابين الخطأ ، واستدل بالنجوم على
ظهور نبي في هذا الزمان له كتاب عظيم ومعجزات واعاجيب ،
يشطر القمر شطرين ، ثم يقضى على دين المجوس قضاء مبرما ،
ويوعد بالجهيم كما يعد بجنات النعيم ، ووقع في وهم مزدك انه هذا
النبي ، مع ان مزدك فارسي ولن يكون هذا النبي من الفرس ،
ومزدك يدعو الى المجوسية وعبادة النار ، على حين ينهى هذا

النبي عن ذلك وينفر الناس منه ، ولا يستبيح نساء الغير واموالهم ،
فلا جزاء عنده إلا قطع اليد لكل من سلب ما ليس له .

ثم واجه مزدك فقال انه يرى ان تكون الاموال ملكا للخلق
عشاعا، وهذا يتعارض مع الاحسان ووقف الاموال على وجوه
البر والصدقة ، لأن الحاجة لاتمس بعد ذلك الى عمل الخير ومواساة
الفقير والرافة بالضعيف . ثم تابع الموبذ كلامه فقال: اذا أصبحت
المرأة لاكثر من رجل فالى من ينسب ولدها ؟ واذا وضعت
زوجة الملك حملها فهل يكون الجالس على عرش البلاد من نسل
الملوك ام نسل السوق ؟ فاسقط في يد مزدك ولم تنفرج شفاته
عن كلمة . وامره الملك بالكلام فقال ا ضربوا عنق هذا الموبذ ،
وكره الملك أن يقتل الموبذ في غير ذنب كان منه ، فاسرها مزدك
واضطغنها على الملك فتوى الفتك به ، وعمد الى الدهاء والحيلة
جريا على عادته ، وقرر ان يكون الاحتكام الى النار ، واوعز
الى من تنطق النار بلسانه ان يطلب قتل قباز ، كما طلب
الى رجلين من شيعته ان يغمدا السيف في قلبه حاملا يسمعان
الامر بقتله . وجاء اليوم الموعد ، والتقى المحتكمون في بيت النار
وامرت النار بقتل قباز لتأكل فلذة من قلبه ، وهم الرجلان

بالقتل إلا ان حراس الملك حجزوا بينهم وبينه .

ولما تولى انوشروان الملك بعد ابيه ، عول على ان ينكل
بمزدك وقومه ، فدعا المزدكية الى حفل ديني ، وهناك أمر جنده
فحملوا عليهم وذبحوهم عن آخرهم ودفنوهم في بستان منكسين
بحيث تظهر من الارض ارجلهم . ولما قضى الامر استزار مزدك
وطلب اليه ان يسايره قليلا في البستان فإشار الى الارجل الظاهرة
من الارض وقال له : « هذه ثمرات مذهبك يا مزدك ! » ثم
حانت منه التفاتة الى جنده فدفنوا مزدك حيا ، ويقال ان
التخلص من هذه الفئة المفسدة كان سنة ٥٢٣ ميلادية .

غير ان المزدكية لم تندثر اندثارا تاما بعد مزدك ، فقد كان
اهل كرمان على هذا المذهب في العصر الاموي ، كما تطورت
المزدكية الى مذاهب فارسية اخرى في العصر الاسلامي ، فقد
ظهر من يدعى حاجي بدر الدين سنة ١٤١٦م ، وهو رجل تركي
يصل نسبه بملوك السلاجقة ، ويحمل القول في سيرته انه حصل
العلوم وقضى شطرا من عمره في رحلة وتطواف ، ولما وافى
مصر اشتغل بتأديب السلطان فرح بن برقوق ، ثم رحل الى
تبريز ، وازدلف الى تيمورلنك وشهد مجالسه فناظر العلماء

واوتى الحكمة وفصل الخطاب ؛ غير ان الله اضله على علم قال الى
 الاحاد والافساد ، وخرج على الناس بمذهب يروى جهالهم ،
 لينضموا اليه وينضوا تحت لوائه ، ولا غاية له من ذلك إلا
 التوصل الى الملك والسيادة ، فقرر ان يسوى بين الخلق فى كل
 ما يملكون إلا النساء . وظاهره ملحدان من مريديه وهما بورو
 كوجه مصطفى ، ويهودى يدعى طورلق ، فخلعوا طاعة السلطان
 محمد الاول ولعنوه ، والقوا فى روع السذج البسطاء من اتباعهم
 انهم مصلحون وهم المفسدون ، وما كان ايسر ان يخدعوا قوما
 لا يعلمون . وتهافت خلق كثير من اهل الاناضول على مذهبهم
 تهافت الفراش على النار ، فساقوهم لمحاربة السلطان كأنهم حمر
 مستنفرة لا تدرى اين يساق بها من فجاج الارض ، وارسل
 السلطان جيشا عليهم يتوده صاروخان بك ، وتصافت الفشتان
 وانتشب القتال فدارت الدائرة على جيش السلطان ، فأنقذ اليهم
 على بك حاكم مدينة آبدین على رأس جيش عظيم ، غير ان النصر
 خذلهم كذلك فى هذه المعركة . وترامى الى محمد الاول نبأ
 الهزيمة فامتلاً غضباً . واقسم بلحيته لينذهبن ربحهم . ويفرقنهم
 ايدى سبا ، فجمع الجند من اطراف مملكته وحشدتهم تحت لواء

ولده الامير مراد وبايزيد باشا الوزير ، ودلف جيش السلطان
الى من فسقوا عن الدين ، فنكبتهم نكبة وقصمتهم قاصمة .
وشنق بدر الدين واليهودى ، اما مصطفى فذاق عذابا غليظا ،
ونصر الله الاسلام والمسلمين على هؤلاء الضالين الذين جاءوا
بما لا يقره عقل ولا دين .



في العام السادس للهجرة ، أوفد النبي صلى الله عليه وسلم رسولا على كسرى بروبز يحمل كتابا فيه الدعوة الى الاسلام . وكسرى ذلك على ملك الفرس وثار له حفيظته ، فخرج عن طوره ومزق الكتاب تمزيقا ، غير ان الله مزق ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذي قتله .

وهذه تمثيلية شعرية نظمها الشاعر الابرار المعاصر اويس سنة ١٣٢٤ هجرية ليصور فيها منقلب الطاغية بعد ان آثر الكفر على الايمان ، وباء بغضب الله وسخط من رسول الله . ونحن هنا نجتزئ من هذه التمثيلية بفصلها الاول .

الفصل الاول

(حجرة زردان بزينات الملوك ، فيها من المناضد اعظمها ،

ومن المقاعد ما يتحلى بالذهب الابريز . وقد جلس كسرى على
مقعد كبير يشبه ان يكون عرشا تحمله السباع ، وفي وجهه غبرة
من هم وغم . شيرين بالقرب من باب الحجرة التي دخلتها منذ
قليل ، وهى بادية اللوعة والحيرة تديم نظرها الى الملك المحزون ،
ثم يجرى الشعر على لسانها تعبيراً عن ذات نفسها .

المشهد الاول

(كسرى ، شيرين ، فيروز)

شيرين (لنفسها) - كسرى ، يا ملك الملوك ، يا صاحب
الحول والسلطان ، ويلاه ما بالك وما هذه الاحزان ! (تدنو
منه) ما الذى اكسف بالك وغير حالك ، لقد انسيت فى الغم
ما لك ودنياك ، فلو عرفتني خطبك واوقفتني على جليلة امرك .
كسرى - ماذا عسيت ان اقول ، الصمت افضل لى واجمل
بى ، فان الحديث عن قلب جريح يزيد جراحا على ما فيه ، كأنى
اصبت اليوم بخبول ، لست ادرى ماذا دهانى وصنع بى ما يعجز
عنه بيانى . فقلبي تغشاه من الاسى ظلمات بعضها فوق بعض ،
وان كان لكل شيء حد ، فما لهذا الاسى من حد . تعالى يا شيرين ،
جالسينى ، اسعدنى وعن السر استكشفينى .

رأيت البارحة فيما يرى النائم فتى وسيما يشرق بهاء ولآلآء ،
 على فرس عربي حسن السير والرقصان ، وقد تمهدت ذوابته
 العقصاء كأنها الوهق ، فهيبه الى ان قال لي : يا هذا الفتى عد عن
 الكفر واسلم تسلم . قلت : ما الى هذا سبيل ، ديني ان ارتدعنه
 وقومي لن اكون بدعا فيهم . وما سمع الفارس ذلك مني حتى
 مضى عني بعد ان خفقتني بسوطه خفقة اوجعتني وارمضتني ،
 فساءت حالي من رعب ومن وصب ، وما هنأني عيش بعدها ،
 وطويت بساط بهجتى وغانمت بشاشتي ، غير ان املا ببق لي بعد
 كل ما حاق بي ، فانطلقت الى خزائني وكنوزي ، لأشهد ما قد
 يشرح الصدر من ضيق ويسر القلب من شجن ، اليس فيها الدرر
 والعطور والجوهر والحرير ؟ ولأتبصرها واقش عن حالها ،
 واذا تعرفت ما تحوى الخزانة ، جدت منها على اهل الحاجة والفاقة
 فتسعد بذلك ررحتي وتقر عيني .

ودخلت بيت الزخرف ، فما رأيت من ذهب ولا من جوهر
 وكأنني لم اضع نفائسي حيث وضعتها ، لقد كان لي اربعون بيتا
 بالنفائس مفعمة ، فلم يتبق لي منها جميعا غير اربعة ! ودخلتها
 الواحد بعد الآخر فشاهدت ما وجد وسألت عما فقد ، وطلبت

الى الخزانة ان يدفعوا الى مفتاح تلك السكنوز التي كانت الارض
تميد وترزح تحت انقالها ، ثم تسليت هفتا حان ذهب له بهاء القمر
ورونق شمع اضاء ، وامسكت بالمفتاح ، لاستفتح الباب من
كنز غاب تحت التراب ، ونبشت الارض وكشفتها فبدا صندوق
من المرمر تحتها ، وعليه قفله الذي ضل عن مفتاحه ، وامرت
بالفتح ، ونفض التراب عن الصم الصلاب ، فاذا طاق ، واذا
طلسم من لجين ولوح من نضار ، وحروف نقشت ، ومن ذهب
وفضة سبكت . فقلت لاستودع هذا اللوح بهبود .

(ينادى فيروز الخادم) - تعال يا فيروز ، عجل بتقديم
اللوحة الذي اودعته وديعة عند بهبود .
فيروز - سمعا وطاعة انا آتيك به .

كسرى - (يخاطب شيرين) انه لطلسم عجيب يحوى من
الاسرار كل دقيق غريب ، ولا يخدعك مظهره عن مخبره ، وان
فيه لامرا ينبغى استطلاعه .

(يقول لفيروز) : ناد بزرگاميد ، ليحضر الينا ، وليكشف
هذا السر لنا (يقول لشيرين) ما لها الا بزرگاميد النحرير ،
ولا يثبتك مثل خبير .

المشهد الثانى

(كسرى ، شيرين ، فيروز ، بزرگ اميد)

فيروز - بزرگ اميد بالباب .

كسرى - ليدخل علينا .

(يقول لبزرگ اميد) . تقدم يا بزرگ اميد ، امعن نظرك
فى هذا اللوح العجب ، اى شىء فى هذا الذهب !
(يمسك بزرگ اميد باللوح ويقرأ) .

بزرگ اميد - هذا اللوح قديم قديم ، وكتابه تتضمن رمزا
يؤخذ منه ان الملك اردشير وهو من هو سعة علم بالافلاك
ووقفا على احكام النجوم ، رأى فى علمه انه اذا اقترن نجم
بنجم ، ظهر عظيم فى بلاد العرب ، له الفضائل كلها ، وتجرى عليه
صفات الحسن جميعها ، فهو الامين الوفى ، وهو مشرق الجبين
وصاحب اللسان العذب المبين ، وله من المعجزات وعجائبها
ما سوف يهز الكواكب فى مسالكها . انه خاتم الانبياء
 والمرسلين ، يسود الامم كافة بدين الحق الخفيف ، من اتبعه فاز
بما هو خير من الملك وابقى ، والعاقل العاقل من دخل فى دينه
فان الغنم لمن صافاه ، والغرم على من عاداه .

(ويسمع كسرى هذا من كلام بزرگ امید فیربد وجهه
وتثور نفسه)

كسرى - هذه اوصاف رأيتها في منامى ، فهات يا بزرگ امید
ما عندك في هذا الباب والقه على مسامعنا .

بزرگ امید - اذا سألتني أيها الملك المنصور ، عما في هذا
اللوح المسطور ، فمحمد هو النبي العظيم الكريم ، الذي يؤيده
الرحمن بروح من عنده ، وقد اصطفاه من دون الخلق اجمعين ، وان
لسانه المبين لمفتاح هذا العالم المغلق المبهم . لا ذكر في هذا اللوح
الا لهذا الرسول الطاهر المرتضى ، انه جبوة الله وصفوته ، وقد
طاب به ما في مكة من تراب فكانت له ريح المسك الفتيق !

(ويزداد كسرى غما على غم ، فيجف قلبه وتخلج جوارحه) .
كسرى - كفي ما قلت يا بزرگ امید كفي ، لا تزدني شرحا ولا
تفصيلا . (يقول في نفسه) ارى الدنيا اظلمت في عيني ، ورأسى
ينتابه من السكد دوار وخمار . الهى ، ما بالى ! لقد دب السقم في
روحي والخور في نفسى .

(وتريد شيرين لتسعده وتنفس عنه ما يكر به) .
شيرين - يا مملك الملوك ، يا كبير الفطنة وصاحب العز

والجبروت ، يا من لك من تاجك وعرشك مثلها كان لسكيقباد
العظيم سلفك ، ان نبيا قصوا عنه احسن القصص ، منذ الزمان
العريق في القدم ، واستخير النجوم عنه أناس قبلنا فاخبرتهم ،
لن يكون ضالا ولا غويا وحقيق ان يكون له شرعة ورفيع منزلة ،
انه يقارع بالحجة الالهية ، ويدعم مذهبه بالدلائل العقلية ، فليبق
اسمه مقترنا بالخير والحسنى ، ولتسد ذريته في قومه من بعده .
فلو رق قلبك لدينه ياملك الزمان ، لتلت الخير والامان ، ورفعت
من طريقك كل شوكة وكل عقبة كأداء .

كسرى - الحق ماتقولين ، والصدق به تنطقين ، ولكن
الهي هو من اوجد قومي وخلق اجدادى ، فأنى يكون لى تحول
عن مذهبهم وتبديل لشرعتهم ، انى لاحتشم الملوك الاولين ،
وقلبى يتازعنى الى هذا الدين القويم ويدعونى ، غير ان امرى
ليس فى يدى ، والجد لا يواتينى ، فالسعد حليف لصاحب هذا
الدين الحنيف .

شيرين - دع عنك دينك هذا القديم ، واعتنق الدين الجديد ،
كن حازما ، اطلب الخير العميم ، وسر فى الطريق النهج القويم ،
يا من قومك الذل والصغار ، اجعل بالك الى الواقع فلكل

زمان لبسة ، ذد عنك الشيطان ونزغاته ، ايها الملك لكل يوم
ما يقتضيه ، ولا بد لك من رعاية مقتضى الحال ، لا يكونن
عقلك قاصرا عن الادراك ، وانظر الى الساعة التي انت فيها ،
انظر الى الافلاك ، انها تتغير ابدا ، فالتغير سنة من سنن هذا
السكون ، من لا يستشرف الرقي والسمو ، تسؤ - الله ولا
تسعد ايامه .

كسرى - اعلى يقينا يا شيرين بانى مادمت ملكا ، فانا صاحب
عرش وجيش ، وانى لاربا بأرض بلادى الطاهرة أن تكون
موطنا لسنا بك خيل المغيرين ، فيمنى قومي بذلة ليس بعدها ذلة .
لا ، لن يدخل على ايران مذهب جديد وتشريع لاعهد لها به ،
فان ما قد يصلح بلدا قد يفسد بلدا آخر ، انى لمقتنع بما قلت ،
عالم بكل ما قررت ، ولكن يا اسقى ، ان اللسان لا يفشى السر
فى كل مكان .

المشهد الثالث

(كسرى ، بزرگ اميد ، شيرين ، فيروز ، عربى)
فيروز (يدخل الحجرة على كسرى محيا) بالبواب رسول
يطلب شرف المثل .

كسرى - ماذا يريد منا ؟ ألم تسأله من أوفده علينا !
فيروز - يا ملك الزمان ، لقد قال انه لا يصرح بمقصده
إلا للملك السعيد ، وظاهره يدل على انه رسول نذير ، يتجافى
عن ان يبوح بالسر .

كسرى - ليدخل ليظهرنا على ما أقدمه .

(تخرج شيرين ويدخل العربي)

العربي - إذا اتبعت الهدى ، فسلام عليك ايها الملك .
كسرى - ما خبت لسانك يا عربي وما اسوأ ادبك ،
ما حاجتك ! افصح ، ليس المقام مقام سلاطة وقحة . امن مكة
قدمت ام من المدينة ، قل من اين جئت ؟

العربي - لقد اشخصني رسول الحق نحر الكائنات ، اليك
يا وارث ملك جمشيد . وحماني كتابا اريد ان اعرضه عليك ، انه
در يتيم اهديه اليك ، نخذه ايها الملك ، وانفض الكفر والضلال
عن قلبك .

كسرى - بزرگ اميد ايها الوزير الخبير ، تسلم هذا الكتاب
واقراه علينا .

بزرگ اميد - ياله كتابا مطيبا ، فانه معجون بالعنبر الاذفر ،

وقد كتب مافيه بالخط السكوفي : « من محمد بمكة إلى برون ملك
الفرس ، باسم ذلك الذى لا يتحيز فى مكان ولا يقفر منه مكان ،
خالق هذا الوجود ، ومن بفيض وجوده بالوجود انه الاله كينها
دعى ، والملاك القدوس بكل معنى ، وليس لسائل ان يسأل عن
كيفية ولا كيته فما العبد إلا فى اسر سيده . انت انسان ضعيف
يامن تدعى كسرى ، ولو انضوى العالم بأسره تحت لوائك ،
وكان لك من العظمة ما كان لاسلافك ، فانت حى وكل حى إلى
مات ، وليس لانسان بدفع الموت يدان . لا تغرنك نفسك ،
فمن اغتر بها ولم ينظر إلا إليها عميت بصيرته ، اجعل الفضيلة
نصب عينيك ، واعلم ان الرذيلة صرف النظر عنها إلى نفس
تكثّر من اعجابك بها ، لقد جعل الله الأرض بساطا ، والربع
المسكون بعضها ، فكان العراق جزءا من هذا الكل وفيه
مدينة المدائن ، وفي المدائن الجم الغفير من الانام ، وانت بينهم
طيف فى المنام ، فعليك بالقياس والنظر ، لتعلم قدرك بين خلق
الله . هى الدنيا مستقر للبرية ، فمحال ان تطلب لنفسك الالوهية ،
اشهد بأن لهذا السكون ربا ، لا مكان له ، ولا حاجة للمكان به ،
وان ربا يعز من يشاء قد جلعنى للعالمين نبيا . النار لا تعبد ، فليس

فيها الا المحترق بها ، واسلم وآمن .

(وما وصل بزرگ اميد من قراءة الكتاب إلى هذا الحد حتى تملل كسر تمللا شديدا ، وخرج عن صبره فجذب الكتاب من يده ومزقه) .

كسرى — تأمل جرأة العرب إلى أى حد بلغت ، هل خوطب ملك قبلى بمثل ما خوطبت به ؟ منذ الذى يحسر على ان يجعل اسمه فوق اسمى ، سأخسف الارض بهم واهدم الدنيا على رموسهم فالويل لهم .

(غير ان الغضب يسكت عن كسرى شيئا فشيئا ، ويعقبه خوف وضعف ، فيرفع كف الضراعة) .

كسرى — يا الهى العظيم ، ربى ، يا بارى النسم ،
(ويقف بزرگ اميد ، ويخرج العربى ، وبزرگ اميد فى اثره)

المشهد الرابع

كسرى (وهو خائف وجل) ارى وجه الزمان يتجهمنى ،
والدنيا تتغيم فى عينى ، رحماك يا الهى ، رفقا بايران ، وآل
ساسان ، يامن رعيت اسلافى من قبل واعنتهم على كل عظيم
وجليل من الاعمال ، اوانى اليوم شيئا من عنايتك وافتح على

بابا من رحمتك (ثم تثوب اليه نفسه فيقول) كلا كلا ، لا ارى
 بعد اليوم لايران صولة ولا دولة ، لقد تقوض الملك فيها ،
 وعم الخراب كل ارجائها ونواحيها ، ولا اثر لتلك الابداح التي
 عرفها ابناء ساسان في سالف الزمان . لقد قال نبي الفرس بان
 لا دوام في ايران لعز ولا لرخاء ، وستمضي العظمة وتخضد الشوكة ،
 وسيمر علينا الف من الاعوام ونحن نعدم كل عى وصدق . ان
 هذا الملك لا يؤمن عليه من هذه الشرور ، فلن أضع نفسى على
 رأس المنحوسين المتعوسين ، وإذا ما كانت العاقبة عارا وشنارا
 فكيف اتيج لمن جاء بعدى ان يلومنى ويثلبنى ؟! لا قطع القلب
 عن هذه الدنيا ، فاقبع فى ركن العزلة ، واتزود من دنياى لاخرى
 آه ، ما اطيب ان استنقذ روحى من هذا المعترك الصاخب
 وانزوى فى معبد بعيد ؟ بزرک امید ، بزرک امید ...

(ينادى بزرک امید فيدخل عليه)

المشهد الخامس

(كسرى وبزرک امید)

كسرى - اقدم وشاورنى فى أمرى ، وانثر على من كلامك
 الدرر الغوالى ، فى نيتى الاعتزال ، فقد رق عظمى وعلت سنى ،

فليخلفني شيرويه ولدى ، ولك أن تنظر في خير الوطن وما يصلح
به ، أنت عليم بأنى مقطوع الأمل من ولدى هذا لشكاسته
وشراسته ، ياله من عاق جرعى من جفوته غصص الأسى ، فعن
أى شيء تريدنى أن احدثك ، اعن ولائه ام عن جفائه ، وعن
علمه ام دينه ، آه شدا أنا متخوف على منكود الطالع هذا ،
فلسوف تسوء عاقبته كما ساءت أعماله ، انما مثلى ومثله كالأثب
الذى لا يأمن على نفسه الشر حتى من أمه ! ان الخير لا يكون
من يديه ، فأنا لا أرجو الرشء فيه ، وهل تترك النار بعدها إلا
الرماد ! انه لا يأبه لغيره ، ولا يعنى إلا بنفسه ، أنا من زينت
رأسى بتيجان نزعته من رموس الملوك الصيد ، واسكن ماجدوى
ذلك ان كان لى خلف سوء . ما كل زوجة بعروب ، وما كل
مولود بولد رشيد ، لا ثمرة من كل زهرة ، وحلاوة السكر
لا تسرى فى كل عود . كأى من غريب عنك أشء وفاء من
قرابتك ، وكم من ولد قتل الوالد . وما دام ابن الملك لا كفاية
له ولا خير فيه ، ، فما كان أحرى بالعدم أن يطويه .

بزرء أعيد - أيها الملك المستنير وصاحب الرأى والحزم
والتدبير ، يامن يميز الخير من الشر ، والهدى من الغى ، ان ابنك

يرثق صفوك وينخص عيشك ، ولكن لا يحمل بوالد ان يعادى
ولده ويقطع ماحقه ان يتصل من سبيه ، ان شجرة التوت
لا تلعب ولا يستخف الناس بشأنها إلا لأنها تلقى بشمرها ، وليس
كذلك شجرة الزمان التي لها من ثمارها تيجان . مادمت فاضلا
عاقلا ، فان ولدك مثلك لأن العصا من العصبية ، ولئن كان شيرويه
جموح الجواد ، فلسوف يجعله الزمان سلس القياد ، انها أيها
الملك سكرة الشباب ، تعقبها الشيخوخة بحكمتها ورويتها .

(يهم كسرى بالقيام ويظهر شديد الأسف)

كسرى - صدقت يا بزرگ اميد لافض فوك ! إذا اشفى على
الخراب ملكي فما العيب عيي ، ومادام عزمي قد صح على أن
اعتزل ، فلا منتدح عن ان يقوم شيرويه ولدى ، بالأمر من
بعدي .

وزيران يهوديان

وزيران نستمد قصتهما من واقع التاريخ ، وزويها غير متزيدين فيها ، ولاهم لنا من ذلك إلا أن نكشف عن نفسيتهما ، وتتفهم مايجول في طويتهما ونرى كيف اتسعت لهما الحيلة وواتتهما الفرصة ، فتوصلا إلى منصب الوزارة وهو ماهو رفعة وسموا ، في الزمن القديم على الخصوص .

ففي مصر ، وعلى عهد الدولة الاخشيدية ، ظهر من يدعى يعقوب بن كلس ، وهو يهودى من أهل بغداد ، رحل في صحبة ابيه إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وكان شابا فتيا له من حداثة سنه مايقفم نفسه بالآمال والأحلام ، فباشر من الأعمال مايدر عليه رزقا حسنا ، وتوسط بين من يبيع ومن يشتري ، وعلا شأنه في مهنته بعض العلو ، فاصبح وكيل التجار ، غير انه لم يكن

ليقنع بمالديه أو ماسوف يصل اليه ، لأن مطامعه كانت تلح عليه قائلة هل من مزيد ، فيرى الشيء صغيرا ، وإن كان كبيرا . وما وسعته إلا العزم على الرحيل إلى مصر بلد الخصب والخير العميم ، رجاء أن يصيب ما يصبو اليه من بسطة في الرزق وسمو في المنزلة .

والقى الفتى عصاه واستقر به المقام في مصر ، ووجد السبيل إلى أن يتصل بكافور . فعرض عليه درايته بشؤون المال . واخبره باهفته لإداء كل ما يطلب اليه ادأؤه لا كثره واستثماره وأنس كافور منه مخايل الألمعية وآيات الحزم والفطنة ، فالحقه بخدمته ليفيد من خبرته بفنون الزراعة وما يتبعها من اصول التجارة ، وأرسله إلى إرجاء البلاد ، فعرف الأحوال ووقف على الأخبار ورسم الخطة لا صلاح ما تمس الحاجة إلى إصلاحه ، وكان من فضله أن نجح الزرع وكثر المحصول ، فتحصلت الثروة وامتلات خزائن الدولة ، وارتفعت بذلك مرتبته عند كافور . وقد اتفق أن مات رجل عريض الثراء من أهل الرملة يقال له ابن بلدى ، ولم يكن لهذا الميت من يرثه من بعده ، فكان للدولة حق وراثته ، وانتهى هذا الخبر إلى

يعقوب من احد اليهود ، فما كان باسرع من ان ذهب الى كافور وقال له ان ابن بلدى مات وخلف كنزا دفيننا يحوى عشرين الف دينار . فامرہ كافور بالسفر قوا الى الرملة ومعه من البغال ما يكفى لحمل المال والعودة به الى مصر . ومضى يعقوب لطيبته ، وهناك عثر على الكنز . ولما احصى ما فيه وجد ثلاثين الفا لاعشرين الفا ، فسكتب بذلك الى كافور الذى اعجب الاعجاب كله بامانته ، وزادت فيه ثقته الى ابعد الآماد . ثم كافأه على ذلك بمال جزيل ، الا ان يعقوب رد منه قدرا كبيرا وتظاهر بالقناعة باليسير . وكان لزاما على كافور بعد الذى رأى من كفايته وامانته وقناعته ، ان يرفع من رتبته ، فعمل بمشورته ولم يقطع برأى دونه ، كما اجله شرفاء الدولة وعظماؤها .

ورغب كافور فى ان يتخذہ وزيرا ، ولا غرو فالمال عماد الدولة ، وشؤونه متصلة الاسباب بشؤون السياسة . وروى عنه انه قال يوما لى وزير يضاهى يعقوب بن كلس ! غير ان يهوديته كانت الحائل المنيع بينه وبين الوزارة . وعرف يعقوب انه لو كان مسلما لصلح ان يكون وزيرا فاعتنق الاسلام وجعل لنفسه شيخا يعلمه القرآن والفقه والعلوم الاسلامية ، ثم دخل المسجد

فى يوم الجمعة واعلن على الملأ انه من المسلمين . وانطلق الى كافور
فى حشد من المهللين والمكبرين . فاستقبله بالتكرمة وخلع
عليه والطفه . فثار لذلك حقد ابن الفرات الوزير وساده اسلام
يعقوب بن كلس ووصوله الى ذروة العلياء . كما حز فى نفسه ان
يكون وزيرا من بعده فى يوم من الايام . فكاد له وتربص به
الدوائر ، وقد مكنه الله منه لما مات كافور ، لانه بقى وحيدا من
غير نصير يحميه . فأوقع ابن الفرات القبض عليه مع جماعة من
رجال الدولة وكاد يبطش به ، غير انه اقتدى نفسه وولى هاربا
الى بلاد المغرب .

واتصل هناك بيهود مع المعز لدين الله الفاطمى ، ودخل
خدمته سنة ٣٥٧ هجرية ، وهو احد اسباب حركة المعز ،
وارسال جوهر القائد الى الديار المصرية ، وقد عرف منه احوال
مصر وضعف اداة الحكم فيها . واحاط علما بكل شىء من امور
زراعتها وادارتها ومالياتها . فافترض ذلك وراه مغريا بالاقدام
ولما دخل المعز مصر سنة ٣٦٢ هجرية كان يعقوب بن كلس
معه لا يفارقه ، وجعل اليه الاشراف على الخراج خصوصا ومالية

الدولة عموما، ووجد ابن كلس مس الحاجة الى اصلاح مالى على اعظم جانب من الالهمية ، فلما تم لجوهر فتح مصر ، اعاد فتح دار الضرب وسك الدينار المعزى فاستلزم ذلك ان تهبط قيمة الدينار الراضى الذى كان متداولاً من قبل ، فسيخط الناس وطالت شكواهم ، غير ان ابن كلس وجد فى تثبيت قيمة الدينار المعزى كسبا كبيرا للدولة وان كان فيه غبن عظيم للرعية ، و اراد من المعز اعجابا به ورضى عنه ، فلم يكثر للناس ومضرتهم وزخرت خزانة الدولة بمال كثير كان المعز فى مسيس الحاجة اليه بعد ان تكبد النفقات فى فتح مصر . وحظى ابن كلس عند مولاه فاطلق يده فى شؤون الدولة ، وهيمن على مراقبها ، وارصى اسس الادارة المالية وسن قوانينها .

ومات المعز وخلفه العزيز ، فاتخذ يعقوب ابن كلس مستشارا سياسيا وحربيا ، وحدث فى عهده ان ثار عليه افتكين فى دمشق ، فانفذ اليه جيشا تحت امره جوهر ، غير ان جيش مصر لم يثبت امام جيش الثائر ، فتقهقرت قلوبه ، وابرم الصلح بين القائدين . واستخط ذلك العزيز . وشاور يعقوب ابن كلس فى الامر ، فاشار عليه باعادة الكرة وتجريد حملة على افتكين . وتولى العزيز قيادة

جيشه بنفسه. ونصره الله على عدوه فعاد به اسيرا. وكان اول ما عمله يوم عودته هو اسناد الوزارة الى يعقوب بن كلس. ثم منحه لقب الوزير الاجل. فكان اول من وزر للدولة الفاطمية في الديار المصرية.

غير ان هذا الصفاء لم يدم طويلا بين العزيز ووزيره الاجل فقد غضب عليه وامر باعتقاله وصادر ممتلكاته ونال منه عشرين الف دينار اضافها الى خزينة الدولة ثم زجه في غيابة السجن. وكان كل هذا الشر والاذلال لسبب لم يكن في الحسبان. فان العزيز رضى عن عدوه واسيره افتكين، فعفا عنه وبالع في اكرامه حتى جعله من اصحاب المنزلة في حاشيته، ولم يرض ابن كلس عن هذا الصنيع من العزيز، فدرس لافتكين من سمه، وعرف العزيز جليلة الامر فكان منه ما كان، ثم وقفت امور دولة العزيز باعتزال الوزير، فخلع عليه واعاده الى وزارته، ورد اليه ما انتصبه منه، واغدق عليه نعمه كالمعتذر. ومات يعقوب بن كلس بعد ان اقام في خدمة العزيز اثنتي عشرة سنة وكان موته سنة ٣٨٠ هجرية. قيل ومات على اليهودية، فانه لم يعتنق الاسلام الا نفاقا للتوصل به الى غاية ينشدها، والادلة على ذلك غير قليلة، فكان

متعصبا لا بناء جنسه ، واستخدم كثيرا منهم في الشام ليأتوه
بأخبار البلد . ولما احتدم النقاش مرة بين اسقف ويهودى يقال
له موسى ، وانتهى الامر باهانة نالت اليهودى من صاحبه النصرانى
خرج ابن كلس عن صبره ولم يستطع البقاء على تحفظه فنصر اخاه
في الدين والجنس وعزر النصرانى على ما فرط منه . وجهد يعقوب
ابن كلس كثيرا لستر نفاقه فكان يتحاشى التحدث عن اليهود
واليهودية إلا فيما ندر . كما ألف كتابا في الفقه الاسلامى اهداه
الى العزيز وهو المعروف بالرسالة الوزيرية .

واذا عدنا الى بغداد بلد يعقوب بن كلس الوزير ، وجدنا
يهوديا آخر من اهلها يدعى سعد الدولة ، وكان اول امره يحترف
الدلالة فى الاسواق إلا انه اشتغل بالطب فتميز وبرز . ولم يخرج
على مألوف اليهود فى كل زمان ومكان ، وهو الاغرام
بالمال والتفنن فى وسائل جمعه . وقد حسده اقرانه واهل بلده
على نعمته ومهارته فى مهنته . وطلبوا التخلص منه بكل حيلة ،
فرغبوه فى ان يزابل بغداد الى تبريز ليكون طبيبا للسلطان ارغون
المغولى . وقد اراد الله له خيرا عظيما بهذه الرحلة لم يخطر له ولا
لجساده على بال ، فان السلطان قرب به وانس به ، فكان إذا مرض

لم يطبه إلا سعد الدولة ، وارتاحت نفسه الى حديث منه طلي
يديره بلباقة وحسن اداء . وكثيرا ما كان الحديث يسرق المحدث
الى ذكر بغداد والعراق ووصف اعمال هذين الاخوين من الامراء
الذين كانا يحكان العراق من قبل السلطان ، فحكما حكم ظلم وجمعا
الخراج قسرا وقهرا ، فساءت الحال وخاب الزرع وتفشت الادواء
واضطرب جبل الامن ، والحاكمان عن كل ذلك فى شغل
بمال يكنزانه ، وفرس يقتنيانه ، وجارية يبذلان النفيس فى
شراؤها . وشرط سعد الدولة على السلطان ان يأتية من الخراج
بضعف ما كان يأتية فى حكم الأميرين ان جعل اليه ولاية العراق .
وسرعان ما آمن السلطان بكلام الطيب ، فعزل الاخوين وجعل
اليه امر العراق ، فظهر كفاية وكياسة فى تهيد الامور واصلاح
ما افسد سلفه . فحسنّت الحال ورضى الناس ، أما السلطان
فاتخذ سعد الدولة وزيرا سنة ١٢٨٩ ميلادية .

وتسلم سعد الدولة ازمة الحكم فاستند مناصب الدولة الى
اخوته وذوى قرباه من اليهود ، وما رأى ذلك يهود العراق
وايران حتى ابتهجوا ، واستشعروا العزة بعد الذلة ، فما كان منهم
بالأمس القريب إلا دباغ وحائك وكاتب ، واصبح اليوم منهم

من لهم منزلة الامراء والعظماء ، واعتبروا سعد الدولة محررهم من
ضيمهم وذلمهم ورافعهم من وهدتهم ، وجاءوا اليه من الآفاق ،
ووقفت جموعهم ببابه وقد انطلقت السننهم جميعا بقولهم انه
الرجل الذي بعثه الله ليخلصهم ، ومنسائط الأمل في المجد
والسؤدد لبني اسرائيل في آخر الزمان ، وكان سعد الدولة على
هذه العقيدة ، فتزعمه حركة اليهود لاستعادة ايجادهم الغابرة جعله
رئيسا سياسيا وروحيا لهم . ويروى أنه كان يوما بجوار ضريح
الامام موسى بن جعفر ، واراد أن يتفأل بالقرآن على عادة
المسلمين في ايران ، وفتح المصحف فوقعت عينه على قوله تعالى
في سورة طه : « يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم
جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى ، ففرح
واستبشر ، وتصدق بمائه دينار . وقد قال أحد شعراء بغداد
متهكما فيما آل اليه امر اليهود على عهد سعد الدولة :

يهود هذا الزمان قد بلغوا مرتبة لا ينالها فلك
الملك فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يامعشر الناس اني قد نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك
فاتظروا صيحة العذاب لهم فعن قليل تراهم هلكوا

وكان سعد الدولة شديد العداوة للإسلام والمسلمين ، فأغرى السلطان ارغون بإبعاد المسلمين عن المناصب . والسلطان ارغون وهو المغولي الوثني معروف في التاريخ بكرأهته للمسلمين فقد سبق له ان فاوض البابا وملوك اوربا في تجهيز حملة صليبية من الأوربيين والمغول لطرد المسلمين من بيت المقدس وعاهدهم على اعتناق النصرانية ان وفقوا في ذلك . كما اقترح سعد الدولة على السلطان ان يهيء اسطولا في بغداد ليهاجم به السكينة ويجعلها هيكلا وثنيا . ونوى قتل عدد جم من علماء المسلمين بعد ان عرف سخطهم عليه .

ولما مرض ارغون مرضه الذي مات فيه جزع سعد الدولة جزعا شديدا لأنه كان موقنا بأن نهايته مرتبطة بنهاية مولاه ، لم يكن ذا أمل في الحياة بعده امام بطش اعدائه وهم كثر . وقد نسبوا مرض السلطان إلى سم دس له بإعاز من سعد الدولة . فقتلوه سنة ١٢٩١ ميلادية ، ولم يعلم السلطان بخبر مقتله ، ومات بعده بأيام .

واظهر المسلمون الشجاعة بموت الوزير . و ارادوا شفاء غيظهم من اليهود فاعملوا السيف فيهم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

نحمد من دار باسمك الفلك هذى اليهود القروء قد هلكوا
وقارن النجس سعد دولتهم واقتضجوا في البلاد وانتهكوا
وشتت الله شمل ملكهم وبالحسام الصقيل قد سبكوا
كم حكموا في البلاد لاحكموا وارتكبوا الموبقات وانتهكوا
ابكاهم الله عاجلا اسفا من بعدما في زمانهم ضحكوا
سقام الختف سادة خشن فامتألت بالجماع السكك
يا اخبث الطير يا بغيث لقد صادكم في الخيلة الشبك
هجوهم ابتغى بهجـوهم جنان خلد يزينها البرك
رغما لمن قال في قصيدته تهودوا قد تهود الفلك

جعفر خان يعود من الغرب

تمثيلية هزلية للكاتب الإيراني علي نوروز المتوفى
سنة ١٩٢٦ ، كان عرضها للمرة الأولى بطهران سنة
١٩٢٢ في حفلة اقامتها جماعة ايران الفتية ، تلك الجماعة
التي عقد اعضاؤها نفوسهم على ان يرتقوا بيلادهم إلى
ما هو ارفع ، ويقبسوها من حضارة الغرب علما
وقنا ، والتمثيلية تصور الحياة الإيرانية اوضح تصوير
غير ان المؤلف ينزع إلى المبالغة في وصف تأخر الشرق
وتقدم الغرب وان حمل ذلك منه على توضيح
الحقائق وشرح المبادئ ، وايضا ما كان ، فالمبالغة
لا تفهم إلا على أنها مبالغة ، وهذا ما قد يستملح
في فن الأدب .

المشهد الأول : المكان دار جعفر خان بطهران والزمان

عام ١٩٢٢ .

(نحن فى حجرة بدار قوم مستورى الحال ، جدرانها
العارية مطلية بالحص ، والبسط الايرانية مبدسوة على أرضها .
على يمنة الداخل باب يفضى إلى حجرة لحفظ المتاع ، وعلى اليسرة
باب يفتح على دهليز ، وفى احد الاركان منضدة صغيرة
وكرسى ، ويظهر على تلك المنضدة وعاء للحلوى وآخر مفعم
بالحص والزبيب إلى جانب سكين وشوكة ، وفى ناحية أخرى
منضدة صغيرة تحمل اناء للشاى وقيصا وجريدة وتقويما . أما
وسط الحجرة ففيه وسادة كبيرة . وتشاهد سيده ذات سن
حافية القدم فى ثياب ايرانية كان النساء يلبسها قديما ، وهى سترة
وسراويل وخمار للصلاة ، وقد جلست إلى جانبها فتاة تدعى
زينت بادية فى ثياب العصر الحديث المتميزة بالبساطة والقصر ،
والفتاة تزين وتتطرى ناظرة فى مرآة بيدها ، فتخط حاجبها
وترسم لها شاربا دقيقا جريا على عادة الايرانيات المتجملات .
الام - (وهى تدخن نارجيلتها) صلى احد حاجبيك بالآخر
لتكونى مقرونة الحاجبين ، اليوم يوم عودة جعفر الأعز
الأكرم ، فلزام عليك أن تظهرى بطلعتك البهية حتى يقتنع بأن
بناتنا لا يعوزهن شىء لبنات الغرب

زينت (وهي تخط حاجبها) خبريني ياخاله ، منذ كم رحل
جعفر خان الى بلاد الغرب

الام - منذ سبع أو ثمان سنوات . لقد كان صغيرا يوم
ارتحل عنا . اما الآن فلا بد ان يكون قد بلغ مبلغ الرجال حفظه الله
(متأوهة) ولكن اى جدوى فى ذلك ، لاشك انه اصبح رقيق
الدين فاسد العقيدة ، الا قاتل الله ابيه الذى انتزعاه من بين
يدينا ليكون فى صحبته عند الغربيين .

زينت - اصدقيني بالله ياخاله : أصبح مايقال من ان اهل
هذه البلاد يقتاتون بلحم القرود والذئب ، وما اشبه ٤١
الام - هذا حق لا ريب فيه ، هؤلاء الملاعين يأكلون من
كل شيء ، ويحتسون من الخمر صنوفا جعلها الله فى حلوقهم
لعاب الافاعي ! لقد قالت لى زوجة افتخار دفتر التى قدمت من
الغرب مع زوجها بأن لاهل هذه البلاد شرابا يتخذونه من جلود
الرهبان بعد موتهم .

زينت - نسأل الله السلامة ونضرع اليه ان يحفظنا . لقد
مر بسمعى انهم يعصرون الكونياك من النعال البالية والجوارب
المتنتنة ، اهلكهم الله واذهب ريحهم !

الام - نعم اليس كذلك ؟ ليس هؤلاء القوم على ملتنا
ليتخذوا لهم من الزبيب والعنب شرا باكالناس جميعا
زينت - (مظهره وجهه - ا) أيروقك وجهي الآن ياخاله ؟
الام - جميل جميل كبدر اللم ، وان كان يحسن ان تكتحلي
اما إذا لم يتيم حسنة هذا ولدى فياله من حمار ! (ثم تنادى قائلة
يا مشهدي اكبر)

المشهد الثاني (الام - زينت - مشهدي اكبر)
(يدخل مشهدي اكبر ، على رأسه قلنسوة من لبد وفي وسطه
منطقة ، اما جوربه فمن صوف مختلف الالوان)
مشهدي اكبر - ليك ياسيدتي
الام - دونك هذه النارجيلة ، قف بباب الدار ، ولتخبرنا
بمقدم جعفر خان حالما تشعر به .

مشهدي اكبر - الحمد لله حق حمده ياسيدتي ، لقد تراخت
بنا الأيام لترى عيننا جعفر خان . والله هو عندي أثر من
ولدى كما قد تعلمين ياسيدتي ، منذ ان يظن اني لم اكن له الا
مؤدبا لقد عدت اليوم سبع مرات نحو باب الدار ظنا مني
بأن الطارق جعفر خان ثم عرفت بعد ذلك اني كنت من

الواهمين . فان الطارق الاول لم يكن سوى القصاب ، و تلاته
امرأة هي زوجة على الغاسل ، و ثالثة الاثافي بائع من يهود .
و هممت بتقبيل اليهودى على انه سيدى ! ولا غرو فان لنا
عينا غاض بصرها ، فلم تعد تبصر كما كانت من قبل تبصر (يمسح
عينه) .

زينت ... ما بيكيك يا مشهدى اكبر ؟ و هبك قبلت اليهودى
هل فى ذلك من بأس ؟ (تتقطع ضحكا وتسعل)
الام - دق ظهرك بقبضة يدك ينقطع هذا السعال (تدق
ظهر زينت)

مشهدى اكبر -- خيرا يا سيدتى ، السعال بشير الهدية ، مد
الله فى عمر سيدنا ، لا احسبه الا حاملا الى منظارا او عينين
صناعيتين فى جملة ما يحمل من هدايا .

زينت -- ويحك يا مشهدى اكبر ماذا تقول ؟ اى عيون
هذه العيون الصناعية ! ايمكن ان تكون العين الصناعية (تضحك)
مشهدى اكبر -- والله يا سيدتى انها شىء عظيم ، لقد قرأت فى
جريدة من الجرائد ، ان الالمان توصلوا اخيرا الى اختراع عيون
احد بصر امن عيوننا . لآحمل الآن نار جيلة سيدتى (يحمل النار جيلة)

الأم - هل هيأت الكبش يا مشهدى اكبر ؟
مشهدى اكبر - نعم ياسيدتى ، لقد دفعت الشفرة إلى القصاب
لسنّها ، وسيحضر بها فى التو والساعة (يخرج)
الأم - وعمك يازينت ، الا يزورنا فى يومنا هذا ؟
زينت - بلى ، سيحضر غير انه توجه الى المسجد لشراء
شئ لمشهدى اكبر . اين وضعت مسحوق الوجه الابيض ؟
الأم - هنالك فى حجرة الامتعة

زينت - اذن اذهب لاصلاح هيئتى ثم اعود (يخرج)

المشهد الثالث (الام بفردھا ثم مشهدى اكبر)

الام (تنهض) - لا بد من تنظيم هذه الحجرة وتنسيقها
حتى تقع من ولدى موقع القبول . لقد هيأت له مقعده ،
وخطت له قميصا يلبسه فى نومه (تطوى القميص وتضعه على
المنضدة) ونضدت له فراشا فى الغرفة المجاورة . هو اليوم على
عادات الغربيين فاجته تمس الى هذا . (يرق الباب)

(تنادى) مشهدى اكبر يا مشهدى اكبر ، يالله قد اتانا جعفر ا

مشهدى اكبر - ناديتنى ياسيدتى ؟

الأم - الباب يطرق ، اذهب وعجل بفتحه ، انه جعفر العزيز

مشهدى اكبر - تقواين ان الباب يطرق ياميدتى ؟
 ما سمعت ، ولم يتبق للعين بصر ، ولكنى ذاهب فوراً (يخرج)
 الام -- اللهم قدر لى ان ازوج ولدى ، وارى حوله من
 الاطفال سبعة او ثمانية يهللون ويعبدون ويكفون وينفسدون
 اثاث هذه الدار ، ولتأحقنى بعد ذلك ياربى رحمتك ، ليس لى فى الدنيا
 امنية غيرها ، وزينت ستعينى وتشد ازرى فى القيام على خدمة
 الدار وستكون الى جانبي فى الحياكة وترقيع الثياب وكيفية طهو
 الطعام وقراءة القرآن ، وهى تمت اليه بالقرابة ليست ابنة خاله ،
 فزواج مثله من مثله قضاء مقدر وأمر مقضى . لقد عرضت
 الأمر على اخى فارتضاه . سنزفها إلى جعفر وسيقيمان معنا فى
 دارنا ، فنراهما من حولنا .

المشهد الرابع (الام - مشهدى اكبر)

الام -- اين هو ، ما باله لا يدخل ؟
 مشهدى اكبر - (فى يده رقعة للزيارة) سيدتى بشراك
 ياميدتى ، ان لى عندك حسن الجزاء ! انه هو ، هو جعفر نفسه
 امام الباب ، احمدك اللهم الحمد الذى انت اهله .
 مشهدى اكبر -- ياسبحان الله لست ادرى ، لقد فتحت

الباب فرأيت امامي شابا وسيا سمهري القوام ، عرفت فيه
جعفر خان ، وقلت ها انت ذا ياسيدي الأعز ، وقام في نفسي
ان اعانقه واغمره ثما غير انه دفعني عنه قائلا ، دعني لا يصبني
رشاش من بصاقلك ، انت تحمل الجرائم

الأم - حسنا . ولكن هلا اخبرتنى عما حال بينه وبين
الدخول ؟

مشهدى اكبر - لقد دعوته فما اكرث لدعوتي ، وقال لي ،
دونك رقعتي فاحملها إلى سيدتك ريثما انقل من العربية حقائبي ،
ثم سأل ان كنت في الدارام خارجها .

الأم - (تأخذ الرقعة) ما هذا ، ما انا بقارئة (وتدفع
الرقعة إلى مشهدى اكبر)

مشهدى اكبر - هذه كتابة أهل الغرب ولا علم لي بها ،
غير انى اذكر انه قال عنها انها رقعة الزيارة .

الأم - مهما يكن من امر ، عليك ان تدعوه إلى الدخول
مشهدى اكبر - سمعا وطاعة ياسيدي ، أنا ذاهب اليه
(يخرج)

الأم - (بمفردها) ولدى الحبيب . . لابد ان يكون قد لقي

من سفره هذا نصبا . لقد هيات له النقل والحلوى والسكين
والشوكه فليشبع جوعته . والظما لا اخاله إلا قد اجده ،
فلأذهب واحضر له خسايل به حلقه (تخرج)

المشهد الخامس (مشهدي اكبر - جعفر خان - كاروت)
(يبدو جعفر خان في حلتة الأوربية الرمادية اللون
وعليها معطف ، وفي يده قفاز ، يمانه تحمل حقيبة ، ويسراه
تقبض على سلسلة يقود بها كلبه ، ومن ورائه مشهدي أكبر وهو
يحمل حقيبته ومظلة وعصا يضعها على الأرض . يتكلم جعفر
خان الفارسية وفي لسانه لسكنة ظاهرة)

جعفر خان - (يضع الحقيبة على المنضدة) اف اف ! لقد
وصلت أخيرا . كانت طريقا طويلة وسفرة ، رمضة فغصصنا
بغبار حشوه الجراثيم (ينفخ الغبار عن حذائه وقلنسوته ،
ثم يخلع القلنسوة ليضعها على المنضدة ، ويلتفت إلى كلبه ناظرا
إلى الساعة في رسغه) - يا كاروت ، لقد غادرنا مدينة (ينجه
امام) في السابعة والربع صباحا ، فكأننا قطعنا الطريق في ثمان
ساعات وثلاث وعشرين دقيقة على التحديد .

مشهدي أكبر - والآن ياسيدي الاعز ، أمل ان يكون

العيش قد هناك في تلك الديار ، لقد غبت بضعة اعوام .
جعفر خان - نعم ، وفي ذلك الكفاية ، وانت يا مشهدى
اكبر ، كيف حالك ، مازلت حيا ، لم تمت !

مشهدى اكبر - ذلك من سماحتكم وحسن رعايتكم ياسيدى ،
لقد حفظ الله علينا نعمة العافية فبقيت فينا بقية . حمد الله لقد
قدم سيدنا من بلاد الغرب ، وهو الآن بسبيل ان يحيا حياة
جديدة ويتخذ له زوجة يسكن اليها .

جعفر خان - انا ؟ ما اصبث شاكلة الصواب يا مشهدى
اكبر ، الرجل لا يتخذ الزوجة لنفسه (يلتفت إلى الكلب) اليس
كذلك يا كاروت ؟ (يقول لمشهدى اكبر) اعطنى هذه الحقيبة
مشهدى اكبر .. كيف ذلك ياسيدى !

جعفر خان - هذه الحقيبة .

مشهدى اكبر - حسنا ياسيدى .

جعفر خان - (يتناول الحقيبة من يد مشهدى اكبر ، ثم
يفتحها مخرجا منها فرجون الملابس وكتابا فرنسيا ونضاحه عطر
ومشطا ، ويضع هذه الاشياء المختلفة على المنضدة) والسيدة

اين هي ؟

مشہدی اکبر - ستحضر فوراً یاسیدی
جعفر خان - (یسلم مشہدی اکبر سلسلۃ الکلب) امسک
بہذا لحظۃ یا مشہدی اکبر .

مشہدی اکبر - ولکنہ نجس یاسیدی
جعفر خان - کاروت نجس ؟! انہ انظف منک الف مرۃ ..
انی انظفہ بالصابون فی کل صباح ، اذهب یا کاروت . (یقبض
مشہدی اکبر علی طرف السلسلۃ غیر انہ یباعد بینہ و بین الکلب)
مشہدی اکبر - (متمتما متغیظا) انہ عمل لنا جدید ! لقد
اصبحنا حراسا للکلاب بعد ان سلخنا من العمر ثمانین عاما
وکنا المسلمین المؤمنین .

جعفر خان - الجوہنا خائق یزہق الارواح (یضغط علی
نضاحۃ العطر) الہواء محمل بالجراثیم . ولا شک .

مشہدی اکبر - ولکن اصدقنی یاسیدی ، الم تجد ہدیۃ
تحملہا الینا من بلاد الغرب افضل من ہذا الکلب . انہ کلب
اوربی قدر ، وکان اولی بک ثم اولی بک ان تتحفنا بمنظار .

جعفر خان - بمنظار ، ولماذا ؟

مشہدی اکبر - لقد علت سننا ، فکل بصرنا وقل سمعنا

جعفر خان - كم لك من العمر ؟

مشهدى اكبر - لما عاد والدك - رحمه الله - من اوربامع
الشاه ناصر الدين ، لم تكن ولدت بعد ، واذكر ان السيدة
الوالدة قد سقطت ثنياتها (يعد) عشرون عاما هنا وخمسة
وعشرون عاما هناك .. ستة وخمسون عاما .. وسبعة عشر عاما.
وبذلك يكون لى من العمر ثمانون او خمس وثمانون سنة ياسيدى
على التقريب .

جعفر خان - خمسة وثمانون عاما - انها لعادات قبيحة
تأذى بها الصحة ، فالأقلاع عنها من الضرورة .
مشهدى اكبر - عادات قبيحة ؟

جعفر خان - وهل فى ذلك من شك ، من يحيا حياة عادية ،
يمت بعد ستين عاما ، هذا اضرار بالصحة (يتقدم فى المسرح
ويقول لنفسه) لندخل الحمام ونغتسل فى الساعة السابعة وعشر
دقائق لا بد من الخروج لمقابلة مدام هلفا بازوف . لقد عرفت
هذه السيدة القوقازية فى الطريق وكنت رفيقها فى السفر ، منذ
زايلنا مدينة باكو ، لقد وعدتها بالزيارة لتقدمنى إلى زوجها الذى
قد ينفعنى فى قابل الايام ، انه يتجر فى السيارات .

المشهد السادس (الام - مشهدى اكبر - جعفر خان - كاروت)
الام - (فى يدها حزمة من خس) - يا الله يا الله ! (تقبله)
جعلنى الله فداء وجه لك كالقمر (تبكى فرحا)
جعفر خان - ولكن مايبكيك ؟

الام - آه لو تعلم ما صنع فراقك بى ، ولقد رقت عودتك
فطالت رقتى ، دعنى اقبلك ، ها انت ذا بعد ثمانى سنوات بتمامها ،
حمدا لربى (تبكى)

مشهدى اكبر - لم البكاء يا سيدتى ، لقد عاد سيدنا ، وهو
فى عافية لا بأس عليه .

الام - نعم ، كلا ، تقول حقا وصدقاً ، لقد انتهى الامر
(تكفكف دمعها) كم شمعة اوقدت من اجلك وكم فاضت يدى
بالعطاء على اولياء الله ، لتعود الى سالما غانما .

جعفر خان - اوقدت الشموع ؟ ولماذا !

الام - لتعجل فى ايابك ايها العزيز .

جعفر خان - آه ...

الام - خبرنى الم تنل منك وعشاء السفر ؟ الم تصب بوعكة ؟
جعفر خان - لم يكن السفر مضنيا ، وإن كان كاروت قد

سبب لنا ما كرهناه ورضقنا به .

الام -- كاروت . وما كاروت ؟

جعفر خان - اجادة انت فيما تقولين ؟ الم اقدمه اليك بعد (يشير إلى الكلب) هو السيد كاروت . ابسط ذراعك إلى السيدة يا كاروت ابسط ذراعك . انه لا يحذق الفارسية !

الام -- (تبتعد عن الكلب) ولكنه نجس ، بالله ما هذا الذي جئنا به !

مشهدى اكبر - ياسبحان الله .

الام - مهما يكن من امر ، حدثنا قليلا عن تلك البلاد واهلها عليهم لعنة الله . لقد حرموني من ولدي هذه الحقبة الطويلة من الزمان (تتأوه) حمدا لربي الذي احياني حتى اراني ولدي ، ما كان اطول تلك الصلوات التي اقناها من اجلك انت وزينت ، وكم مرة طفنا حول اضرحة الاولياء .

جعفر خان -- زينت ، ومن زينت ؟

الام - ويحك اما تعرفها ! ابنة رقية هانم التي كانت تغذوك إذا ما تغيبت للذهاب إلى الحمام ، او زيارة قبر الامام ، لعلك نسيت . جعفر خان - زينت ، الآن ذكرت ما قد كنت له ناسيا .

الام -- في عهد الطفولة كنت تلاعبها وكانت تلاعبك .
مشهدى اكبر -- كان جعفر خان يعايبها ويسمّيها (زين)
أى البرذعة ، فكانت تمتطى ظهره قائلة : ان كنت انا زين ، فمن
تمكون يا جعفر ؟ ...

جعفر خان -- كانت صغيرة يوم رحلت إلى اوربا .
مشهدى اكبر -- والآن ، لقد ربا عودها ، واكتمل حسننها
حفظها الله ، فأصبحت آنسة عاقلة مميّزة احسن التهذيب ،
وستشاهدها هنا بعد هنيئة .

الام -- نعم يا بنى ، إذا دخلت عليك فلتكن لها ملاطفا
بجاملها ، لقد طلبت لك يدها .

جعفر خان -- شكرا لك ، امهلىنى برهة حتى اتى عصاى
وتستقر بنى النوى . ولى بعد ذلك ان افكر فى اسرة لى اكونها .
بالله اى معنى لهذا ؟

الام -- ما معنى اننا جميعا نتزوج ، اليس ذلك كى تنجب
الزوجة ذرية صالحة ، وترعى شئون الدار ، وتزين لبعليها ؟

مشهدى اكبر (لنفسه) لنسأل السيد عن تلك العيون ونصيب
خبرها من الصحة (بصوت مرتفع) يقولون ان اهل اوربا

يصنعون العيون ، اصحيح مايقولون ؟

جعفر خان - وای عجب في هذا ، إذا ما ذكرنا انهم يصنعون

انوفاً وآذاناً و... وكل مالک رغبة في صنعه .

مشهدى اكبر - قاتلهم الله ، لقد اعيوا الشيطان خبثاً وفاقوه

حقاً . لم يبق إلا ان يخلقوا انساناً آلياً .

جعفر خان - اكبر الظن انهم موفقون إلى خلق هذا الانسان

الآلى بعد خمسة أعوام او ستة .

الام - ماذا تقول ! استغفر الله ، يخلقون انساناً آلياً !

جعفر خان - هذا ما لا ريب فيه ، ان عالماً امريكياً يتوفر على هذا

العمل ، وقد تناقلت الصحف اخباره في اوروبا وامريكا ، كما رآه الناس

على الستار القضى . وقد اعانتة الحكومة الامريكية بأربعة ملايين

من الدولارات ، للاتفاق على تجاربه العلمية .

مشهدى اكبر - ويحهم ! قاتل الله اباهم ! انا ذاهب لترتيب

حقائب السيد وتنظيفها .

جعفر خان - جئنى كذلك بادوات الزينة ، فـ... أدخل

الحمام .

مشهدى اكبر - اى ادوات ياسيدى ؟

جعفر خان - ادوات الحمام .

مشهدى اكبر - حسنا ، وهل لديك امر آخر !

جعفر خان - وهىء حجرة لكاروت ، وفراشه عندك فى الحقيبة الكبرى ، ومن حقه عليك ان تعامله بالحسنى ، وترعاه اكرم الرعاية ، فكاروت كلب مؤدب مدرب شديد الوفاء ينحدر من اصل انجليزى .

مشهدى اكبر - (لنفسه) ان اكرم كلباوارعاه ، هذا مالا عهد لنا به . (بصوت مرتفع) وليكنه ياسيدى لا يعرف لغتنا ، ولا علم لى بالفرنسية فكيف اخاطبه !

جعفر خان - خاطبه بالفارسية ، فان ذكاهه اشديد وفهمه اقريب واذا ماشئت ان تترجم اسمه ، فاعلم ان كاروت فى الفرنسية بمعنى جزر .

مشهدى اكبر - جزر ، (يلتفت إلى الكلب) يا جزر ، هيا

بنا ياسيد جزر (يخرج مع الكلب)

المشهد السابع (الام - زينت جعفر خان)

زينت (تدخل وهى سافر) انظرى ياخاله الى هذا المسحوق

(تفاجئها رؤية جعفر خان فتصرخ وتخرج هاربة)

جعفر خان (لنفسه) لا بأس بها لولا شاربها !
زينت (تدخل وعلى وجهها نقاب رقيق يستر اسفله)
اسعد الله صباحك .

جعفر خان - اسعد الله صباحك يا آنسه ، كيف حالك .
زينت - حالى كما تشاء مرحمتكم ان تكون .
جعفر خان - وكيف حال مرتضى خان ، ألم يحضر معك !
الام - لقد تخلف فى ضاحية (تاجر يش)
زينت - كان بوده أن يحضر ليحييك ، غير ان وعكة احتجزته
جعفر خان - اذن اسعى اليه لاعود فى يوم الجمعة .
الام - اذهب يا بنى الحبيب .

جعفر خان - كنا نتحدث عنك فيطول حديثنا .
زينت - ان مثلك لا يتحدث عن مثانا ، لقد شاهدت فى
اوربا من الملاح ما جعلك تسلوننا وتنسانا ، فأين حسننا من
حسنهن ؟ ولن نكون فى رأيك من بنات حواء بالاضافة اليهن .
جعفر خان - هذا ما لادوام له ، ستصبحن كذلك شيئا
مذكورا ، والعجب لك يا آنسة انك لم تزوجى بعد .
زينت - لم يجر بذلك قضاء الله .

الام - ان قلوب العشاق لتقفو الى محاسن لها وفضائل تتحلى بها ، وقد طلب يدها مائة منهم وعمها هو الذى امتنع من تزويجها
ففى عارفة بكل ما يروق الزوج ويسعده ، وحاجبها تخطفه ، والحلوى
تصنعها ، كما ترجم بالغيب ، ولها بالسحر دراية .

جعفر خان (فى نفسه) تلك هى الصفات التى تنفعنى ! (بصوت
مسموع) . حسنا وماذا تحسنان غير ذلك ؟ أتعرفين على البيانو
اتجيدين الرسم والتلوين ، اتلعين التنس ؟

زينت - حاشا لى ان اصنع ذلك ، اراقصة انا ام ممثلة
تطوف بالشوارع .

جعفر خان - نحن الباريسيين نظن ذلك . .

الام - وامصبتاه ! فتى من طهر ان يقول نحن الباريسيين !
المشهد الثامن (الام - زينت - جعفر خان - مشهدى اكبر)
مشهدى اكبر - لقد احضرت الككبش باسيدتى امثالالا لامرك
وهو فى المطبخ ، وانتظرتك لرغبتك فى ان تقصيه بنفسك ،
وهاهو ذا جارنا على الغاسل ، قد اشخص زوجته لتنال نصيبها
من اللحم .

الام - حسنا حسنا ، متنال نصيبها . تعالى يا زينت واعينينا

مشهدى اكبر - لقد وعدتني ياسيدنى بالرأس والاكارع
والىكرش فلأتنسى البر بالوعد .

الام - حسنا حسنا يامشهدى اكبر ستنال ما وعدت به .
زينت - (توجه القول بدلال الى جعفر خان) لتكن
قراءة هذه الجريدة مسلاتك حتى نعود اليك . (تقدم اليه جريدة
كانت على المنضدة)

جعفر خان .. شكرا يا آنسه (الجميع يخرجون ماعدا
جعفر خان)

المشهد التاسع (جعفر خان بمفرده)
جعفر خان . لا بأس زينت لولا هذا الشارب (يقعد على
الكرسى ويقرأ الجريدة) فيجد ما يأتى : -

حفلة تمثيلية تقام لاعانة الجريدة الوحيدة فى بابها (جهنم)
هلموا لاتندموا ، فى ليلة الجمعة ٢٩ ربيع الثانى ، المسيو
شاكال الفذان الطائر الصيت بالمسرح الامبراطورى فى فلاديفستوك
مع صاحبه فى بهو الجرانداوتيل سيرضان رقصات أدبية
واجتماعية على الطريقة الاوربية الحديثة . هلموا لاتندموا .
لا بأس ، هاهى ذى الحياة تدب فى طهران ، ثم يقرأ (انباء

داخلية على جانب من الالهمية . لقد شرف امس دولة رئيس الوزراء المحكمة وشرب كوبا من الماء القراح ، وكان الوزراء جميعا في حضرته وقد استمرت الجلسة إلى ما قبل الغروب) ويقلب الصحيفة (وصل الى العاصمة السيد مفتخر الذي يعتبر من شباب البلاد الخيرين العالمين العاملين بعد ان قضى ثلاثين عاما بالجامعات الاوربية في دراسة الفلسفة والعلوم والرياضة البدنية وفن النحت ونظرا لكل ما بذل من جهد في تحصيل هذه العلوم ، رأت الحكومة تعيينه في ادارة الري وسيتولى قريبا مهام منصبه) من هذا الذي يقول ان المثقفين لا تقدر ثقافتهم حق قدرها في ايران ، يالها جريدة قيمة تأتي بأحسن الاخبار وتعرض احكم الافكار ، لنقرأ هذا العنوان (يقرأ في الصحيفة الاولى) (العاصفة .. جريدة سياسية ادبية علمية اسبوعية اخلاقية اجتماعية مصورة ، فلسفية عملية وطنية اقتصادية .. مقر الجريدة .. شروط الاشتراك وما يجرى هذا المجرى) (يقوم) لا بأس والله ، الاحوال تنتظم والامور تنسق في ايران شيئا فشيئا (يقترب من صحن النقل) ماذا اعدوا لنا يا نرى . حمص وزبيب الم انعم بأكلها منذ زمن بعيد (يقعد) وامكن كيف يؤكل هذا ؟ لا وجود للمنشفة . (يأكل بالشوكة) .

المشاهد المباشرة (جعفر خان ... الخال)

الخال (لنفسه) كيف هذا ! ، يأكل الحمص والزبيب بالشوكة (ينادى) جعفر خان يا جعفر خان .

جعفر خان ... خالي . (يقف ويمد إليه يده مصافحا) .

الخال ... (يذبح يده جعفر خان) ما هذا ! لست بمن يصافحون باليد (يقبل وجهتي ابن اخته) مرحبا بك مرحبا سجدتنا ماذا سمعت في بلاد الغرب .

جعفر خان ... كنت فيها هانيء العيش ناعم البال مرضى الحال ، مع شدة الأسف على بعدكم عني .

الخال ... لا ، لا تأسف على بعدى عن تلك البلاد ، ورجائي ألا تتمنى لي أن أكون فيها . كيف رأيت طهران ؟ جعفر خان ... وجدت فيها بعض التغير .

الخال ... كيف ؟ ماذا وجدت .

جعفر خان ... فيها أحوال تبدلت ، وأهوار تحسنت ، فالقوم يستهيجون بالسكر بام ويرشون شوارعهم .

الخال ... ثم ماذا ؟

جعفر خان ... يلوح لي ان جبال البرز قد عظم ارتفاعها .

الحال — كلا يا سيدى كلا . الاستصباح بالكهرباء ورش
الشوارع لتجميل المدينة ! انهم بذلك يفسدون طهران افسادا
لا صلاح بعده أبدا . بالله أى حاجة بنا إلى نور الكهرباء
ورصف الشوارع ؟ تأمل لقد قبضوا على المتسولين المساكين
وأخرجوهم من المدينة ، وصنعوا بالمجانين ما صنعوا بالمتسولين
ليقال عنهم انهم شيدوا ملجأ للمعوزين والزمنى ، وينسب إليهم
فضل انشاء بیمارستان لمن ذهبت عقولهم .

جعفر خان — تلك مؤسسات ما أعظم نفعها . وبمثلها
تمضى البلاد قدما نحو الحضارة والتقدم . ان بلاد أوربا لا تخلو
من بیمارستانات ، والملاجىء للآيتام والعجزة .

الحال — على رسلك يا بنى مادمت تخاطبنى على قدر عقلى
وباللغة التى أفهمها .

جعفر خان — أريد لأقول انه لزام علينا أن نحذو حذو
الأوربيين مادمنا ننشد التقدم .

الحال — كلا ياسيدى — كلا ، هل كان هؤلاء الغربيين
وجود على عهد سليمان بن داود ؟
وهل ظهرت الجامعات وملاجىء العجزة ومعاهد باستور فى

ذلك الزمان ؟ ومع ذلك كان الناس بخير . ان ملاجىء العجزة
هى علة عجزنا اليوم . اسمع أيها العزيز ، ان تقليد الغربيين تقليد
القرود لن يحدينا نفعا .

جعفر خان - (لنفسه) ان مائى وماء خالى لا يجريان فى
نهر واحد كما قال الحوذى يوما فى طريقه ، فلا طائل من ذلك
النقاش .

الحال - لقد دخلت الحجرة بنعليك ! اخلعها .

جعفر خان - أخلع نعلي ؟

الحال - نعم لا بد من ذلك .

جعفر خان - واسكن للصحة

الحال - ليس للصحة فى ذلك من دخل وإلا فما هو ؟

أنت تنجس الحجرة كلها ، والبساط الذى عليه تصلى .

جعفر خان - إذا خلعت نعلي اتسخت قدمائى .

الحال - كلا ، اخلعها اخلعها .

جعفر خان - (لنفسه) ان كانوا سيبدأون فى مضايقتى

من الآن ، فلن يكون دوام لهذه الحال (بعد تردد) لنصبر

قليلا ولنظهر بعض الطاعة فى البداية ، وبعدها يمكننا أن نملى

إرادتنا في يسر وسهولة (يخلع نعليه)

الحال — اسمع الآن ، بعد أن عدت إلى وطنك سالما غانما
فقد حققت أن تجارى قومك في كل ما لهم من عادات ،
لا بد لك من أن تأكل بأصابعك وتطهر فاك بعد الشرب
وتنام على الأرض و ... وقلنسوتك .

جعفر خان — لقد خلعتها لتهوية رأسي ، انها مسألة
صحية .

الحال — ما هذه الصحة التي تترنم بذكرها ، يا هذا ضع
قلنسوتك على رأسك . أنت إيراني فلا تتكلم بهذا الكلام
(يهم بوضع القلنسوة على رأس جعفر خان) .

جعفر خان — قال الطبيب ان لبسها على الدوام يورث
الصلع .

الحال — ماذا ؟ !

جعفر خان — سيتساقط شعر رأسي .

الحال — ان طبيبك هذا أوقع من ذئب . وما يدريه هو .
عليك أن تنتصح بنصيحتي أنا . إذا لم تلبس قلنسوتك في إيران
فستجد من يضعها لك على رأسك (يضع القلنسوة على رأس

جعفر خان) نحن الايرانيين علينا أن نتعلق بقلنسوتنا أشد
التعلق ، فانها آخر ما تبقى لنا .

جعفر خان — (يخلع معطفه ويقول في نفسه لقد بدأ
يشير اعصابي) .

الخال — القلنسوة رايتنا ، هي العلم ، هي التاريخ ، هي
الوطن (يلحظ رباط عنقه ومنديله المظل من جيبه) وما هذا
أيضا وذاك . أنت فاسد الهندام (يقول له ناصحا) اخلع كل
هذا واطرحه .

جعفر خان -- (وهو مستاء) ولسكن ياسيدى هذا رباط
للعنق وهذا منديل ، تلك امارات المدنية فكيف اطرحها
المشهد الحادى عشر (الخال -- مشهدى أكبر --
جعفر خان -- كاروت)

مشهدى أكبر (فى يده سلسلة الكلب) سيدى ان هذا
الكلب آخذ فى مضايقتنا ، لقد دخل المطبخ ووجد كرش
الذبيحة فاعمل فيه أسنانه ولسانه .

جعفر خان -- هذا لا يقبله العقل يا مشهدى أكبر ،
كاروت كلب مدرب لا يأكل الكرش .

الحال — بسم الله الرحمن الرحيم ، ما هذا ؟ وأين وجدت هذا الكلب .

مشهدى أكبر — بالله ما ذا عسيت أن أقول ، جزر ملك سيدى وقد جاء به من بلاد الغرب .

الحال — (لجعفر خان) اهو تحفة نادرة ١٩ (لمشهدى أكبر) اطلقه فى الطريق ، سينجس كل شيء هنا .

جعفر خان — كيف يطلق كاروت فى الطريق انه تذكر من مدام هافا بازوف . لقد أنفقت عليه كثيرا منذ صحبتته من باكو إلى هنا ، فدفعت له رسم الجرك وثمان تذكرة الباخرة وأجر العربة والآن تقولون عنه انه نجس !

الحال — لا إله إلا الله ، لقد أصبت بالجنون حقا من أوربا (لمشهدى أكبر) احمل الكلب احمل الكلب (مشهدى أكبر يتهيا للخروج) .

جعفر خان — أنا أعترض (يعدو خلف مشهدى أكبر ويلحق به) لا تطعه يا مشهدى أكبر ولا تذهب لاطلاقه . (مشهدى أكبر يخرج بالكلب) (يقول جعفر خان فى باله) متى يتحضر هؤلاء القوم .

الحال - اسمع يا بني . لسنا في أوروبا ، نحن في إيران
وديننا الاسلام . لا حاجة بنا إلى تلك المدنية التي تذكرها
ولا يمكن أن نواكل الكلاب ، وإذا ما شئت أن تعيش بين
ظهرانينا فاجعل نصب عينك اطراح هذه البدع . ولزام عليك
أن تطرد كلابك وتزيا بالزي الإيراني . لا تكوسر اوبلك ، ولا
تكن صاحب رأى . والآن عجل بالذهاب لتغيير مابك ثم
عد لأحدثك .

جعفر خان - ولكن . .

الحال - كلا كلا ، افعل ما أوصيتك به ، البس ثوبا إيرانيا
وستفهمنى أحسن مما كنت تفهمنى (يخرجه ثم يقول بصوت خفيض)
لا إله إلا الله .

المشهد الثانى عشر (الحال - الأم)

الأم (تحمل صينية عليها فنجان) - أين ولدى لقد احضرت
له شوكولاته .

الحال - شوكولاته ! دعى هذا أيتها الأم ، لقد أفسدوه
ماوسهم ان يفسدوه فى أوروبا ، اتطلبين بذلك مزيدا من افساده
الأم - لقد تحضر ولدى واصبح من عاداته أن .

الحال - كلا لا تطيعه (تضع الصينية على المنضدة) ارفعى
هذا عن المنضدة ، أى حاجة به إلى كرسى وشوكة ، لابد من
تعليم هذا الفتى ، انه مخبول ، لقد أدخل الكلب النجس حجرتنا ،
أقول هذا لصالحه ، ثم ألسنا راغبين فى أن نوجه زينت ؟ إذا لم يخرج
عن عاداته فكيف تكون العشرة بينهما ! سيئى عشرتها ويكدر
عيشها ، سيطلب اليها أن تنام على سرير وتخلو أسنانها بالفرجون
وتأكل على المنضدة وسيحذرها الجشاء ، أنا لا أحب لزينت
أن تشقى فى حياتها . فانا أ كفلها بعد موت أبيها ، وكنت اوثرها على
أولادى حتى بلغت مبلغ النساء ، ولابد من مداومتى على تلك
الرعاية الأبوية .

المشهد الثالث عشر (الام - الحال - مشهدى اكبر)

مشهدى اكبر - سيدتى سيدتى ، لقد تجرد جعفر خان
من ملابسه فى فناء الدار وجعل يملأ الابريق ماء ثم يشنه على أم
رأسه ، ولما سأله عما يصنع ، قال انه يترد ، وقد دخل الآن
غرفة الأمتعة وأخذ يتفقد ملابس سيدنا المرحوم . ولما قلت له فى
ذلك أجبني بقوله ، صه يا هذا فأنت تؤذى أعصابى ، وأخشى
ما أخشاه عليه هو ذهاب عقله لا قدر الله

الحال - (للآم) انظري ، ألم أكن على حق في قولي
بوجوب تربيته وتعليمه .

الآم - لن يدوم على هذه الحال ، فهذا أبوه قد عاد من
الغرب بعادات قبيحة كما عاد .

مشهدى اكبر (لنفسه) العصا من العصية ومن شابه اياه
فما ظلم .

الآم - سيتمدن شيئا بعد شيء ولن يوافق الشتاء حتى يكون قد
نام بجانب المدفأة وأقلع عن عادة صب الماء على رأسه ،
وأطلق شاربه .

الحال - كلا يجب العمل من الآن قبل أن يتسع الخرق
على الراقع .

مشهدى اكبر - السيد على حق ولا ريب ، ما أنس
لا أنس قوله لى ان الانسان يجب أن يموت بعد بلوغ
السبعين .

المشهد الرابع عشر (الآم - الحال - مشهدى اكبر -

جعفر خان)

جعفر خان (خلع ياقته ورباط عنقه ولبس قميصا ايرانيا

فعضفاضا) - لم اجد سوى هذا القميص ، انه واسع بعض السعة .

الأم - لا بأس أيها العزيز ، ليس عيبه بظاهر .

جعفر خان - في هذه الأيام القلائل ، سأكون كما

يريدون لي أن أكون ، ثم سأعليهم المدنية ما هي فذلك مبدأ

ادار عليه السياسي الفرنسي تاليران سياسته (بصوت عال)

اسقني يا مشهدي أكبر ، وليكن الماء مغلياً حتى تموت جراثيمه

مشهدي أكبر - سمعا وطاعة سيدي (يخرج) .

الأم - (لجعفر خان) تعال لقد هيأت لك ياقة ايرانية

بدلاً من الأفرنجية (تعلق في عنقه تميمة) .

جعفر خان - ما هذا ! ماذا تصنعين ؟

الأم - حذار من لمسها يا ولدي ، انها وقاء من العين

الشريرة .

جعفر خان - العين الشريرة ؟

الحال - تعال يا ولدي علق هذه التميمة في ذراعك ، لقد

ابتعتها لك اليوم (يعلق التميمة في ذراعه) .

جعفر خان - ماذا أصنع بتائمكم ؟

الحال - من حملها امن المرض .

جعفر خان ۔ (ہازا رأسہ) حسنا حسنا حسنا ۔
مشہدی اکبر ۔۔ (یدخل وهو يحمل كوبا من الماء كبيرا)
تفضل یا سیدی ۔

جعفر خان ۔۔ هل تأكدت من غليان هذا الماء قبل
احضاره وخلوه من جراثيم الأمراض ؟
مشہدی اکبر ۔ لقد نضجت الجراثيم ، خذ وانظر
بنفسك ۔

جعفر خان ۔۔ (ينظر في الماء) حسنا (في اللحظة التي
يهم فيها بوضع الكوب على فمه يعطس مشہدی اکبر) ۔
الأم ۔۔ صبرا یا جعفر صبرا ۔
جعفر خان ۔۔ وكيف ؟

الأم ۔۔ لا تشرب فهذا (صبر) ۔
جعفر خان ۔۔ لقد طلبت هذا الماء لأشربه ،
الجميع ۔۔ لا لا ۔ لا يحسن بك أن تشرب فهذا (صبر) ۔
جعفر خان ۔۔ ماذا تعنون بهذا الصبر ، أنا ظمآن (يهم
بالشرب) ۔

الحال ۔۔ (ينزع الكوب من يده) لقد جاءنا (صبر)

فلا تشرب .

جعفر خان -- (يذعن) ماذا أقول !

مشهدى أكبر -- اسمع يا سيدى العزيز إذا جاءنا (صبر)
فلا بد أن تصبر والا نالك مكروه -- أخرس الله لسانى -- كأن
تشرق بالماء (يعطس) .

الجميع -- هذه (عجلة)

الحال -- لقد جاءتنا العجلة (يقدم السكوب الى جعفر خان
اشرب الآن .

جعفر خان -- كيف ؟ ان كان شرب الماء لا يستحب بعد
العطس فهو لا يجوز الآن .
الحال -- كلا ، كانت العطسة الاولى صبرا اما العطسة
الثانية فعجلة .

جعفر خان -- ماذا تريدون بصبركم وعجلتكم ، دعونى
وشأنى ، لا اريد الشرب .
الجميع -- انها عجلة .

الحال -- هذا لا يجوز ، متى وجدت العجلة فالشرب واجب
(يرغمه على الشرب)

جعفر خان -- ما هذه المشاكل التي ارتبك فيها .
 الخال (للأم ومشهدى اكبر) اريد ان افاتح جعفر خان
 في أمر زواجه فيحسن بكما أن تتركنا وحدنا .
 الام -- حسنا اذن نخرج (تخرج الام ومشهدى اكبر) .
 المشهد الخامس عشر (الخال - جعفر خان) .
 الخال -- تعال يا جعفر خان ، اقعد هنا لافضى اليك بشيء .
 جعفر خان -- حسنا (يهم بالقعود على الكرسي) .
 الخال -- لا لا . (يشير الى البساط الذي قعد عليه
 كدأب الايرانيين . يقعد جعفر خان الى جانبه وان كان
 لا يحسن القعود) ، نحمد الله على عودتك من أوروبا وبقائك
 في ايران .
 جعفر خان -- لست على ثقة من ذلك واكبر الظن اني . .
 الخال -- لا ، لا تقل هذا ولا تخطر على بالك ، لقد
 استقر بك المقام في ايران ، ففكر في عيش لك تبنيه ، ودار لك
 تؤويك ، وحياة جديدة تنشؤها ، ومعنى هذا أن يصح منك
 العزم على الزواج ، وقد شاورت اهلك في الامر واخترنا لك
 زينت .

جعفر خان - لقد قررتما ذلك ؟ شكرا لكما
الحال - نحن في ربيع الاول ، والزواج لا يستحب في هذا
الشهر ، فلنرجى ذلك إلى الشهر المقبل إن شاء الله .
جعفر خان - الشهر المقبل اوفق ، ولكن قد يكون لي رأى
خاص ابدية .

الحال - لقد فكرت انا وامك في كل ما يمكن ان يحول
بفكرك ، سنحدد من الايام المقبلة ما نقيم فيه حفلات العرس
التقايديّة ، ثم ندعو الشيخ ظريف الشريعة لعقد القران وفي نهاية
شهر رجب سنحدد ليلة الزفاف .

جعفر خان - عفوا ، نحن نسير سيرا غنيضا فعلى رسلنا ،
ولا يسعني الا ان اطلعكم على عدم رغبتى في الزواج ، وإذا
تزوجت فلن اتزوج ايرانية .

الحال - لن نتزوج ايرانية ! ان كان الامر كذلك فالزم
الصمت ، لان الاوربيين لن يقدموا اليك بناتهم للزواج . وإذا لم
يكن من الامر بد فستكون الزوجة من اللاتي تعرفهن . فهدام
جعفر خان اما طاهية او غاسلة أو راقصة .

جعفر خان - لو فرضنا جدلا اني سأتزوج ايرانية فذلك

معلق بشروط لا يمكن قطع النظر عنها ، فلا بد بادىء ذي بدء
من معايشرة الخطبة مدة من الزمن ودراسة طباعها للتأكد من
امكانية التفاهم معها ، وهذا ما يتطلب من الاعوام خمسة أو ستة .
الحال - بعد الزفاف ينفسح الوقت لمعرفة الزوجة حق
المعرفة ، فلا ضرورة لكل ما ذكرت .

جعفر خان - نعم ولكن بعد ان يسبق السيف العذل ،
ولا بد للانسان ان يكون قد رأى ذلك الوجه الذى سوف يراه
آناء الليل واطراف النهار .

الحال - بعد الزفاف سيرنى كل صاحبه رؤية تفى بحاجته
وتسد همته .

جعفر خان - وما جدوى ذلك بعد الزفاف ؟
الحال - الرؤية محرمة قبل الزفاف ، انك ايها العزيز لا تميز
خيرا من شرا

جعفر خان - وهل من الشر ان اعلم ان كان لزوجتى انف
طويل او مستدير ؟

الحال - ان كان الامر كذلك فلتكن هادىء البال من هذه
الناحية ، فلا عيب فى انف زينت . ولكن لا يعزبن عن فكرك

ان هذه الامور لا تحتل المزاج ولا التندر ، حذار من ان تتحدث
عنها في مجالسك والا عرضت نفسك للرجم .. وهناك موضوع
آخر احب ان احدثك عنه ، لقد سلخت تسعة اعوام في الدراسة
باوربا ثم عدت إلى طهران ، فماذا تنوى ان تصنع ؟
جعفر خان - اريد ان التحق بعمل إدارى واتبوا منصبا
من المناصب .

الحال - وما وسيلتك إلى هذا المنصب ؟
جعفر خان - اتقدم إلى مصلحة من المصالح أو وزارة من
الوزارات ، واذكر مؤهلاتي الدراسية .

الحال - مهلا يا صديقي ، هذا لا يجديك فتىلا ، لست ذا
تجربة في ذلك ، دعنى اوقفك على حقيقة الامر . لا بد قبل المضى
في ذلك من ان تكون على وفاق مع نفر من الناس تستعين بهم
على انجاح مسعاك . وبعد ايام تلبس من صالح ثيابك وتحرص
على ان تبدو في هيئة أهل الفضل والوقار ، وتذهب إلى الوزير
في الصباح الباكر . وهناك تحييه وتجله اجلال من يتملق له
طمعا في قضاء حاجة عنده ، فتخلع عليه انخم الالقاب وتسميه
اكرم الاسماء ، ثم تذكر الغرض من زيارتك ، ولا بأس من

ان توردي في كلامك بضعة ألفاظ كالوطن والدستور . و حذاريك
يا بني ذكر دراساتك ، اما إذا سألك عن نوع اختصاصك
العلمي فلا تنس ان تقول انه من الفحة ذكر العلم في حضرتكم
وادعاء التبريز فيه امامكم ، وخادمكم اجهل من راعي ضأن فهو لا يميز
الالف من العصا !

جعفر خان - وهل يسنى لي هذا ان انال المنصب الذي
اصبو اليه !

الحال - وهل في ذلك من شك ؟ واذا لم توفق بذلك في
المسعى فعليك بوسيلة اخرى . تصير الى الوزير ، فتسلبه وتتوعده ،
وفي الغاء تدفع الاجر لجريدة تنشر مقالا ضده ، وبذلك تنال ما تمنى
وإذا لم تفلح هذه الحيلة (يتظاهر بعد النقود) فضع خطابا في
ظرف يحمل إلى مكتب معاليه ، وهذه الوسيلة لا تخيب ابدا .
جعفر خان - هذه مسألة من مسائل الاقتصاد السياسي وان
كنت لا افهم السبب في ارسال الخطاب إلى مكتب معاليه .

الحال - يمكن ان يتسلبه بيده ، غير ان هذه الحيلة كانت
تتخذ مع اصحاب المعالي الاقدمين الذين كانوا يتظاهرون بالاتي
والورع ، كمن يغسل سجاده في كل يوم ليدرك الناس من ذلك

انه قوام يطيل الصلاة والتعبد ، والواقع من الامر ان سجادته
اذا اتسخت فانها لا تنسخ من صلاته عليها !

المشهد السادس عشر (الخال - جعفر خان - الام -
مشهدى اكبر)

مشهدى اكبر - لقد هيات لك الحمام ياسيدى بكل ادواته ،
غير انى لم اعثر على الاسفنجة فوضعت لك حجرا بدلا منها .

الخال - تريد الذهاب اليوم إلى الحمام ؟

جعفر خان - نعم ، انا اليوم قادم من سفرى وقد تراكم
على الغبار والجراثيم .

الخال - فى اى يوم نحن ؟

الام - الثلاثاء .

الخال (لمشهدى اكبر) ناولنى هذا التقويم لنعلم ان كان يوم
الثلاثاء يوما موافقا للذهاب إلى الحمام .

جعفر خان - نعم ؟

الخال (يأخذ التقويم من مشهدى اكبر ويفتحه) تريث
قليلا (يقرأ فى التقويم : ربيع الاول ، ربيع الثانى ، الاثنى ،
الثلاثاء ، الاربعاء الساعة الرابعة والدقيقة الثانية والثلاثون

والثانية السابعة عشرة بعد طلوع الشمس ، ويدخل القمر في
برج العقرب ، هذا الوقت وقت سعد لوضع الاطفال في المهد ،
وخياطة الملابس الجديدة ، وخلع الاسنان ، والفصاد . وهو
وقت نحس لبناء المساجد ، ومقابلة العظماء ، وعقد القران ، ونثر
الحب . وسعد للنختان ، والفظام ، وتسويق البضائع ، وصيد
السماك . ونحس لارسال الهدايا ، والضرب ، وركوب البحر ،
وتناول المسهلات ودخول الحمام . فدخول الحمام محظور ولا
يستحب ان تذهب اليوم إلى الحمام .

جعفر خان - كيف ؟ كيف يكون الاغتسال شرا ؟

الخال - اذهب في يوم الجمعة فهو اوفق لذلك .

جعفر خان - اوفق ، واسكنى متسخ الجسم ولم اغير قبصى

منذ امس .

الام - ليس هذا شيئا يذكر يا بنى . انتظر إلى يوم الجمعة

فانه افضل .

جعفر خان - دعونى من هذا ، ودعونى اذهب وامح عنى

اوساخى فى ذلك الخير كل الخير .

الجميع - لا يستحب ذلك اليوم فانه يوم شؤم .

جعفر خان - اه ، وعليه فلن اذهب ابدا حتى ولا في يوم الجمعة ،
لا بد من زيارة مرتضى خان .

مشهدى اكبر - اريد زيارة مرتضى خان ؟ السفر اليه غير
مرغوب فيه يوم الجمعة .

الحال - سنستطلع الرأى فى التقويم (يفتح التقويم)
جعفر خان - لا جدوى من ذلك ياعم لا جدوى ... انا
مقتنع !

الحال - انتظر برهة حتى ارى (يقرأ) ربيع الثانى ، الجمعة يحسن
فيه غرس الاشجار ، تقليم الاغفار ، تغيير المسكن . الاقتراض
جعفر خان - هذا صحيح لا ريب فيه .

الحال - لا يجوز فيه التأجير ولبس الجوارب والمرض
وتحرير عقود سرية .

جعفر خان - كفى بالله كفى ، انا موافق على ذلك .
الحال - لا مانع فيه من قشر الخيار والضحك والارتشاء
جعفر خان - انا مستسلم مطيع .

الحال - والنحس لا شك يدرك من يؤدى الدين ويتصل
باهل الحل والعقد ويسافر برا .

جعفر خان — حسنا لن اسافر برا (لنفسه) يا الهى ماذا
عسيت ان اصنع مع هؤلاء القوم (يتغيط ويتناول كتابا على
المنضدة ويتصفحه)

الام — ما هذا فى يدك ايها العزيز ، ان كان كتاب صلوات
او عظات فضعه جانبا لتقرأ لنا منه بين الحين والحين .

جعفر خان — انه تمثيليات مولير

الحال — اتقرأ التمثيليات .

الام — ويلاه هل اصبحت ممثلا ! ؟ !

الحال — لا ينقصك الا ان تكون موسيقيا او راقصا .

جعفر خان — ... للتمثيل نفاسته وعظيم اهميته فى اوربا
وقد يكون للممثل او الممثلة من التأثير على الجماهير مالا يكون
لرجل الدين بمواعظه .

الحال — التمثيل عندنا هو القره كوز والحاوى ودع الباقي
جانبا ، ان السفر الى اوربا ليس سببا يدعوك الى نبذ فضائلنا وتقليد
الغريبين تقليد القردة .

جعفر خان — (لنفسه) سيحطمون أعصابي تحطبا
(ينظر فى الساعة) الخامسة وست عشرة دقيقة ، لقد تأخرت

نست دقائق عن موعد مدام هافا بزوف التى تنتظرنى ، هذا مې
غاية السوء . (بصوت مرتفع) انا مشغول بعمل فى الخارج
فليس من الخروج بد (يلبس حذاه) .

الحال - ما الذى يشغلك وانت لم تكند تصل ...

الام - ستحضر للعشاء لقد طهيت لك لحما شهيا .

جعفر خان - فى اى ساعة تتناولون العشاء ؟

الام - بعد غروب الشمس بساعتين أو ثلاث ساعات

جعفر خان - ساعتان او ثلاث ساعات ، هذا ما لا افهم ،

ان كنتم تأكلون فى منتصف الثامنة حضرت فى منتصف الثامنة

وان كان العشاء فى الثامنة الا الربع حضرت فى الثامنة الا الربع . وان

كان العشاء فى الثامنة والثلاث جئكم فى هذا الميعاد .

الام - احضر حالما تشمر بالجوع .

جعفر خان - (بصوت خفيض) آه لو تمكنا من ادخال دقة

المواعيد فى هذه الروس (بصوت مسموع) السلام عليكم

مشهدى اكبر - (يعطس) .

الجميع - صبر صبر .

جعفر خان - هذه المرة ليست لى (يهم بالخروج) :

الحال -- كيف ذلك ، انتظر

جعفر خان -- قد يلزم الزكام هذا الشيخ الى يوم مماته ،

فما لي وله ؟ !

الجميع -- لا تخرج هذا محال .

جعفر خان -- يا عجباً لهؤلاء الناس ، انهم لا يدركون حتى

سياسه تاليران . (يفكر برهة) وإذا جاءت العجلة سأتمكن

من الخروج . (ويعطس) .

الأم - لا يا ولدى لقد تظاهرت بالعطس .

مشهدى اكبر - ولا بد ان تكون العجلة منى ياسيدى .

الحال - لسنا مازحين .

جعفر خان - (لنفسه) سأعود إلى التغيظ والتبرم (يرتفع

صوته) اريد ان افهم العلاقة بين انف هذا الرجل وبين رغبتى فى

الخروج .

الحال - استغفر الله ، انت تركب الشيطان فترجل عنه ..

انت لا تفهم يا سيدى ان هذه أشياء لم نختلقها ، لقد وجدت

على الدوام وستبقى على الدوام .

جعفر خان - ان تفكيرى العاجز يقصر عن هذا المستوى

انا ذاهب .

الجميع - (يمنعونه) انت تطلب المستحيل .

جعفر خان - انا اعترض (بصوت خفيض) يا لهم من
سوائهم ! (ويقطع الحجرة جيئة وذهابا) ان بقيت لحظة معهم
فأنا ميت كمدا ومنشق غيظا (يرفع صوته) ايها السادة ، لقد
رأيت من صبركم ، ما عيل له صبرى . لقد كان من خطل الرأى ان
عدت إلى تلك البلاد ، والآن أسألكم اجازة واذهب (يجمع
امتعته ويضعها في حقيبته)

الام - كيف !

الحال - ماذا ؟

المشهد السابع عشر (جعفر خان . الحال : الام : مشهدى
اكبر : زينت : كاروت) زينت - (فى يدها رباط الكلب) لست
ادرى ماذا اصنع بهذا الكلب القذر لقد دخل التلية واكل كل
ما كان فيها من قشدة وشمع وحلوى .

الام - ليا كل الحلوى .. ان زوجك ذاهب يا زينت فامنعه
من الذهاب .

جعفر خان - عشى فى الحجرة غاضبا (لارغبة لى فى ان

اكون وزيرا ولا نائبا ، ولا فى امتلاك العربات والسيارات .
فلأرجع إلى البلاد التى قدمت منها على مافىها من شرور وآثام .
هيا بنا يا كاروت ، ان ارض هؤلاء القوم لا تطيب لنا .

الحال - الم اقل ان بلاد الغرب تصيب الناس بالجنون ؟
جعفر خان (يخلع التعويذة من صدره ويلقيها على المنضدة)
دوذكىم تعويذتكم والقميص وزينت .

الام - وامصيتاه ! ماذا تصنع يا جعفر !
جعفر خان - اما انت يا اماء فى عندك رجاء واحد . وهو
الا توقدوا الشموع من اجل (ينزع الحقيبة ورباط الكلب من
يد زينت ويهم بالخروج) هيا بنا يا كاروت هيا بنا .
الحال (يمسك بعضده) ماذا بك هل جننت !؟
مشهدى اكبر - سيدى ان السفر برا غير مسموح به (ينزع
الحقيبة من يده)

زينت - الا تبقى لاجلى ؟
جعفر خان - لا ، هذا مستحيل ، هيا بنا يا كاروت .
الجميع - (يمنعون ومشهدى اكبر ينزع منه الحقيبة) لن
تسافر لن تسافر .

الحال - السفر غير مباح

الام - ليتنى مت قبل هذا

زينت - واشقوتى

مشهدى اكبر - لقد طهينا لك طعاما شهيا هذا المساء ..

(يسدل الستار)

غربة المساء

قصيدة مشهورة في الادب التركي الحديث لرضا
توفيق بك المتوفى منذ شهور . والرجل من اعلام
السياسة واساطين الادب ، غير ان الفلسفة كانت
اخص ما يشغله حتى عرف بالفيلسوف ، وإذا ما دل
هذا المثال من شعره على شيء ، فانما يدل على أن
القلوب الشاعرة قد تجاوز العقول المفكرة في الاحايين .
فالانسان عقل وروح ، يتردد ذهنه بالنظر والتدبر
بطلب المعاني ، كما يطرب ويحلم وتستيه الاغاني .

كنت في امسية بين الحقول اجول .. فكأنني بينات الحور
قد حللن في كل الارجاء وسكن . وكلما ادرت طرفي حائرا
مستوحشا ، حسبت هذا الخلاء مليئا بأسرار الحسن . ونقلت

الخطى ، نخلت الجبال والجلاميد تمضى معى ، وشاهدت تمرغ
الافياء امام الدوح ، فوقع فى نفسى ان كل شىء هناك يرانى ، كما
شعرت ان الكون مسرور محبور لوجودى . ومنذ الازل البعيد
كان هذا الغدير البرود يغنى لتلك الناحية غناء الام لاينها فى
المهد . وقد تكشفت لى الخيلة عن بائع سرها ، فكأن شبانى كان
هناك دينا . وانبسطت شجرات الصنوبر كهيمته الاجنحة ،
وبدت المروج كما تبدو السماء ذات النجوم الطوالع . اما الازاهير
فيا لها عجائب على الافهام منهمة ! وما وقعت على شىء عبنى ،
الا خلته سحرا فتار عجبى . كانت ساعة للهوى والنجوى ، والبلبل
الصدوح يغنى ويغنى . والصوت الضاحك منطلق من بين الافنان ،
وتشهى الزهر قبلة على الطير ، فدار بخلدى ان الكائنات قد جنت
بالعشق جنونا .

وكان الفصل اصبح الخريف من ذاك العام ، فبدت
الأرض والأوراق والسحاب وهى تكتسى الصدا . أما شجرات
السرو فتجللت بالسواد كأنها تلبس الحداد . ورأيت للكآبة غبرة
على الصخور الحاملة الواهمة ، واضرمت فى المغرب نار للفراق ،
وعاد إلى الوكر اليف كل طير . واتكأت الشمس على الجبل

شأن الجريح المتهالك . لقد ترشفت روحى على لذة لونها المستعر
المذاب ، وما ابصرت حمرتها الدامية فى الافق حتى حسبت
الافلاك مثلى جريحة الفؤاد . كانت المياه ارجوانية والجبال
بنفسجية ، واحدى بنات الحور على الغدير واقفة منتظرة ، ولثم
نجم المساء منها الجبين ، فما ظننته الا محبا لها وامقا ، وبدت حمر
الازاهر على حافة الماء ، وفى الورود هالات نارية ، وانعكست
من بعيد اصمءاء مترددة للشكوى ، فشبه لى غزال اصاب قلبه
الصياد .

لقد سرى من الشمس ماء حسنها فى الروض والثريا
والبدر ، وذاك لانها ارتضعت شفقتها الذابلة وهى تجود بنفسها .
ورأيت حمرة الارجوان فى كل شىء ، حتى خيل الى ان قمر هذه
الامسية وردى الضياء .

فهرس

صفحة

٧	مقدمة
١٢	الوطنية في الشعر التركي
١٩	رأى في الخيام
٢٦	السلطين الشعراء
٣٥	على قبرها
٤١	عرش وسلطان
٤٩	الشاعر الحزين
٥٧	قافلتان إلى الحجاز
٦٤	شاعران سجينان
٧٣	غضبة الأرض
٨٠	الشاعر وبنت الملك
٨٧	رثاء الابداء في الشعر الفارسي والتركي

صفحة

٩٩	ثورتان
١١١	مصارع العظاء
١٢٢	من او هام العشاق
١٣٠	شاعران هجاءان
١٤٢	فى قرية الغرباء
١٥٠	شاعران ضحكان
١٥٩	حمالة الخطب
١٦٧	عصر الزهر
١٧٦	روح حيرى
١٨٤	شاعران تركيتان
١٩٣	اب ظلوم
٢٠١	سقاية عابر السبيل
٢٠٩	المغامر الشاعر
٢١٨	دراويش الترك
٢٢٧	الترك فى حماماتهم
٢٣٥	الاسير

صفحة

٢٤٥	مصر في الشعر التركي
٢٥٧	يقظة الليل
٢٦٠	الطبيعة في الشعر الفارسي والتركي
٢٧١	وطنية المرأة الايرانية
٢٨٠	رثاء السلاطين
٢٩٢	الفرس في ادب الغرب
٣٠٣	السفرور والقبعة في تركيا
٣١٢	السفراء في ايران القديمة
٣٢٢	ثورة الجوع
٣٣١	الوطن
٣٤٦	عائشة التيمورية في شعرها الفارسي والتركي
٣٥٩	دهاؤه وكيدها
٣٦٧	الهند في الشعر الفارسي
٣٧٧	شاعر السلام
٣٨٦	مولد النبي في الشعر التركي
٣٩٤	باريس

صفحة

٣٩٨	خيال الظل عند الترك
٤٠٧	طيور في شعر الفرس
٤١٦	مذهبان هدامان في تركيا وإيران
٤٢٥	مصير كسرى
٤٣٩	وزيران يهوديان
٤٥١	جعفر خان يعود من الغرب
٤٩٧	غربة المساء
٥٠٠	فهرس
٥٠٤	تصويبات

تصویبات

الصواب	الخطأ
ولا يجدون	ص ١٤ م ١٥ فلا يجدون
اشتد	ص ٢١ م ٨ شتد
أني	ص ٣٩ م ١٥ إني
انبعث	ص ٤١ م ٣ انبعث
وارثه	ص ٤٢ م ٩ ورثه
كالا	ص ٤٦ م ٨ ولا
آثر	ص ٥٥ م ٣ آثر
وانتشرت	ص ٥٦ م ١١ وانتشرت
منزمتون	ص ٥٩ م ٣ منزمون
طوايا	ص ٥٩ م ١٢ طواياها
اقام	ص ٦٧ م ٢ قام
تشغل	ص ٧٥ م ١٣ تشتغل
انت	ص ٧٥ م ١٥ انب
اتفق	ص ٧٨ م ٣ اتفق
البأس	ص ١١٢ م ١ اليأس

تابع التصويبات

الصواب	الخطأ
لشعور	ص ١٣٠ س ٥ الشعور
لثلا	ص ١٣٩ س ٦ حتى لثلا
انثنت	ص ١٨٧ س ٧ انثنت
ارشف	ص ١٩١ س ١١ أرشف
فهم لا يظلمون	ص ١٩٥ س ٥ ولا يظلمون
ويجمل	ص ١٩٧ س ١٣ ويجمل
قد	ص ٢٠٥ س ٤ فقد
	ص ٢٠٦ س ١ جملة مكررة
اللفوى	ص ٢١٨ س ١ للفقوى
جوهرا	ص ٢٣٠ س ٦ جوهرا
ابن	ص ٢٣١ س ٣ بن
عقدن	ص ٢٣٢ س ١٦ عقدنا
فرخى	ص ٣٦١ س ٧ فرخى
وارث	ص ٢٨٥ س ٣ ورث
وأنس	ص ٤٤٠ س ٨ وأنس
أرجاء	ص ٤٤٠ س ١٠ إرجاء
الأم - ايه هو؟ ما باله لا يدخل!	ص ٤٥٦ بين السطر السادس عشر والسابع عشر جملة سقطت

كل طبع هذا الكتاب في الأول من شهر يونية
سنة ١٩٥٠ ميلادية ، الموافق للخامس عشر من شهر شعبان
سنة ١٣٦٩ هجرية .

مذڪرات

obaidi.com

مذہبات

obaidi.com

منكرات

oboi-kandi.com

مذڪرات

obaidi.com

دار الفكرة

دار الفكرة مؤسسة مصرية صميمة تقوم على
سواعد فتية من شباب ناهض مثقف. غايتها نقل
أفكار الغرب إلى الشرق وبعث التراث الشرقى
والاسلامى على أوسع نطاق وأبعد مدى. وهى
تأمل بذلك أن تسد الفراغ الشاغر فى المكتبة العربية